رسائل السلام

(٤)

ابتسامة الأنين

رواية حول العلاج الروحي وآثاره على الصحة

د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

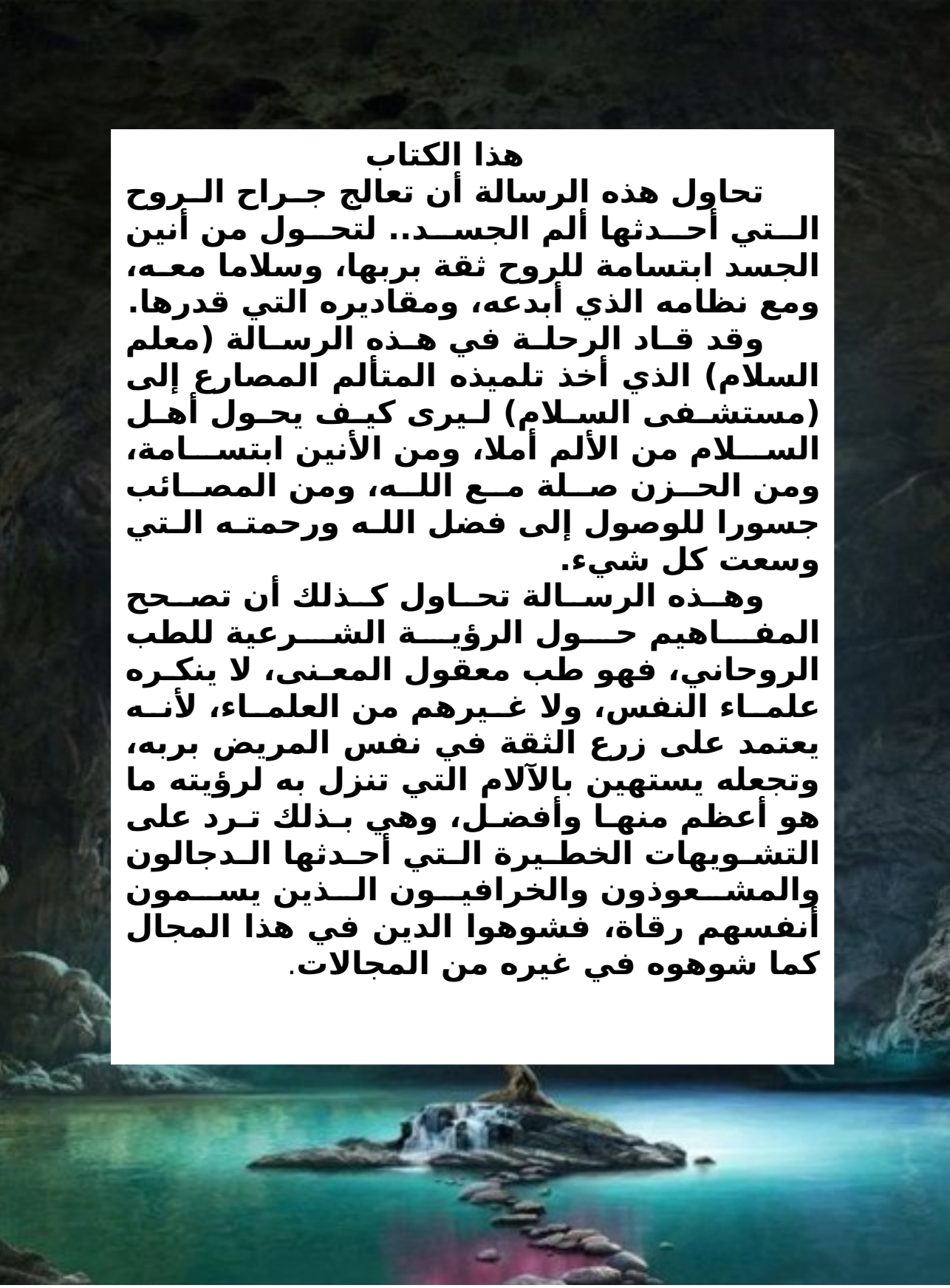

هذا الكتاب

تحاول هذه الرسالة أن تعالج جـراح الـروح الــتي أحــدثها ألم الجســد.. لتحــول من أنين الجسد ابتسامة للروح ثقة بربها، وسلاما معـه، ومع نظامه الذي أبدعه، ومقاديره التي قدرها.

وقد قـاد الرحلـة في هـذه الرسـالة (معلم السلام) الذي أخذ تلميذه المتألم المصارع إلى (مستشـفى السـلام) لـيرى كيـف يحـول أهـل الســلام من الألم أملا، ومن الأنين ابتســامة، ومن الحــزن صــلة مــع اللــه، ومن المصــائب جسورا للوصول إلى فضل اللـه ورحمتـه الـتي وسعت كل شيء.

وهــذه الرســالة تحــاول كــذلك أن تصــحح المفــاهيم حــول الرؤيــة الشــرعية للطب الروحاني، فهو طب معقول المعـنى، لا ينكـره علمــاء النفس، ولا غــيرهم من العلمــاء، لأنــه يعتمد على زرع الثقة في نفس المريض بربه، وتجعله يستهين بالآلام التي تنزل به لرؤيته ما هو أعظم منهـا وأفضـل، وهي بـذلك تـرد على التشـويهات الخطـيرة الـتي أحـدثها الـدجالون والمشــعوذون والخرافيــون الــذين يســمون أنفسهم رقاة، فشوهوا الدين في هذا المجال كما شوهوه في غيره من المجالات.

رسائل السلام

(4)

ابتسامة الأنين

رواية

د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الثانية

2015 – 1436

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات 2
المقدمة 6
معلم السلام 8
أولا ـ حصن الغيبة 14
الغيبة بالله 18

حب الله: 27
الرضى عن الله: 33
السكون لمقادير الله: 40
الغيبة بنعم الله 49

نعمة التمييز: 51
نعمة التمحيص: 54
نعمة التأديب: 56
نعمة التذكير: 60
نعمة الافتقار: 63
نعمة المحدودية: 69
نعمة السكينة: 79
نعمة التطهير: 81
نعمة المعاينة: 86
نعمة الثواب: 88
عدم الحساب: 89
الجنة: 92
رفع الدرجات: 93
صلاة الله: 94
استمرار الثواب: 95
ثانيا ـ حصن الأمل 97
القدرة المطلقة 105

الفضل الواسع 112

الحي القيوم: 114
الصمد: 118
الكافي: 120

الشافي: **123**
المغيث: **125**
فارج الكرب: 126
باعث اليسر: 128
كاشف الضر: 129
شارح الصدور: 131
ثالثا ـ حصن الاستعانة **133**
الدعاء **139**

وهم الضعف: **143**
وهم المعارضة: **148**
وهم النقص: **155**
وهم اليأس: **158**
العلة الفطرية: 158
العلة المكتسبة: 162
العمل الصالح **166**

الصلة بالله: **171**
الإحسان إلى الخلق: **180**
رابعا ـ حصن الاستعاذة **184**
الاستعاذة من الشياطين **187**

القرآن الكريم: **189**
السنة المطهرة: **209**
الحديث الأول: 211
الحديث الثاني: 213
الحديث الثالث: 216
الحديث الرابع: 218
الحديث الخامس: 219
العلم: **224**
العلاج البديل: **232**
الاستعاذة من السحر **239**

تشخيص السحر: **241**
السحر التخييلي: 242

السحر التأثيري: 247
علاج السحر: 257
الاستعاذة من العين 260

ملاجئ إلهية 274

القرآن الكريم: 278
الاستعاذات الشرعية: 285
الرقى الشرعية: 293
الخاتمة 303
هذا الكتاب 311

المقدمة

لا شك أن الكثير من المتألمين الذين تـذوقوا بعض الجرعـات الشديدة من الحزن والألم والمصائب يشعرون في قرارة أنفسهم ـ عبروا أو لم يعبروا ـ بأنواع من الصراع والاعـتراض على مقـادير اللــه.. فهم يتســاءلون عن ســرها.. وعن ســر نزولهــا بهم دون غيرهم.. وعن علاقتهـا بالرحمـة الإلهيـة الـتي هي منبـع كـل شـيء ومنتهاه..

وكــل تلــك الاعتراضــات المتصــاعدة مــع أنــاتهم تجعلهم لا يعيشون السلام مع أنفسهم، ولا مع الكون، ولا مع رب الكــون، ولا مع النظام الذي أنشأ الله به كونه.. ولـذلك كـانت آثـار ذلـك الأنين أخطر بكثـير من الأنين نفسـه.. وكـان أثـر الألم أعظم تـأثيرا على أرواحهم وعلاقتهم بربهم من الألم نفسه.

ولذلك حاولنا في هذه الرسـالة أن نعـالج جـراح الـروح الـتي أحدثها ألم الجسـد.. لنحـول من أنين الجسـد ابتسـامة للـروح ثقـة بربها، وسلاما معه، ومع نظامه الذي أبدعه، ومقاديره التي قدرها.

وقد قاد الرحلة في هذه الرسـالة – كـأكثر رسـائل السـلام – (معلم السلام) الذي أخذ تلميذه المتألم المصـارع إلى (مستشـفى السلام) ليرى كيـف يحـول أهـل السـلام من الألم أملا، ومن الأنين ابتسـامة، ومن الحـزن صـلة مـع اللـه، ومن المصـائب جسـورا للوصول إلى فضل الله ورحمته التي وسعت كل شيء.

وهذا المستشـفى مكـون من أربعـة حصـون .. كـل حصـن يعالج ألما من آلام الروح، ويزرع ابتسامة عذبـة تفيض من قلب المتألم لتمسح آلامه، والصراع الذي أحدثته آلامه، وهي:

حصن الغيبة: وهو الحصـن الـذي يغيب فيـه المتـألم عن ألمه بسبب معرفته بربه وحبه له ورضاه عنه وسكونه إليه .. أو بسبب رؤية ما أعد الله لأهل البلاء من أنواع الجزاء.

حصن الأمل: وهو الحصن الـذي يمتلئ فيـه المتـألم ثقـة بقـدرة ربـه على أن يخرجـه من بلائـه نتيجـة قراءتـه العرفانيـة لأســمائه الحســنى .. وخاصــة الأســماء الدالــة على القــدرة المطلقة، وعلى الفضل الواسع، والكرم العظيم.

حصن الاستعانة: وهو الحصن الذي يلجأ فيه المتألم إلى ربه بدعائه وعمله الصـالح متضـرعا منيبـا ليبدلـه السـعادة بـدل الشـقاوة، والعافيـة بـدل البلاء.. فيكتسـب بـذلك صـلة بربـه، وعبودية تقربه إليه.

حصن الاستعاذة: وهو الحصن الذي يفر فيه المبتلى من كل ما ينغص علاقته بربه، ويحول بينه وبينه.. وقد رددنا في هذا الحصن بتفصيل على المشعوذين الذين استعملوا ما يسمى بالرقية وسيلة للخرافة والشعوذة وصرف الخلق عن الله.

وهذه الرسالة تحاول كذلك أن تصحح المفاهيم حول الرؤية الشرعية للطب الروحاني، فهو طب معقول المعنى، لا ينكره علماء النفس، ولا غيرهم من العلماء، لأنه يعتمد على زرع الثقة في نفس المريض بربه، وتجعله يستهين بالآلام التي تنزل به لرؤيته ما هو أعظم منها وأفضل، وهي بذلك ترد على التشويهات الخطيرة التي أحدثها الدجالون والمشعوذون والخرافيون الذين يسمون أنفسهم رقاة، فشوهوا الدين في هذا المجال كما شوهوه في غيره من المجالات.

وقد أتبعنا هذه الرسالة بثلاث رسائل أخرى من رسائل السلام تحاول جميعا أن تعطي صورة أوضح لهذا الجانب الخطير من الإنسان.. والذي يجعله لا يعيش السلام الذي بنى الله كونه عليه.

معلم السلام

جاءني معلم السلام في ذلك اليوم المبارك، وقد رآني أشكو من بعض الآلام، فقال: هلم بنا إلى مستشفى السلام، لتعالج أدواءك، وتبتسم لأنينك.

قلت: وهل للسلام مستشفى.. وبماذا يعالج؟

قال: لا مستشفى بلا سلام.. وكل مستشفى يخلو من السلام هو بيت للداء، لا بيت للدواء..

قلت: المستشفيات ــ يا معلم ــ خاضعة لقوانين معينة لا تعدوها، فهي تعالج العلل بما توصلت إليه الكيمياء الحديثة من تركيبات.

قال: هناك كيمياؤكم، وهي قد تداوي داء، وتعجز عن أدواء، وتنشر أدواء.. وهناك كيمياء السلام.. وهي دواء لكل علة، تنشر العافية المضمخة بعطر السكينة.

قلت: فأين مستشفى السلام؟ ومن أطباؤه؟ وكيف يعالج؟

قال: هذه رحلتنا في هذه الرسالة.

قلت: هل سنرحل من هنا؟ وفي أي طائرة؟ وليس لي جواز سفر.

قال: لا تحتاج إلى طائرة.. أما جواز سفرك فهو الإرادة، ألم تعلم أن الإرادة مفتاح لكل باب.. ونافذة لكل مغلق؟

قلت: عرفت الإرادة.. ولكني لم أر في حياتي شخصا يمتطي طائرة تسمى (الإرادة) ليرحل بها.

قال: من لم يرحل بطائرة الإرادة، فهو لم يفارق مكانه.

قلت: لا ـ يا معلم ـ هم يطيرون في الأجواء، فيقطعون البحار السبعة.

قال: ولكنهم لم يغادروا الأرض.

قلت: لا ـ يا معلم ـ لقد غادروها.. ورحلوا إلى القمر، ويوشك أن يرحلوا إلى المريخ..

قال: وما القمر؟.. وما المريخ؟.. كلها حجارة كحجارة جبالكم وقلوبكم.

قلت: فكيف نرحل؟

قال: قبل أن ترحل انظر إلى أعماقك التي تملتئ بهذا الأنين الذي ينشره الألم، وقل لي: ماذا ترى؟

قلت: أنزل إلى أعماقي !؟

قال: نعم.. لن ترحل إلا بعد أن تنزل.. ولن تنبت إلا بعد أن

تدفن.. ولن تنتج إلا بعد أن تغرس.. ولن يقوم بنيانك إلا إذا حفـرت أساسك.

قلت: فعن أي لؤلؤة أبحث في أعماقي؟

قال: لا تحتـاج إلى اللآلئ، فهي حجـارة كالحجـارة، بـل ابحث عن الظلام لتطفئـه بـالنور، وابحث عن الحـراب الـتي توجههـا إلى ربك لتكسرها باليقين.

نزلت إلى أعماقي، فرأيت أناتي حرابا متوجهـة إلى السـماء، تقـول كـل أنـة بلسـان فصـيح: (لم يـا رب تتفنن في إيلامي؟.. لم تملــؤني بــالحزن؟.. لم تملأ مشــاعري بالأســى؟.. لم تغمــرني بالإحباط؟)

صحت خائفا في وجهها: كفي يا أناتي.. أتدري من تخـاطبين.. إنه الذي لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (الانبياء:23)

كانت الأنات تردد توشيحاتها.. ولا تبالي بي، صحت: يـا معلم.. أنقذني من هذه الأنات الكافرة.. فهي تريـد أن تـزج بي في هاويـة جهنم.. إنها لا تستحي من الله.. إنها لا تخجل من ضعفها.

قال المعلم: أناتك هي أنت.. فأنت تختفي في ظل أناتك.

قلت: ولكني أقاومها.

قال: تقاومها بلسانك، وهو مجـرد جارحـة من جوارحـك تتقن النفاق.. أما حقيقتك، فتصيح بما صاحت به أناتك..

قلت: فكيف أنقذ حقيقتي من هذا الانحدار الذي توقعـني فيـه أناتي؟

قال: هيا نرحل إلى مستشـفى السـلام لتنقـذ روحـك، وتنقـذ معها حقيقتـك، وعسـى اللـه أن يهبـك مـا تقي بـه جسـدك، فاللـه شكور حليم.

قلت: هيا نرحل..

قال: امتط إرادتك.. وسر معي.

امتطيت الإرادة الـتي بثهـا في الألم، فـإذا بي، وفي أقـل من طرفــة عين أرى بنيانــا عجيبــا.. لســت أدري هــل نبت كمــا تنبت الأزهار، أم شيد كما تشيد القصور.. كـان يشـبه زهـرة من الأزهـار الجميلة.. لا تفوح منه إلا عطور الشفاء.

قلت للمعلم: أهذا مستشفى، أم فندق؟

قال: بل مستشفى.

قلت: ولكني لا أشم فيه رائحة المرض.

قال: هو مستشفى، فكيف تشم فيه روائح المرض؟

قلت: المستشفيات عندنا لها روائح مميزة.. تتقزز منها أنوف الأصحاء.

قال: تلك مستشفياتكم الـتي تتعامـل معكم كمـا تتعامـل مـع الآلات.. لا مع الإنسان.

قلت: فما سر هذه العطور الزكية؟

قـال: هي عطـور الحقـائق، فمستشـفى السـلام لا يعطيـك وصفات لتشتري بها أدوية تعالج بهـا الخلـل الـذي أصـاب جسـدك، وإنما يعطيك الوصـفات الـتي تعـالج بهـا روحـك الـتي تسـببت في الخلل الذي حصل لجسدك.

قلت: أهي تعالج المنبع؟

قال: هي لا تتقن فنون الطلاء التي تتقنونها.

قلت: إذن سنرى في هذا المستشفى الحصـون الـتي تحتمي بها الروح من ألم الداء.. فتسالم الله في بلائه..

قال: أجل.. وهي حصون أربعة..

قلت: فما هي؟

قال: حصن الغيبة، وحصن الأمل، وحصـن الاسـتعانة، وحصـن الاستعاذة.

قلت: فما الغيبة؟

قال: هي الغفلة عن الآلام بالحضور مع اللـه، أو بالرضـى عن الله، أو بالسكون لمقادير الله، أو بالنظر في نعم الله.

قلت: فما الأمل؟

قـال: انتظـار الفـرج من اللـه، والتعـرف عليـه ليمتلئ قلبـك بالأمل الصادق.

قلت: فما الاستعانة؟

قال: هي الاستعانة بالله في رفع البلاء، أو في تلطيفه.

قلت: فما الاستعاذة؟

قال: الاستعاذة من شياطين الروح الذين ينفخون آلام اليـأس والحزن.

قلت: فلم كانت هذه الأقسام أربعة؟

قـال: هـذه هي الأسـس الأربـع في التعامـل مـع البلاء، هي الأسس الصحيحة التي دلت عليها النصوص، وهي التي عاشها أهل الله في صحبتهم لما ينزل عليهم من أمطار البلاء، لكن سوء الفهم تطرق لبعض هذه القواعد، فانخرم عقد نظامها:

فخـرج الغـافلون من الثـورة على البلاء إلى الثـورة على

المبتلي، فحاربوا الله وخاصموه.
وانشغل آخرون بالبلاء عن المبتلي، فحجبوا بحيـاة البلاء الـتي أصابت بعض جوارحهم عن العافية التي تنعم بها كل لطائفهم.
واختار آخرون أن يغفلوا بالمبتلي عن البلاء، لكن سـوء الفهم طـرق لهم أيضـا، فـاعتبروا الثـورة على البلاء ثـورة على المبتلي، ومنازعة الأقدار بالأقدار محاربة لأقـدار اللـه، فحجب سـوء فهمهم عن مقاصد أهل الله، وأساء المعرفة بالله.
قلت: فما علامة الشفاء الـتي تسـمح للمـريض بـالخروج من المستشفى؟
قال: الابتسامة.. ابتسامة الأنين.
قلت: ألا تجرون له أي تحاليل للتأكد من سلامته؟
قال: أما تحاليلكم.. فلا نجريها.. ولكن لنا تحاليلنا الخاصة.
قلت: من أطباؤكم؟
قـال: لكـل قسـم أطبـاؤه، وسـنمر عليهم، ونتعـرف بهم، ونستفيد منهم.
قلت: فما أنواع الأمراض التي يستقبلها هذا المستشفى؟
قال: كل الأمراض أمراض.. وكل الأنات أنات.
قلت: لم تفهمني.. نحن لدينا مستشفيات تخصصية.
قال: أنتم تتعاملون مـع الجسـد المـركب.. ونحن نتعامـل مـع الحقيقة الواحدة، فلذلك لم نحتج لما احتجتم إليه.
قلت: فما نسبة الشفاء في هذا المستشفى؟
قال: سمعتكم تعبرون عن الكمال بالمائة.
ضحكت، وقلت: تقصد مائة بالمائة.
قال: إن أردت الشفاء التام لكل من يدخل، فهو تعبير صحيح.
قلت: فكم من المال يدفع من يدخل المستشفى؟
قـال: مـا نصـحك من طلب منـك مالـك، ألا تعلم أن العفـاف شرط من شروط السلام؟
قلت: فمن أين يعيش أطباء هذا المستشفى؟
قال: من عيون الحكمة النابعة من بحار السلام.
قلت: اعذرني.. لقد نسيت.. تصورت نفسي أجري حوارا مـع مستشفى من مستشفياتنا.

***

رأيت أقواما مختلفين يدخولون هذا المستشفى، والكـدورات تملأ نفوسهم، والظلمة تغمر وجوههم، قلت: من هؤلاء؟

قال: أنت.
قلت: كيف.. فأنا هو أنا.
قال: كلهم رأى في أعماقه ما رأيت في أعماقك، فجاء يبحث عن شفاء.

***

رأيت آخـرين يخرجـون مبتسـمين تشـرق أسـارير وجـوههم بالنور، وتسري في أوصالهم العافية، قلت: من هؤلاء؟
قال: هؤلاء الذين أذن لهم بالخروج من المستشـفى، بعـد أن امتلأت أرواحهم بحقائق السلام.
قلت: أطال مكوثهم؟
قال: منهم من يمكث ثانية.. ومنهم من يظـل عشـر سـنين.. ومنهم من يموت في المستشفى.
قلت: فلماذا تفاوتوا.. ألا يقدم لهم علاج واحد؟
قـال: تفـاوتوا بتفـاوت الهمم.. فمنهم من أنس وسـكن، ولم يرحـل.. ومنهم من ارتفعت همتـه.. فـراح يبحث عن دور السـلام الأخرى ليصعد من خلالها إلى الله.
قلت: فما تنصحني حتى لا أقع فيما وقعوا فيه؟
قال: بالرحلة الدائمة والعبور المستمر.. ضع بين عينيك دائما: ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ (النجم:42)

أولا ـ حصن الغيبة

دخلنا الحصن الأول من حصون الروح.. كـان النـور يشـع فيـه من كـل النـواحي.. وهـو نـور هـادئ مـريح تكـاد النفس تغيب في جماله.. وكان النور يكتب بإشعاعاته عبارات حاولت قراءتها بعيني، فلم أفلح، قلت لمعلم السلام: ماذا تكتب هذه الأنوار؟

قال: اسمعها ببصيرتك.. ولا تقرأها بعينك.

أصغيت بأذن بصيرتي، فسمعت صوتا حانيا يتوجه إلي قائلا: لا تحـزن إن ألمت بـك الأدواء، وطـافت بجسـمك السـموم، وانتهض جيش الشيطان ليملأ قلبك هما وحزنا.

لا تحزن.. واجعل من أدواء جسمك أدويـة لقلبـك، وحـول من تثاقل ذاتك الطينية سموا لذاتك الروحية.

قلت: يا معلم.. ما هذا الصوت؟

قال: هذا هو صوت أطباء البصيرة.. فهم يخاطبون أعماقك لا جوارحك.

قلت: أكل أطباء هذ المستشفى بهذه الصفة؟

قال: لا.. لكل قسـم طبيعتـه الخاصـة.. أمـا في هـذا القسـم، فلن تسمع إلا بالبصيرة.. ولن تـرى إلا بالبصـيرة.. أليس هـو قسـم (الغيبة)

قلت: إن هذا الصوت يكلفني ما لا يطيق بشـر فعلـه، فكيـف أترفـع عن ذاتي الطينيـة، وأنـا حبيسـها، وكيـف أجعـل من الأدواء دواء.. علمني، فإني لا أكاد أفهم شيئا؟

قال: سر معي، ولا تسأل.

نهضت لأسير، فقال: إلى أين؟

قلت: ألم تطلب مني أن نسير؟

قال: ألا سير إلا بالأرجل؟

قلت: هذا ما نعرفه.

قال: ما وصل من سار برجله، ولا تحقق من أتعب قدميه؟

قلت: فبم أسير؟

قال: بك.

قلت: وهل رجلاي إلا أنا؟

قال: رجلاك منك لا أنت.

قلت: فها أنذا بين يديك سر بي حيث شئت.

قال: لا يمكن لأحد أن يسير بأحد، كل واحد يسير بنفسه.

قلت: إلى أين؟
قال: إلى رياض الأولياء.
قلت: لماذا؟
قال: ليجيبوا عن سؤالك.
قلت: أي سؤال، فقد نسيت؟
قال: أنت تبحث عن الترفع عن البلاء، والترفع سيما الصالحين، ولذلك سنبحث في سيرهم لنرى ترفعهم وابتسامتهم لأنينهم.
قلت: أنا أسمعك، فارو لي أخبارهم مع الأنين.
قال: تسمعها بصيرتك من أفواه أولياء هذا القسم، فأصخ سمعها.
أصخت سمع بصيرتي، فسمعت صوتا جميلا يخاطبني قائلا: كن ـ أيها المتألم الغارق في أوحال الأنين ـ كتلك المرأة التي عثرت، وانقطع ظفرها، فضحكت، فقيل لها: أما تجدين الوجع؟ فقالت: إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه.
قال معلم السلام: هذه ابتسامة الثواب.. وهي سلوى الفقراء إلى فضل الله.
سمعت صوتا آخر يقول: كن كذلك الذي قطعت رجله من ركبته من أكلة خرجت بها، ثم قال: الحمد لله الذي أخذ مني واحدة، ولئن كنت أخذت لقد أبقيت، ولئن كنت ابتليت لقد عافيت.
قلت: ما أجمل هذا ! صوت من هذا؟
قال: هذا صوت التسليم والرضى الممزوج بالشكر.
صاح صوت آخر: كن كذلك الذي استسقى بطنه، فبقي ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد حتى نقب له في سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته، فدخل عليه أخوه، فجعل يبكي لما يراه من حاله، فقال: لم تبكي؟ قال: لأني أراك على هذه الحالة العظيمة قال: لا تبك فإنّ أحبه إلى الله تعالى أحبه إليَّ، ثم قال له لما رأى جزعه: أحدّثك شيئاً لعل الله أن ينفعك به، واكتم عليَّ حتى أموت، إنّ الملائكة تزورني فآنس بها وتسلم علي فأسمع تسليمها فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبة.
قلت: الله ! ما أعظم رحمة الله بأوليائه !
قال: هذا صوت السلوى بأهل الله.
صاح صوت آخر: كن كذلك الذي قالت له امرأته: أهلي فداؤك ما نطعمك. ما نسقيك؟ فقال: طالت الضجعة، ودبرت

الحراقيف، وأصبحت نضواً لا أطعم طعاماً ولا أسيغ شراباً منذ كـذا، وما يسرني أني نقصت من هذا قلامة ظفر.

قلت: هذا التسليم بعينه.. هذا الرضى المحفوف بالسعادة.

صاح صوت آخر: كن كـذلك الـذي نظـر رجـل إلى قرحـة في رجله، فقال: إني لأرحمك من هـذه القرحـة، فقـال: إني لأشـكرها منذ خرجت إذ لم تخرج في عيني.

قلت: هذا الشكر..

قال: وهو سر من أسرار الابتسامة.

صاح صوت آخر: كن كذلك الذي جمع أصناف البلاء، فقد كان أعمى مجذوما والنمل يأكل لحمه، فرآه بعض الناس، فحزن عليـه، فقال: من هذا الفضولي الذي يدخل بـيني وبـين ربـي، لـو قطعـني إرباً إرباً ما ازددت له إلا حباً؟

قلت: هذا الحب..

قال: وهو منبع من منابع السكينة، ومخدر من مخدرات الألم.

صاح صوت آخر: كن كالذي عبد الله بابتسامة الأنين، فجعلـه الله أعبد أهل زمانه، يروى أنّ يونس عليه السلام قال لجبريـل: دلـني على أعبد أهل الأرض. فدله على رجـل قـد قطـع الجـذام يديـه ورجليـه وذهب ببصره، فسمعه وهو يقول: إلهي متعتني بهما ما شئت أنت، وسلبتني ما شئت أنت، وأبقيت لي فيك الأمل يا بر يا وصول.

قلت: هذا صوت الأمل.

قال: وهو صـوت العـارفين باللـه المحسـنين الظن بـه.. وهـو صوت السعادة الطامحة إلى المعالي.

صـاح صـوت آخـر، كأنـه يجمـع الأصـوات جميعـا: كن مثلهم، فابتسموا في الوقت الذي أن فيه غيرهم، وفرحوا في الوقت الذي حزن فيه غيرهم، وحمدوا الله في الوقت الذي ضجر فيـه غـيرهم، فنالوا الرضى، وفازوا بالجنتين جميعا، جنة الدنيا وجنة الآخرة.

قلت لمعلم السـلام: فمـا كـان حـاديهم في ذلـك.. من فـتر ثغورهم بالابتسامة العذبة، وخدر آلامهم من غير ترياق؟

قال: بلسمان شافيان: أما الأول فقد غابوا بالله عمـا سـواه، حبا له، ورضى به، وسكونا لمقاديره.. وأما الثاني، فنعم اللـه الـتي ينطوي عليها البلاء، فـالمبتلى عامـل عنـد اللـه، وللعامـل حـظ من اسم الله (الشكور) يناله لا محالة، فيغيب بنواله عن كل ألم.

قلت: فأين نجد هذين البلسمين؟

قال: لكل منهما قاعة علاجه الخاصة.. فهلم إليهما.

الغيبة بالله

دخلت القاعة الأولى، وهي أنوار محضة لا يمكن وصفها، وإذا لافتة مكتوب عليها قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (يوسف:31)

وسمعت صوتا حانيا قويا يقول ـ وكأنه يخاطب جميع مرضى العالم ـ: (أول ما يكسر سورة الأنين الذي قد يتخذه الشيطان رماحا تحارب بها ربك هو أن تغيب عن الأنين برب الأنين.. فتتخذ من هذا الذي أراد الشيطان أن يجعله نصبا ليستل عقلك وقلبك وروحك، ويضمك إلى حزبه، معراجا تعرجا به إلى ربك، وسلما ترتقي به إلى سموات لم تحلم بها في حال طمأنينة جسدك ورخائه)

قلت لمعلم السلام: ما هذه القاعة؟

قال: هذه قاعة الغيبة بالله، وهي القاعة التي يموت فيها الألم انشغالا بالله.

قلت: فما تلك الآية، وما علاقتها بهذه القاعة؟

قال: ما تقول الآية؟

قلت: هؤلاء نسوة تهن في جمال يوسف، فقطعن أيديهن لفرط ذهولهن، ومع ذلك لم يشعرن بما حصل في أيديهن من الألم(1).

قال: فكيف لو رأين جمال رب يوسف، وكيف لو غرقن في بحار حبه المقدسة؟

ثم التفت إلي، وقال: أتدري ما قيمة غيبتك عن الأنين؟

قلت: أجل لقد قال بديع الزمان: (كلما استعظمت المصائب المادية عظُمت، وكلما استصغرتَها صغرت)(2)، وأعظم احتقار واستصغار هو عدم الالتفات إليها، أو الاهتمام بها، كما لا يهتم بكل صغير حقير.

---

1) أثبت العلم الحديث هذا، ففي دراسة موثقة تحت عنوان (إشارة قرآنية إلى ظاهرة شد الانتباه في تقليل الشعور بالألم) انطلقت من الآية التي ذكرناها، جاء فيها أنه تم إجراء تجربة استخدام العلاج بشد الانتباه برؤية مناظر خلابة من الطبيعة وسماع شريط يحتوي على أصوات رائعة من الطبيعة في التخفيف من الآلام أثناء عملية منظار الشعب الهوائية وذلك بالإضافة للعلاج المعتاد. وقورنت هذه المجموعة من المرضى بمجموعة أخرى ضابطة لم تتلق العلاج الإضافي بجذب الانتباه (تغيير التركيز الإدراكي).

وخلص هذا البحث إلى أن العلاج بشد الانتباه مع العلاج التقليدي أدى إلى تقليص الشعور بالألم بصورة ذات دلالة إحصائية، وأوصى البحث بأن يقوم الأطباء باستخدام الإجراءات الطبيعية بالإضافة إلى المسكنات المعتادة.

2) اللمعة الثانية: 17.

ويضرب الإمام بديع الزمان مثلا على ذلك بقولـه: (كلمـا اهتم الانسان بـما يتراءى له من وهم ليلاً يضخـم ذلك في نظـره، بينــما إذا أهملــه يتلاشـى، وكلــما تعـرض الانسـان لـوكر الزنـابير ازداد هجومها، وإذا أهملـها تفرقت)(1)

قال: صدقت، وقد سمعته، وهو يصـرح بالـدعوة إلى مـا دعـا إليه الأوليـاء من إحلال الابتسـامة محـل الأنين، فيقـول: (نعم..! إن الإنسان مثلـما يخفف حدَّة خصمه باستقبالـه بالبشـر والابتسـامة، فتتضاءل سَورة العـداوة وتنطفىء نـار الــخصومة، بـل قـد تنقلب صـداقةً ومصـالحة، كـذلك الأمـر في اسـتقبال البلاء بالتوكـل على القدير يذهبُ أثره)(2)

قلت: هل سمعته بأذنك؟

قال: دعك من هذا.. وقل لي: ما تشعر؟

قلت: لا أكتمك ـ يـا معلم ــ أني لا تـزال في روائح الاعـتراض المنتنة.

قال: فما تقول لك؟

قلت: تقــول لي: (مرضــي خطـير، ودائي مسـتعص، والآلام تفتـك بي.. فـأنى لي أن أنشـغل، وكـل خليـة مـني تتـألم.. وهـل ينشغل عن النار من اشتمل عليه لهيبها، فلم يدع له متنفسا؟)

قـال: فاسـمع لمـا يصـيح بـه الربـانيون العـازفون على أوتـار الحقيقة مخبرين عن الترياق الفعال لهذا الألم المكنون.

سمعت صوتا يقـول: لقـد أخـبر بعض الصـالحين عن القـدرة العجيبة التي يتحملها المنشغل بالله، لما سئل: هل يجد المحب ألم البلاء؟ قال: لا، قـال: وإن ضـرب بالسـيف قـال: (نعم وإن ضـرب بالسيف سبعين ضربة، ضربة على ضربة)

قـال لي المعلم: أتـدري مـا سـبب بطلان إحسـاس المحـبين بالآلام؟

قلت: لقد مثل الغزالي ذلك بالرجل المحارب، فإنـه في حـال غضبه أو في حال خوفه قد تصيبه الجراح، وهو لا يحس بألم ذلــك لشـغل قلبـه.. ثم بين علـة هـذه الحالـة وقانونهـا الـذي لا يختص بالمحبين لله، فقال: (وكل ذلك لأنّ القلب إذا صار مسـتغرقاً بـأمر من الأمـور مسـتوفى بـه لم يـدرك مـا عـداه، فكـذلك العاشـق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتـألم

---

1) اللمعة الثانية: 17.

2) اللمعة الثانية - ص: 17.

به أو يغتمّ له لولا عشقه، ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه. هذا إذا أصابه من غير حبيبه فكيف إذا أصابه من حبيبه؟)[1]

وقد ذكر الغزالي الأمثلة الواقعية الكثيرة على هذا، فذكر أن هناك من يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه، ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا صمم به وقد يمرّ على ابنه مثلاً فلا يكلمه.

وذكر عن بعضهم يجري عليه ذلك أنه قال لمن عاتبه: إذا مررت بي فحركني.

وذكر عن بعضهم أنه قيل له: هل تعرف في زمانك هذا رجلاً قد اشتغل بحاله عن الخلق؟ فقال: ما أعرف إلا غلاما سيدخل عليكم الساعة، فما كان إلا سريعاً حتى دخل الغلام، فقال له: من أين جئت يا غلام؟ فقال من موضع كذا ـ وكان طريقه على السوق ـ فقال: من لقيت في الطريق؟ فقال: ما رأيت أحداً.

وحكي عن بعضهم أنه قال: مررت بجماعة يترامون وواحد جالس بعيداً منهم، فتقدّمت إليه فأردت أن أكلمه فقال: ذكر الله تعالى أشهى فقلت: أنت وحدك؟ فقال: معي ربي وملكاي فقلت: من سبق من هؤلاء؟ فقال: من غفر الله له، فقلت: أين الطريق؟ فأشار نحو السماء وقام ومشى وقال: أكثر خلقك شاغل عنك.

ودخل بعض الصالحين على أخيه وهو معتكف فوجده ساكناً حسن الاجتماع لا يتحرّك من ظاهره شيء فقال له: من أين أخذت هذه المراقبة والسكون؟ فقال: من سنور كانت لنا، فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الحجر لا تتحرّك لها شعرة.

قال المعلم: فإذا كان الحب والعشق من أعظم الشواغل، وكان ذلك في ألم يسير بسبب حب خفيف، فكيف يكون الأمر لو تصوّر في الألم العظيم بالحب العظيم؟

قلت: لقد بين بعض الصالحين كيف يتمكن المحب من قهر كل ألوان البلاء، فقال يحكي عن نفسه: مررت برجل وقد ضرب ألف سوط في شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل إلى الحبس، فتبعته فقلت له: لم ضربت؟ فقال: لأني عاشق، فقلت له: ولم سكت؟ قال: (لأنّ معشوقي كان بحذائي ينظر إليَّ، فقلت: فلو نظرت إلى المعشوق الأكبر قال: فزعق زعقة خرّ ميتاً.

قال: أتدري كيف يرى الربانيون المنشغل بذاته عن ربه، أو

---

1) الإحياء: 4/347.

الذين يعبدون الله على حرف، فلم يعبروا من عبادته إلى معرفتـه، ولم يخرجوا من أنفسهم إليه.

قلت: كيف يرونه؟

قال: يرونهم قاصـرين محـاطين بـأنواع الشـوائب، وقـد قيـل لبعضهم: هاهنا رجل قد تعبد خمسين سـنة، فقصـده فقـال لـه: يـا حبـيب أخبرني عنك هل قنعت به؟ قال: لا، قال: أنست بـه؟ قـال: لا، قال: فهل رضيت عنه؟ قال: لا، قال: فإنما مزيدك منـه الصـوم والصـلاة؟ قـال: نعم، قـال: لـولا أني أسـتحي منـك لأخبرتـك بـأن معاملتك خمسين سنة مدخولة.

قلت: ما مراده؟

قال: مراده أنك لم يفتح لك باب القلب فتـترقى إلى درجـات القرب بأعمال القلب، وإنما أنت في طبقـات أصـحاب اليمين، لأن مزيدك منه في أعمال الجوارح(1).

قلت: هذا كلام الغزالي في الإحياء.

قال: وهو كلام كل عارف، وكل سامع ببصيرته.

التفت لأسأله عن سر ذلك، فلم أره.. تأملت ما قاله، فإذا بي أجد هذا العلاج لا يختص بهذا الجانب فقط، بل إن له علاقة شـديدة بكل ما يرتبط بالسلوك من جوانب.

فالمنشغل عن نفسه ــ مثلا ــ بنطـر النـاس، أو أعـرافهم، أو رؤاهم مستعبد للناس، مملوك للمجتمع، ينصـرف عن الحـق علمـا وفهما وسلوكا وحياة بقدر انصراف المجتمع.

ولهذا اعتبر الغزالي من (شغل نفسه بطلب رضا الناس عنـه وتحسين اعتقادهم فيه) مغرورا، لأنه (لو عرف اللـه حـق المعرفـة علم أن الخلق لا يغنون عنه من الله شيئاً؛ وأن ضـرره ونفعـه بـيد الله ولا نافع ولا ضـار سـواه، وأن من طلب رضـا النـاس ومحبتهم بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، بل رضـا النـاس غاية لا تنال، فرضا الله أولى بالطلب)(2)

قـال لي معلمي صـائحا من أعمـاقي: ولهـذا كـان من سـنن الصالحين الانشـغال باللـه عن النـاس، كانشـغالهم بـه عن النفس، قال بعضهم لأخيه ناصحا: والله ما أقول لك إلا نصحاً إنـه ليس إلى السلامة من الناس من سبـيل، فانظر ماذا يصلحك فافعله؟

ونظر آخر إلى رجل من أصحابه فقال له: اعمـل كـذا وكـذا ـ

---

1) الإحياء: 4/350.

2) الإحياء: 4/350.

لشيء أمره به ـ فقال: يا أستاذ لا أقدر عليه لأجل الناس، فـالتفت إلى أصحابه وقال: لا ينال عبـد حقيقـة من هـذا الأمـر حـتى يكـون بأحد وصفين؛ عبد تسـقط النـاس من عينـه فلا يـرى في الـدنيا إلا خالقه، وأن أحداً لا يقدر على أن يضـره ولا ينفعـه. وعبـد سـقطت نفسه عن قلبه فلا يبالي بأي حال يرونه.

وقيل لآخر: إن قوماً يحضرون مجلسـك ليس بغيتهم إلا تتبـع سقطات كلامك وتعنيتك بالسؤال؛ فتبسم وقال للقائل: (هوّن على نفسـك، فـإني حـدثت نفسـي بسـكنى الجنـان ومجـاورة الـرحمن فطمعت، وما حدثت نفسي بالسلامة من الناس لأني قد علمت أن خالقهم ورازقهم ومحيـيهم ومميتهم لم يسلم منهم)

وكيف لا يكون هـذا منطـق المؤمـنين إرضـاء للـه وقناعـة بـه وانشغالا بطلب رضاه ومدحه عن كـل رضـا، وغـيرهم من الرعـاع يقول:

مَنْ رَاقبَ النَّاس ماتَ غمَّا وفاز باللذة الجسورُ

***

قلت له، وقـد خشـيت أن يسـاء فهم كلام الأوليـاء: لكن ــ يـا معلم ـ قد يتصور قومي أن مراد الأولياء بالانشغال عن البلاء عــدم مواجهته والثورة عليه.

قال: لا.. أخطأوا في زعمهم، فـإن مـرادهم عـدم الاسـتغراق في البلاء، والغفلـة عن المصـالح الكثـيرة الـتي قـد يفوتهـا ذلـك الانشغال، وأهمها ترك الرسالة الـتي كلـف بهـا الإنسـان لأجـل مـا حصل لمطيته من عطب.

قلت: فهل تضرب لي عن ذلـك مثـالا أشـرح لهم بـه مقاصـد الأولياء؟

قال: مثل ذلك مثـل من كلـف بمهمـة خطـيرة يتوقـف عليهـا مصير حياتـه جميعـا، فحصـل لسـيارته في الطريـق مـا منعهـا من السير السليم، فماذا يفعل؟

قلت: هو بين أمرين لا ثالث لهما:

إما أن يتوقف مشتغلا بإصلاحها، منشغلا عن المهمة الخطيرة التي كلف بها، ولو أدى ذلك إلى فناء عمره في إصلاحها.

وإمـا أن ينظـر إلى مـدى اسـتعدادها للإصـلاح، فـإن أطـاق إصلاحها أصلحها، لأنها ستختصر له الكثير من مشاق الطريق، فـإن أبت الإصلاح تركها، واعتمد على وسائل أخرى يصل بها إلى تحقيق مهمته.

قال: وهكذا حال المنشغل عن بلائه والمنشغل به، فالمنشغل به ضيع مصلحتين: سيارته التي قد لا يفيده إصلاحها، ومهمته التي لا تساوي معها سيارته شيئا.

أما المنشغل عنها، فإنه وإن ضيع سيارته، فقد حفظ مهمته، بل قد يرزق بالسعي ما يعوضه عما فاته.

قلت: ولعل هناك ثمارا أخرى جليلة لما ذكروه، فالأطباء ـ اليوم، كما كانوا قبل اليوم ــ ينصحون بالانشغال عن الداء، ويعتبرونه أسلوبا حكيما من أساليب الشفاء.

فخطر أكثر الأمراض هو ما تسببه لصاحبها من أنواع الإزعاج، وهو ما يؤثر بعد ذلك على الصحة، فإذا ما انشغل المريض عن مرضه بأي شاغل كان ذلك علاجه أو مقدمة لعلاجه.

قال: لقد ذكرتني ببعض الصالحين كان له أخ، وكان يقربه ويقبل عليه، فاعتل، فعاده، فقال:

مَرِضَ الحبيبُ فَعُدتُهُ فمَرَضْتُ مِنْ حَذري عليهِ
وأتى الحبيبُ يعودني فبَرِئْتُ مِنْ نَظَري إليهِ

فالنظر إلى الحبيب والانشغال به كاف في إعادة القوة الحافظة للصحة، وفيه انشغال عن الأوهام التي يسببها فراغ القلب.

قلت: الإحصائيات المعاصرة تثبت أن الكثير ممن يتردد على العيادات مصابون بوسواس المرض، الذي هيجه فيهم فراغ قلوبهم، وانشغالهم بعالم الطين.

قال: ولهذا، فإن كثيرا من نزلاء هذا المستشفى يكتفون بهذه القاعة، فيرجعون إلى أهليهم بوافر الصحة من غير أن ينزلوا على الأقسام الأخرى.

قلت: لقد قال بعض الصالحين يعبر عن هذا المعنى:

لقد هاجَ الفراغُ عليكَ شغلاً وأسبابُ البلاءِ من الفراغِ

وقال آخر، وهو يبين قدرة الروح على ترميم أدواء الجسد:

دَوَاؤكَ فيكَ وما تَشْعُرُ ودواؤكَ منكَ وما تبصرُ
وتحسبُ أنكَ جرمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالمُ الأكبرُ

قال: إن الانشغال بالله، وإحلال الابتسامة بدل الأنين هو العلاج الذي لن تجد البشرية في مستقبل أيامها، بعد أن تتخلص من زهوها، وتتخلى عن عبودية ما سمته إله العلم، إلا ذلك

العلاج(1).

قلت: صحيح ما قلت، فهذه الأدوية التي سنها النبي ﷺ كلها ترجع إلى تغليب الانشغال بالله عن الاستماع لوساوس الشياطين، فالانشغال بالله يجعل في الإنسان قوة جبارة تقهر كل الأمراض.

قال: لو تأملنا الأدعية التي كان يدعو بها ﷺ لوجدنا فيها الكثير من هذه المعاني.. بل لو تأملنا القرآن الكريم لوجدناه علاجا ربانيا لكل الأدواء، لاشتماله من المعارف الإلهية ما ينفي جميع أنواع العلل، قال تعالى: وَنُنَزِّلُ منَ القُرآن مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحمَةٌ للمُؤمنينَ و(من) هنا لبيان الجنس لا للتبعيض، فالقرآن الكريم كله شفاء لمن استطب به.

قلت: نعم إن قومي يستشفون بالقرآن، والرقاة ـ بحمد الله ـ ينتشرون في كل مكان، لا يسمعون بعليل إلا زاروه، ولا بمسكون بمسكون إلا أحرقوا من يسكنه؟

قال: لا.. ليس العلاج القرآني ما يتوهمه هؤلاء المشعوذون، وإنما هو ماتفرزه معاني القرآن الكريم في قلب متلقيها من إخلاص العبودية لله، وتفويض الأمر كُله إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وسؤاله مجامع النعم كلها.

قلت: ولكن من الذي ينشغل عن النار، وهي تتقد في جسده؟.. ومن الذي لا تحركه الأعاصير، وهي تكاد تجتث من حوله؟.. وكيف لا يلسع بالزنابير من يعيش في قرية الزنابير؟

قال: إن النصوص المقدسة تدلنا على حصون كثيرة يمكن اللجوء إليها لتخفيف حدة البلاء، بل لرفعه، وهي في جمالها وقوتها ومتانتها أعظم من كل لباس يقي من حر النار أو من لسع الزنابير أو من اجتثاث العواصف.

قلت له: فداوني بها.

قال: سأذكر ثلاثة أدوية تجعل القلب منشغلا بالله مجتمعا به

---

1) العلم اليوم يقر بهذا بدرجة ما، ومن أمثلة ذلك الإقرار أن دراسة تجريبية كشفت في مراحلها الأولى أن مرضى القلب الذين يملكون إيمانا دينياً قوياً، لديهم قدرة أكبر على التماثل للشفاء وإكمال الفترة التأهيلية التي تعقب الإصابة.

و يحاول الباحثون في مركز غيسرنغ الطبي وجامعة باكنيل توسيع الدراسة لتحديد علاقة الإيمان الديني ومدى تأثيرها الإيجابي على المدى البعيد على صحة القلب والأوعية الدموية.

و يأمل تيموتي ماكونيل رئيس وحدة إعادة تأهيل مرضى القلب في مركز غيسرنغر، وهو مستشفى مركز ضخم لأمراض القلب يضم 437 مريضاً في تأمين موافقة مائة من مرضى القلب لإجراء دراسة موسعة في إطار زمني مدته خمسة أعوام.و في الدراسة التجريبية استعان ماكونيل ب21 مريضا بينهم من أصيب مؤخراً بأول نوبة قلبية أو أجريت لهم عملية لتوسيع الشرايين.

جالسا معه، ومن جلس مع الله فني عن غيره.

وهي ثلاث مراتب، كل ينال منها بحسب درجته من الدين، ومحله من القرب، وقد تتعاقب عليه اللحظات، فينال حظه منها جميعا: ﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً((الاسراء:20)

قلت: فما الأولى؟

قال: محبة الله، وهي أعلى المراتب، من ينالها يغيب عن بلائه، كما يغيب عن نفسه، وعن الكون جميعا.

قلت: والثانية؟

قال: الرضى عن الله، فرحا بما قدر، وسرورا بما أنزل، وهي نتيجة للمعرفة، وثمرة للمحبة.

قلت: والثالثة؟

قال: السكون لمقادير الله، وعدم الاعتراض عليه.

قلت: فهل لهذه الأدوية قاعات خاصة بها.

قال: أجل.. فلكل منزلته لا يعدوها، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ (الصافات:164)، فكل ما في هذه العوالم لا يجاوز مقامه ولا يحيد عنه، فلذلك لا ترى إلا السلام.

حب الله:

دخلت قاعة تكاد تميد بالأشواق.. وقد علقت عليها لافتة كتب عليها بحروف من نور قوله تعالى:﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (المائدة:54)، فأحسست بقلبي يمتلئ بشوق عظيم ومحبة متدفقة، وكأن أعضائي جميعا قلوبا تخفق.. سمعت صوتا في أرجاء القاعة يقول: (هنا إكسير الهموم، من ذاقه لم تحل بواديه المصائب، ولم تنزل بساحته الأحزان)

قلت للمعلم: ما هذا الإكسير؟ وما هذه القاعة؟

قال: هذا إكسير الانشغال بحب الله والشوق إليه، وهو إكسير يغيبك عن البرودة والحرارة، ويفنيك عن الصحة والسقم.. وهذا إكسير الأولياء، فلذلك استغنوا عن الراقي والطبيب.

سمعت أصواتا تتزاحم على بصيرتي، فقلت للمعلم: ما هذه الأصوات؟

قال: أصخ سمعك، فهي أصوات أطباء هذا الباب.

قال الأول: أوحى الله إلى داود عليه السلام: (ما لأوليائي والهم بالدنيا، إن الهم يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم، يا داود إن محبتي من أوليائي أن يكونوا روحانيين لا يغتمون)

وقال الثاني يترنم بلحن جميل:

وإنْ خَطَرَتْ يَوماً على خاطِرِ ... أقامَتْ بهِ الأفْراحُ، وارتحـلَ

ولو نَظَرَ النَّدمانُ خثْمَ إنائِهـا، ... لأسْـكرهمْ منْ دونهـا ذلـكَ

ولـو نَضَـحوا مِنهـا ثَـرى قَبْـرِ ... لعادَتْ إليهِ الـرُّوحُ، وانْتَعَشَ

ولـو طرحـوا في فيءِ حائـطِ ... عليلاً وقـدْ أشـفى لفارقـهُ

ولـوْ قرَّبـوا منْ حلهـا مقعـداً ... وتنطقُ منْ ذكـري مـذاقتها

ولـــوْ عبقتْ في الشَّـــرقِ ... وفي الغربِ مزكومٌ لعادَ لهُ

ولوْ خضبتْ منْ كأسـها كـفُّ ... لما ضلَّ في ليـلٍ وفي يـدهِ

ولـوْ جليتْ سـرَّاً على أكمـهٍ ... بصيراً ومنْ راو وقها تسمعُ

ولـو أنّ ركْبـاً يَمّمَـوا تُـرْبَ ... وفي الـــرَّكبِ ملســـوعٌ

ولـوْ رسـمَ الـرَّقي حـروفَ ... جـبينِ مصـابٍ جنَّ أبـرأهُ

وفـوقَ لِـواء الجيشِ لـو رُقِمَ ... لأسكرَ منْ تحتَ اللِّـوا ذلـكَ

تُهَـــذّبُ أخلاقَ النّـــدامى ، ... بها لطريقِ العـزمِ منْ لاقَـهُ

ويَكْرُمُ مَنْ لم يَعـرِفِ الجـودَ ... ويَحلُمُ، عِنـدَ الغيـظِ، مَن لا

ولــو نــالَ فَــدْمُ القَــوْمِ لَثْمَ ... لأكسَبَهُ مَعنى شَمائِلِها اللَّثْمُ

قلت: عرفتك.. أنت..

قال: دعك من اسمي، واسمع الحقائق من الله، لا من خلقه.

قال الثالث: إن الحب يحول المر حلواً، والتراب تبراً، والكدر صفاءً، والألم شفاءً، والسجن روضة، والسقم نعمة، والقهر رحمة، وهو الذي يلين الحديد، ويذيب الحجر، ويبعث الميت، وينفخ فيه الحياة..

إن هذا الحب هو الجناح الذي يطير به الإنسان المادي الثقيل في الأجواء، ويصل من السمك إلى السماك، ومن الثرى إلى الثريا.

.. بارك الله لعبيد المادة وعباد الجسم في ملكهم وأموالهم!! لا ننازعهم في شيء. أما نحن فأسارى دولة الحب التي لا تزول

ولا تحول.. !
حياك الله أيها الحب المضني! يـا طـبيب علـتي وسـقمي! يـا دواء تخوفي وكبري! يا طبيبي النطاسي! يا مداوي الآسي!
قلت: عرفتك.. أنت جلال الدين الرومي.
قال: دع عنك هذا.. فلم أعد جلال الدين، ولا جمال الدين؟
قلت: فما صرت؟
قال: أنا عبد الله.. أنا النقطة التي تحت الباء.. وحسبي بـذلك شرفا.
قلت للمعلم: حدثني كيف عاش الأولياء هذه المعاني.
قال: لقد كان بلال وهو في رمضاء مكة يشعر بهـذا الشـعور، حين كان المشـركون يتفـانون معـه بأصـناف البلاء، فيفـنى عنـه بـ (أحد أحد)
وكان لبعضهم علة، فقيل له في ذلك فقال: يا دوست ضـرب الحبـيب لا يوجع.
وكان بعضهم يستشعر هذه المعاني، وهو ينظـر إلى تصـريف الله في جسده، قال: كنت يومـا عنـد خـال لي، وكنـا خـاليين وهـو متزر بمئزر فنظـرت إلى جسـده كأنـه جسـد سـقيم دنـف مضـنى كأجهد ما يكون فقال: (انظر إلى جسدي هذا، لو شـئت أن أقـول إن ما بي من المحبـة للـه تعـالى لكـان كمـا أقـول)، وكـان وجهـه أصفر، ثم أشرب حمرة حتى تورد، ثم اعتل فـدخلت عليـه أعـوده، فقلت له كيف تجدك، فقال:

كيف أشكوا إلى طبيبي ما بي والذي بي أصابني من طبيبي

فأخذت المروحة أروحه فقال لي: (كيـف يجـد روح المروحـة من جوفه يحترق من داخل؟)
وكان عابد المصيصة يستشعر هذه المعـاني حين رأى نفسـه ملكا يلتذ بها، قـال علي بن الحسـن: كـان رجـل بالمصيصـة ذاهب نصفه الأسفل لم يبق منه إلا روحـه في بعض جسـده، ضـرير على سرير مثقوب فدخل عليـه داخـل فقـال لـه: كيـف أصـبحت يـا أبـا محمد؟ قال: (ملك الدنيا، منقطع إلى الله عز وجل، ما لي إليه من حاجة إلا أن يتوفاني على الإسلام)
قال لي المعلم: أتعلم سر استغراق هذه المشـاعر للوجـدان جميعا؟
قلت: ما سر ذلك؟

قـال: الحب هـو أعظم المشـاعر الوجدانيـة الـتي تسـتغرق الكيان، فتمنعه من التفكـير في غـيره، بـل لا شـيء يسـاوي الحب في هذا الدور، فلـذلك كـان أعظم شـاغل عن البلاء هـو اسـتعماله دواء لقهر وساوس الداء.

قلت: لكن قومي يعرفون الحب أكثر مما يعرفون غيره.

قـال: هم يعرفـون الحب المـدنس.. لا المقـدس.. فلـذلك يغرقون في دنسه، وفي مستنقعاته.

قلت: فما الحب المقدس؟

قال: هو حب واحد..

قلت: فما هذا الحب الواحد؟

قال: حب الواحـد.. فحب كـل مـا عـداه داء وألم، ألم تسـمع قول العارف الذي عبر عن اجتماع كل الآمال والأهواء واللذات في حبه لله؟

قلت: تقصد قوله:

كانت لقلبي أهـواءٌ مفرّقة ... فصـار يحسـدني من كنت أحسدهُ

وصـرتُ مَـوْلى الـورى مُـذْ صار مَوْلاهُ ... مـا لامـني فيـك أحبـابي وأهلوهُ

إلّا لغفلتهم عن عظم بلوائي ... تــركتُ للنــاس دنيــاهم شغلاً بحبك يا ديني ودنيائي

أشـعلتَ في كبـدي نـارين بين الضــلوع وأخــرى بين أحشائي

قال: الغارقون في بحر هذا الحب لا يرون غير محبوبهم، وهو لا يغيب عنهم أبدا.. هم يصيحون في كل حين بما قال حاديهم:

تَملّكتمــوا عقلي وطــرفِي ... وَرُوحِي وأحشـــائِي وَكلي

وتيّهتُمونِي فِي بديع جَمـالِكُم ... وَلَم أدر فِي مَجرَ الهَوَى أينَ أيني

وأوصَيتُمونِي لا أبوح بسرِّكُم ... فَبــاحَ بِمــا أُخفِي تفيضُ جفوني

ولَمَّا فَنَى صــبري وقــلَّ وفــارَقَنِي نَـومِي وحُـرِّمَت أجفاني

أَتَيت لِقاضــي الحُبِّ قُلتُ جَفَــونِي وقَــالُوا أنت فِي الحُبِّ أحرى

وعنــدي شــهودٌ للصَــبابةِ يزكُّونَ دعــــوايَ إذا جئتُ بالأيمان

سُــهادي وَوَجــدي واكتئــابِي وشوقي وسقمي واصفراري وأدمعي

ومن عجبٍ أَنِّي أَحنُّ إِلَيهِم واســـألُ شـــوقاً عنهم وهمُ

وتبكيهُم عينِي وهم فِي ويشــكو النَّوى نبِي وهم بين

فَــإِن طَلبــونِي فِي حُقــوقِ فإِنِّي فَقِـيرٌ لا عليَّ ولا معي

وَإِن ســجنونِي فِي ســجونِ دخَلتُ عليهم بالشـــــــفيعِ

لقد قال بعضهم: رأيت جارية حبشية فقلت: من أين؟ قـالت: من عنـد الحـبيب قلت: وإلى أين؟قـالت: إلى الحـبيب قلت: مـا تريدين من الحبيب قالت: الحبيب.

وعندما تعجب بعض أصحاب معروف من كثرة مجاهداتـه في الله سأله: (أخـبرني يـا أبـا محفـوظ أي شـيء هاجـك إلى العبـادة والانقطـاع عن الخلـق؟ فسـكت فقـال: ذكـر المـوت، فقـال: وأي شيء الموت؟ فقال: ذكر القبر والبرزخ، فقال: وأي شـيء القـبر؟ فقال: خوف النار ورجاء الجنة، فقال: وأي شيء هذا؟ إن ملكاً هذا كلـه بـيده إن أحببتـه أنسـاك جميـع ذلـك وإن كـانت بـينك وبـينه معرفة كفاك جميع هذا.

قلت: لقد ذكرتني ـ يا معلم ــ بحـديث امـرأة صـالحة(1) فيهـا نبصر مدى القـوة الـتي يمنحهـا حب اللـه في النفس فتواجـه كـل صعب وتتحدى كل ألم.

قال: تقصد (بدعة).. سنزورها في (بحـار الحب)، فحـدثنا عن بعض شأنها هنا.

قلت: قال المحدث بخبرها(2): ضاقت علي نفسي يوما فقلت في نفسي: أخرج إلى المارستان، وأنظر إلى المجانين فيه، وأعتبر بأحوالهم فخرجت إلى بعض المارستانات، وإذا بامرأة مغلولة يـدها إلى عنقها، وعليها ثياب حسان وروائح عطرة، وهي تنشد:

أعيـــذك أن تغـــل يـــدي بغـــير جريمـــة ســـبقت

تغـــــل يـــــدي إلى عنقي مـــا خـــانت ولا ســـرقت

وبين جـــــوانحي كبـــــد أحس بهـــا قـــد احـــترقت

---

1) أما كامل حديثها فقد ذكرناه في رسالة (بحار الحب)، وقد ذكرنا في بـدايتها أنـه لا يهمنـا في هـذه الحكايـات التحقيـق في سـندها، فليسـت هي بـالعلم الـذي نبـني عليـه عقيدة، أو ننهج من خلاله سلوكا.

أما ما قد يبديه البعض من الاستغراب وتوهم التلفيق فيها، فلا نـراه كـذلك، فلأوليـاء الله وأهله من الشؤون ما لا يمكن التعبير عنه.

2) ننقل الحكاية مع بعض التصرف.

وحقـــك يـــا مـــدى أملي يمينـــا بـــرة صـــدقت

فـــو قطعتهـــا قطعـــا وحقـــك عنـــك لا نطقت

فقلت لصاحب المارستان: (ما هـذه)، فقـال: (مملوكـة خبـل عقلها، فحبست لتصلح)، فلما سمعت كلامه أنشدت:

معشـــر النـــاس مـــا جننت أنـا سـكرانة وقلـبي صـاح

لم غللتم يـدي ولم آت ذنبـا غـــير هتكي في حبـــه

أنـــا مفتونـــة بحب حـــبيب لســـت أبغي عن بابـه من

فصـــلاحي الـــذي زعمتم وفســـادي الـــذي زعمتم

مـــا على من أحب مـــولى وارتضاه لنفسه من جنـاح

قال سري فسمعت كلاما أبكاني فلما رأت دموعي قالت: (يا سري هذه دموعك على الصفة، فكيف لو عرفته حق المعرفة؟)

فقلت: (هذا أعجب.. من أين عرفتني؟)

قالت: (ما جهلت منذ عرفت أن أهل الدرجات يعرف بعضـهم بعضا)

فقلت: (يا جارية أراك تذكرين المحبة فمن تحبين؟)

قالت: (لمن تعـرف إلينـا بآلائـه، وتحبب إلينـا بنعمائـه، وجـاد علينا بجزيل عطائه، فهو قريب إلى القلوب مجيب تسمى بأسمائه الحسنى، وأمرنا أن ندعوه بها فهو حكيم كريم قريب مجيب)

قال معلم السلام: سق هذا الحـديث لقومـك ليسـتعملوا هـذا العلاج في مـداواة الأمـراض النفسـية والعصـبية الـتي تعج بهـا مستشفياتكم.. فذلك خير لكم من تلك السـموم الـتي تسـممونهم بها.

الرضى عن الله:

خرجت من قاعة الحب بإلحاح شديد من المعلم، فقد أنسـت لأنوارها وأصوات أوليائها، وما استشعره كياني من مواجيد وأشواق تنسي كل ألم، وتثمر كل راحة.

قال لي المعلم: ألم أقل لك: لا تسكن لشيء.. ارحـل دائمـا، فلا يتعلم من لا يرحل؟

قلت: أجـل.. ولكـني رأيت نفسـي في ذلـك المحـل، فلم أرد الخروج منه.

قـال: سـتجد نفسـك في كـل محـل.. ولن تعرفهـا إلا بعـد أن تدخل كل المحلات.

قلت: فأين نسير الآن؟

قال: إلى قاعة (الرضـى)، فهـو العلاج الثـاني الـذي تغيب بـه النفس عن نفسها، فتنشغل عن بلائها.

دخلنا قاعة ممتلئة سكينة وجمالا، وقد علقت عليهـا لافتـة من نـور كتب عليهـا قولـه تعـالى: وَرَضُـوا عَنْـهُ (المائـدة:119)، وسـمعنا أصـواتا عذبـة عنـد مـدخل البـاب تقـول: (إذا رأيت قلبـك ممتلئا بالأغيار، واستحال عليك الاجتماع مع الله، والفناء عن ذاتـك، فانظر إلى صـفات كرمـه، ورتـل أسـماء لطفـه وإحسـانه، وتأمـل مـراده من ذلـك البلاء، فإنـك إن لم تبلـغ درجـة أن ترضـى بـه، فلا تنزل عن درجة أن ترضى عنه)

قلت: يا معلم، لقد ذكرني هذا الصوت الجميل بقـول بعضـهم يوماً عند رابعة: اللهم ارض عني، فقالت: أما تسـتحي من اللـه أن تسأله الرضا، وأنت عنه غير راض؟ فقال: أستغفر الله، فقيـل لهـا: فمتى يكون العبد راضياً عن الله تعـالى؟ قـالت: (إذا كـان سـروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة)

قال المعلم: لقد أشارت إلى أن للمصيبة سرورا عند العارف كما أن للنعمة سرورا، لأن ما يلحظه العارف في ثنايا المصيبة يبدد الظلمات التي ينفخها الحزن واليأس.

قلت: وهل للرضى من لذة؟

قـال: هي لـذة لا تقـل عن لـذة الحب، بـل إنـه لا يمكن أن يرضـى من لا يحب، كمـا لا يحب من لا يرضـى، ألم تعلم بـأن الرضوان أعلى الدرجات؟

قلت: لقد بين الله تعالى أن هذا هو مقام الصادقين مع ربهم، لا يزال رضاهم باللـه ورضـاهم عنـه رائـد علاقتهم بـربهم إلى يـوم يلقونه، قال تعالى: قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّـادِقِينَ صِـدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِـدِينَ فِيهَـا أَبَـداً مْ وَرَضُـوا عَنْـهُ ذَلِـكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (المائدة:119)

قال: بل نجد في القرآن الكريم أن كـل الآيـات الـتي تتحـدث عن الرضوان المتبادل بين الله تعـالى وعبـاده الصـالحين مرتبطـة بالجنة، وكأنها تشير إلى أن الرضـوان جنـة أخـرى من جنـان اللـه، وهي جنة لا تختص بالآخرة، بل تعجل للمؤمنين في الدنيا.

قلت: لقد ذكر الفخر الرازي ــ تعليقـا على ارتبـاط الرضـوان

بالجنة في قوله تعالى: ﴿، جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَـداً مْ وَرَضُـوا عَنْـهُ ذَلِـكَ لِمَنْ خَشِـيَ رَبَّهُ﴾ (البينة:8) فقال: (ثبت عند أرباب الألباب أن جملة الجنـة بمـا فيهـا بالنسبة إلى رضوان الله كالعدم بالنسبة إلى الوجود، وكيف والجنة مرغوب الشهوة، والرضوان صفة الحق وأي مناسبة بينهما)(1)

قـال: ويـدل على هـذا قولـه تعـالى وهـو يخـاطب النفس المطمئنة التي لا تقبض انتزاعا ـ كما تقبض أرواح المتمـردين على الله ـ وإنما تقبض بأمرها، بـالرجوع إلى بارئهـا فتطـير شـوقا إليـه، قـال تعـالى: ﴿، يَـا أَيَّتُهَـا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِـيَةً مَرْضِيَّةً﴾ (الفجر:27،28)

وقوله ـ وهو يخبر عن حزبـه الـذي اعتـبر رضـوانه فـوق كـل رضوان ـ: ﴿، لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُـوَادُّونَ مَنْ حَـادَّ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ وَلَـوْ كَـانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَـاءَهُمْ أَوْ إِخْـوَانَهُمْ أَوْ عَشِـيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُـوبِهِمُ الْإِيمَـانَ وَأَيَّدَهُمْ بِـرُوحٍ مِنْـهُ وَيُـدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا مْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة:22)

فالرضى عن الله شامل لكل ما جاء عن الله تشريعا كـان أم قضاء، فلا فرق بينهما، فكلاهما مقتضى أسـمائه الحسـنى وصـفاته العليا.

وقد قال تعـالى عن الأول:﴿ وَمَـا كَـانَ لِمُـؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَـةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَـرَةُ مِنْ أَمْـرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾ (الأحزاب: 36)

وقال عن الثاني: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام:164)، وقـال في أول السـورة: ﴿قُـلْ أَغَيْـرَ اللَّهِ أَتَّخِـذُ وَلِيّـاً فَـاطِرِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُـوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُـلْ إِنِّي أُمِـرْتُ أَنْ أَكُـونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْـلَمَ وَلا تَكُـونَنَّ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ﴾ (الأنعـام:14) أي

---

1) التفسير الكبير، والفخر الرازي يخالف ـ بهذا ـ الأسلوب الجاف الذي يتعامـل بـه المتكلمون عادة مـع مثـل هـذه الأمـور، وقـد عقب على قولـه هـذا بقولـه:(وهـذا الكلام يشمئز منه طبع المتكلم الظاهري، ولكن كل ميسر لما خلق له)، وقال في موضـع آخـر: (وأما قوله تعالى:﴿ مْ وَرَضُوا عَنْـهُ ذَلِـكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (المائـدة:119) فهـو إشـارة إلى التعظيم. هذا ظاهر قول المتكلمين، وأما عند أصحاب الأرواح المشرقة بـأنوار جلال اللـه تعالى، فتحت قوله:﴿ مْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ أسرار عجيبة لا تسمح الأقلام بمثلها جعلنـا اللـه من أهلها)

وقد بين الغزالي علة إنكار بعض المتكلمين للرضى بقولـه:(اعلم أنّ من قـال: ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر فأما الرضا فلا يتصوّر؟ فإنما أتي من ناحية إنكار المحبة، فأما إذا ثبت تصوّر الحب لله تعالى واستغراق الهم به فلا يخفى أنّ الحب يـورث الرضا بأفعال الحبـيب)، الإحياء: 4/347.

معبودا وناصرا ومعينا وملجأ وهو من المـوالاة الـتي تتضـمن الحب والطاعة.

قلت: لقد ورد في السنة ما يدل على هذه اللذة الـتي يجـدها الراضي، فقـد قـال ﷺ: (إن اللّـه بحكمتـه وجلالـه جعـل الـروح[1] والفــرح في الرضــا واليقين وجعــل الهم والحــزن في الشــك والسخط)[2]

فأول جزاء للراضي عن الله أن يرضى الله عنه ويرضيه، فإذا أرضاه رزقه من السعادة والسرور ما يهون أمامه كل ألم.. والرضا عن الله علاج يرسم الابتسامة بدل الأنين، فينشغل الراضي بفضل الله وأوصاف الله عما ألم به.

قال: وقد ورد في الأثر الإلهي: (أنـا اللـه لا إلـه إلا أنـا قـدرت المقادير ودبرت التـدابير وأحكمت الصـنع فمن رضـي فلـه الرضـا مني حتى يلقانى، ومن سخط فله السخط حتى يلقاني)

قلت: فكيف كان حال الصالحين مع الرضا؟

قال: كل الصـالحين متفقـون على أن الرضـا عن اللـه نعمـة، ولكنــه لا يجـدها إلا من ذاقهـا، فلـذلك ينقلـون للخلـق من بـاب التشويق أذواقهم في ذلك، وقـد ورد في الأثـر في أخبـار موسـى ﷺ أن ن بني إسرائيل قالوا له: سل لنا ربك أمـراً إذا نحن فعلنـاه يرضى به عنـا، فقـال موسـى ﷺ: (إلهي قـد سـمعت مـا قـالوا)، فقال: (يا موسى قل لهم يرضون عني حتى أرضى عنهم)

ويروى عن بعض العباد أنه قال: إني أذنبت ذنبـاً عظيمـاً، فأنـا أبكي عليه منذ ستين سنة ـ وكان قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من الذنب ـ فقيل له: وما هو؟ قال: (قلت مـرة لشـيء كـان، ليتـه لم يكن)

وقال ابن مسـعود: (الفقـر والغـنى مطيتـان مـا أبـالي أيهمـا ركبت إن كان الفقر فإن فيه الصبر وإن كان الغنى فإن فيه البذل)

قلت: فكيف ذاق العارفون من هذه المشارب الطاهرة؟

قال: لا يهم العارف كـل مـا يصـيبه مـا دام لـه فيـه حـظ من العبودية، كما قال ﷺ: (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سـراء شـكر وكـان خـير لـه، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)[3]

وفي قوله ﷺ: (وليس ذلـك لأحـد إلا للمـؤمن) دليـل على أن

1) بفتح الراء أي الراحة وطيب النفس.
2) رواه أبو نعيم في الحلية، والبيهقي.
3) أحمد ومسلم عن صهيب.

الخيرية والتي تعني الرضا والسرور لا ينالهـا إلا من تحقـق بحقيقـة الإيمان.

ولهذا، فإن الصالحين لا يهمهم شيء مما قد يصيب وجــودهم في الدنيا بقدر ما تهمهم علاقتهم بربهم، وقد حدث بعضهم، فقـال: سمعت عابدا من أهل البحرين يقول في جـوف الليـل، ونحن على بعض السواحل: (قرة عيني، وسرور قلبي، ما الـذي أسـقطني من عينك يا مانح العصم قال: ثم صرخ وبكى ثم نـادى: طـوبى لقلـوب ملأتها خشيتك واستولت عليها محبتك فمحبتـك مانعـة لهـا من كـل لذة غير مناجاتك، والاجتهاد في خدمتك، وخشـيتك قاطعـة لهـا عن كل معصية خوفا لحلول سخطك)، ثم بكى، وقال: (يا إخوتاه ابكـوا على خوف فوت الآخرة حيث لا رجعة ولا حيلة)

فهمة الصالحين منصرفة للبحث عن رضـوان اللـه، والخـوف من سخطه، ولا يهمها بعد ذلك ما يحل بهـا، فهي تبحث عن رضـى الله عنها لا عن رضاها هي على الله.

قلت: يا معلم.. فكيف أتحقق بهـذا الرضـى الـذي يمسـح عن قلبي كل الآلام؟.. وكيف ألتحق بركب الأوليـاء الشـاربين من هـذه العين؟

قــال: بترتيــل أســماء لطفــه، والنظــر في جميــل صــنعه، والاستغراق في سابق إحسانه، والأمل في جميل أفضاله.

قلت: كيف أستعمل هذا العلاج؟

قال: أرأيت لو أحسنت إلى أحدهم دهرك جميعـا بمعشـار مـا أحسن الله إليك، بل بمعشار المعشار، أترضى أن يسخط عليك.

قلت: كلا.. فهذا فعل الجحود.

قال: فكيف لا ترضى على من لا خير إلا منه، ولا فضل إلا في يديه الكريمتين؟

قلت: لقد ذكرتني بقول بعض الصـالحين: إنَّ اللـه تعـالى من كرمه قد رضي من عبـيده بما رضي العبـيد من مواليهم فقيل لـه: وكيـف ذاك؟ قـال: أليس مـراد العبـد من الخلـق أن يرضـى عنـه مولاه؟ قيل: نعم، قال: فإن محبة الله من عبـيده أن يرضوا عنه.

قال: أجل.. فالرضى عن الله هو ما يوجبه حسـن الخلـق مـع الله، ولو تأمل المعـترض على ربـه حقيقتـه لوجـدها أهـون من أن تعارض الحق، فكيف يجسر على ذلك، وهو لا يعدو أن يكون حفنــة تراب.

قلت: لقـد قـال بعضـهم في هـذا: (لن يصـيب العبـد حقيقـة

الرضا حتى يكون رضاه عند الفقر كرضاه عند الغنى، كيف تستقضي الله في أمرك ثم تسخط إن رأيت قضاءه مخالفا لهواك، ولعل ما هويت من ذلك لو وفق لك فيه هلكك، وترضى قضاءه إذا وافق هواك؟ ما أنصفت من نفسك ولا أصبت باب الرضا)

قال: بل، لقد اتفقت كلمة الصالحين على هذا المعنى، فهذا أحدهم يقول: (الإنسان خزف، وليس للخزف من الخطر ما يعارض فيه حكم الحق تعالى)

وعبروا عن أحوالهم في ذلك، فقال عبد الله بن مسعود: (لأن ألحس جمرة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت أحب إليَّ من أن أقول لشيء كان ليته لم يكن أو لشيء لم يكن ليته كان)

وقال بعض الصالحين: (لو قرض جسمي بالمقاريض لكان أحب إلي من أن أقول لشيء قضاه الله تعالى سبحانه ليته لم يقضه)

وحدث آخر، فقال: قال رجل: لأمتحنن أهل البلاء. قال: فدخلت على رجل بطرسوس وقد أكلت الآكلة أطرافه. فقلت له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت والله وكل عرق وكل عضو يألم على حدته من الوجع، وإن ذلك لبعين الله أحبه إلي أحبه إلى الله، وما قدر ما أخذ ربي مني؟ وددت أن ربي قطع مني الأعضاء التي اكتسبت بها الإثم، وأنه لم يبق مني إلا لساني يكون له ذاكرا. قال: فقال له رجل: متى بدأت بك هذه العلة؟ فقال: الخلق كلهم عبيد الله وعياله، فإذا نزلت بالعباد علة فالشكوى إلى الله ليس يشتكى إلى العبيد.

قلت: هذا سبيل صالح.. فما السبيل الثاني؟

قال: إذا اشتقت أن تلبس لباس الرضى، وتسكن مع الراضين في جنة الأمن والفرح والسرور، فردد مع النبي ﷺ هذا الدعاء الذي يسأل الله فيه أن يرزقه بالرضى بالقضاء فلا ينال ما عند الله إلا من يد الله، قال ﷺ: (اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني إذا كانت الحياة خيرا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيما لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضى بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم، وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء

مضـرة ولا فتنـة مضـلة، اللهم زينـا بزينـة الإيمـان واجعلنـا هـداة مهتدين)[1]

وردد معه: (اللهم إني أسألك الصحة والعفة والأمانـة وحسـن الخلق والرضى بالقدر)[2]

فإن صدقت في دعائك، وألححت فيه كمـا يلح الغريـق طالبـا النجدة، فسسيرزقك الله فهم حقيقة الرضا، والشرب من شرابه.

قلت: فكيف يرزقني؟

قال: أول رزق يسوقه إليه هو تعريفك به، فإذا عرفته عـرفت حقيقــة العلم، قــال بعض الصــالحين: (الرضــى هــو صــحة العلم الواصـــل إلى القلب، فـــإذا باشـــر القلب حقيقـــة العلم أداه إلى الرضى)، فقد اعتبر الرضـى علامـة على وصـول العلم للقلب، لأن العلم المحجوز في زوايا العقل أضعف من أن يحقق لصـاحبه هـذا المقام الرفيع.

قلت: ولكنا نعرف حقيقة العلم من دون هذا؟

قال: لا.. حقيقة العلم أن تشربه لا أن تسـمعه، وأن تعيشـه لا أن تكتبه.. فالعلم الذي لم يوصل صاحبه إلى الحقيقة كالدواء الذي لم يستعمل، فإن صاحبه يظل مريضا، ولو ظل يردده أبد الدهر.

وقد شـبه الغـزالي من لم يعش علمـه برجـل في بريـة، ولـه عشرة أسياف هندية مع أسلحة أخرى، وكان الرجل شجاعا وأهـل حـرب، فحمـل عليـه أسـد عظيم مهيب، (فمـا ظنّـك؟ هـل تـدفع الأسلحة شره عنه بلا استعمالها وضربها!؟)

وقياسـا على هـذا (لـو قـرأ رجـل مائـة ألـف مسـألة علميـة وتعلمها، ولم يعمل بها: لا تفيده إلا بالعمل)[3]

قلت: فما طريق وصول القلب لهذه المعاني؟

قال: بالمجاهدة، والمصابرة، وقـد قيـل لبعضـهم: (مـتى يبلـغ العبد إلى مقام الرضى)، فقال: (إذا أقام نفسه على أربعـة أصـول فيما يعامل به ربه، فيقول: إن أعطيتني قبلت، وإن منعتني رضيت، وإن تركتني عبدت، وإن دعوتني أجبت)

السكون لمقادير الله:

خرجت مع المعلم إلى القاعة الثالثة من قاعات الغيبـة باللـه، وهي قاعة (السكون لمقادير الله)، وقـد علـق على بابهـا لـوح من نور كتب عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَـا كَـانَ لِمُـؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَـةٍ إِذَا قَضَـى

1) الترمذي والحاكم، والنسائي.
2) البيهقي.
3) رسالة (أيها الولد) لأبي حامد الغزالي.

اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ (الأحزاب:36)

سمعت في مدخلها أصواتا حانية قوية تقول: (إن لم تستطع أن تبلغ تلك الدرجات الرفيعة التي نزلها الأولياء، فنالوا بها الفرح والرضوان، فلا تنزل إلى دركات المعرضين المعارضين لله، فتخسر خسارتين عظيمتين:تخسر ربك الذي لا يرضى أن يعارض في ملكه أو يعقب عليه في تدبيره.. وتخسر صحتك وراحتك التي لن يعوضها اعتراضك)

قلت: يا معلم.. ماذا تقول هذه الأصوات؟.. وما هذه القاعة؟.. وما الفرق بينها وبين القاعة السابقة؟.. فإني لا أرى الرضى إلا سكونا لمقادير الله.

قال: هذه القاعة تجيب الشبهة التي ينفخها الشيطان في نفسك، وفي كل النفوس الضعيفة، ليقول لها: (كيف ترضي عنه، وهو يسومك بأنواع البلاء، أليس هو الطبيب الشافي؟)

قلت: فهي ترد إذن على أحزاب المعارضة لله.

قال: وهي أحزاب كثيرة، كل حزب يرفع راية من الرايات يدعو فيها إلى عزل الله عن التصريف في الكون.

قلت: وأين هي؟

قال: في نفسك.. وفي كل النفوس التي لم تذق لذة الرضا عن الله.

قلت: فكيف أقمع هذه الأحزاب المعارضة لله.. وليس لدي شرطة ولا جيش؟

قال: السلام لا يعرف الشرطة والجيش.

قلت: فكيف أقضي على هذه الأحزاب المعارضة لله؟

قال: بالمعرفة.. ألم يكن أول ما نزل على رسول الله ﷺ الأمر بالقراءة؟

قلت: فماذا أقرأ؟ وكيف أقرأ؟

قال: اقرأ المعارف التي تجعلك ساكنا لمقادير الله، لا معارضا لها.

قلت: فأين أجد هذه المعارف؟

قال: ستسمع من أطباء هذه القصر بسمع بصيرتك ما يضع في نفسك بذور ذلك، وليس عليك بعدها إلا أن تسقيها وتتعاهدها إلى أن تنبت شجرة الرضا في نفسك.

سمعت أصواتا كثيرة تزدحم على أذن بصيرتي، وهي من كثرتها شوشت علي، فلم أدر ما أسمع.

قال لي المعلم: هل تسمع ببصيرتك.
قلت: أسمع.. ولكني لا أسمع.
قال: لم؟
قلت: الأصوات تزدحم على بصيرتي، فلا تكاد تفهم ما تقول.
قال: اسكن.. ألست في قاعة السكون لمقادير الله.. فمن لم يسكن لم يسمع.. أو سمع ولم يفهم.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (القيامة:16)؟
قلت: بلى.
قال: فقد أمره بالسكون ليحصل له العلم.
استرخيت.. وسكنت سكونا هادئا أشبه بالنوم، فسمعت أصواتا مختلفة(1)، منها الحانية، ومنها الشديدة تتردد في جوانب القاعة تمتلئ بها بصيرتي.
قال الأول: ما أصابك لم يكن ليخطِئَك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك.
قلت: بلى.. هذا صحيح، فقد قال تعالى:﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد:22)
ويعقب على ذلك بأثر هذه المعرفة في النفس الإنسانية بقوله تعالى:﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (الحديد:23)
ويقول تعالى في آية أخرى:﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التغابن:11)
فالعوض الإلهي في هذه الآية عن النقص الذي جلبته المصيبة هو الهداية المرتبطة بقلب الإنسان، وهي الهداية الحقيقية التي تجر إلى المعرفة التي لا يشوبها الجهل، وإلى العلم الذي لا يختلط مع الأهواء.
ويعلمنا في آية أخرى ما ينبغي أن نقوله، ثم النتيجة التي جعلها الله لمن يفعل ذلك، فقال تعالى:﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة:156)
والفضل الإلهي النازل على هؤلاء هو ما عبر عنه تعالى بقوله:﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة:157)

---

1) اقتبسنا أكثر هذه المعاني من الكتب المرتبطة بهذا الجانب، مثل حكم ابن عطاء الله والإحياء وكليات رسائل النور، وغيرها من المراجع، وقد لخصناها بهذا الأسلوب لتسهل الاستفادة منها.

قال المعلم: فإذا استقر في النفس الإيمان بقضاء الله وقدره، وأن الذي أصابه لا بد أن يصيبه، وأنه أمر لا مفر منه، ولا مهرب منه لأن الله قد كتبه في الأزل؛ فإن نفسه تهدأ، وقلبه يسكن، ويكون هذا بداية ومقدمة للسكون لمقادير الله.

قال صوت آخر: لا تعترض.. فأنت تجمع الجهل بأشكاله وألوانه.. تجهل نفسك ومصيرك، وعواقب أمورك، أما سيدك الذي يدبر أمرك، فعلام الغيب: ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (الأنعام:59)

وقال آخر: لا تعترض.. فإن ما تراه مما تكرهه رحمة من رحمات الله، ولطف من خفي ألطافه ساقه إليك في ثوب ما تكره ليمتحن عبوديتك، ويملأ قلبك بحسن الظن به:

رب أمر تتقيه جر أمرا ترتضيه
خفي المحبوب منه وبدا المكروه فيه

قلت: هذا صحيح، وقد قال تعالى: ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:216)، وقال: ﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾ (النساء: 19)

وقال آخر: لا تعترض.. فإن كل مقادير الله خير لك إن استقبلتها ببصيرة الإيمان.

قلت: هذا صحيح، فقد قال ﷺ: (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر وكان خير له إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)(1)

وقال آخر: لا تعترض.. وكن كذلك العبد الصالح الذي لم تغره مباهج جنة صاحبه، وقال في ثقة المؤمن: ﴿ عَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً ﴾ (الكهف:40)

وقال آخر: لا تعترض.. فإن من ظن انفكاك لطفه عن قدره، فذلك لقصور نظره، فإن العارفين يشهدون المنن في المحن، والعطايا في البلايا.

وقال آخر: لا تعترض.. فإن من تمام عبوديتك أن تجري عليك مقادير الله بأنواعها، وتهب عليك رياح البلاء لتمتحن عبوديتك.

---

1) مسلم.

وقــال آخــر: كيــف تعــترض، وأنت لن تــرقى في مقامــات العبودية إلا بهذا الذي تعترض عليه؟

وقال آخر: كيف تعترض، وأنت لن تكون صابرا، ولا متوكلا ولا راضـيا ولا متضـرعا ولا مفتقـرا ولا ذليلا ولا خاضـعا إلا باسـتقبالك لمقادير الله ببصيرة الإيمان؟

وقال آخر: كيف تعترض، وأنت تعلم أن رضاك عن ربـك زرع لرضى ربك عنه، بل رضاك عن ربك علامـة على رضـا ربـك عنـك، فلو لم يرض عنك لم ترض عنه.

وقال آخر: لا تعترض.. فإن جميع ما يحدث في الكون أثر من آثار أسماء الله وصفاته، وفيض من فيوضات مشيئة الله وحكمتـه، فإن لم ترض بمقادير الله خاصمت أسماء الله وصفاته، وخاصـمت الله بمخاصمتها؟

وقال آخر: لا تعترض.. فإن حكمه تعالى فيك ماض، وقضــاؤه فيك عـدل، كمـا أخـبرك الناصـح الأمين ﷺ في قولـه: (مـاض في حكمك عدل في قضاؤك)(1)

وقــال آخــر: كيـف لـك أن تعـترض، وأنت تعلم أنـه لا تبـديل لكلماته ولا راد لحكمه، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

وقال آخر: كيـف لـك أن تعـترض، وقـد علمت كمـال حكمتـه ورحمته ولطفه وحسن اختياره.

وقال آخر: لا تعترض.. وسلم لربك، فقد فوضت أمـرك إليـه، ومن ضرورات التفويض الرضى التام باختيارات المفوض.

وقال آخـر: كيـف لـك أن تعـترض، وأنت عبـد محض، والعبـد المحض لا يسـخط جريـان أحكـام سـيده المشـفق البـار الناصـح المحسن، بل يتلقاها بالرضى به وعنه.

وقال آخر: كيف لك أن تعترض، وأنت تدعي محبتـه، والمحب الصادق من رضي بما يعامله به حبيبه.

وقال آخر: لا تعترض.. فإنك باعتراضك تعبد الله على حــرف، فتتلون كما تتلون رياح المقادير، والعبد الكامـل ثـابت على عبوديـة سيده، لا تزعزعه الرياح، ولا تجتثه عن غايته الأعاصير؟

وقال آخر: لا تعترض.. فـإن أول معصـية عصـي اللـه بهـا في هذا العالم حصـاد نبـات الاعـتراض، فـإبليس لم يـرض بحكم اللـه الذي حكم به كونا من تفضيل آدم وتكريمه، ولا بحكمه الــديني من أمره بالسجود لآدم.

---

1) أحمد والطبراني والحاكم.

وقال آخـر: لا تعـترض.. فـإن اعتراضـك عن اختيـار اللـه لـك ناشئ من جهلك بالله، وأنه كلما قـويت معرفتـك صـرت كالريشـة في مهب الرياح، تقلبها الرياح كما شاءت، فلا تعترض ولا تختار.

وقال آخـر: لا تعـترض.. فـإن من عـرف أن البلايـا من مـولاه وسيده(1) الذي هو أرحم به من والدته ووالده، كيف يبقى له بالألم إحساس؟ أم كيف لا يتلذذ به كما يتلذذ بالنعمة سائر الناس؟

قلت: لقد ذكرني هذا بقول الشاعر الصالح:

---

1) ربما ترد شبهة هنا، وهي انه قد يظن أن للشيطان سلطة على عبـاد اللـه، وأن له القدرة على إذيتهم وربما يستدل لهذا بقوله تعالى على لسان أيـوب ﴿:ﷺ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَـذَابٍ﴾ (صّ:41)، وبمـا روي أن إبليس سأل ربه، فقال هل في عبيدك من لو سلطتني عليه يمتنع مني؟ فقـال اللـه: نعم عبـدي أيوب، فجعل يأتيه بوساوسه وهو يرى إبليس عيانا ولا يلتفت إليه، فقـال: يـا رب إنـه قـد امتنع علي فسلطني على ماله، وكان يجيئه ويقول له: هلك من مالـك كـذا وكـذا، فيقـول الله أعطى والله أخذ، ثم يحمد الله، فقال: يا رب إني أيوب لا يبالي بماله فسلطني على ولده، فجاء وزلزل الدار فهلك أولاده بالكلية، فجاءه وأخبره به فلم يلتفت إليـه، فقـال يـا رب لا يبالي بماله وولده فسلطني على جسده، فأذن فيه، فنفخ في جلد أيـوب، وحـدثت أسقام عظيمة وآلام شديدة فيه، فمكث في ذلك البلاء سنين، حتى صـار بحيث اسـتقذره أهل بلده، فخرج إلى الصحراء وما كان يقرب منه أحد، فجاء الشيطان إلى امرأته، وقـال لو أن زوجك استعان بي لخلصته من هذا البلاء، فذكرت المرأة ذلك لزوجها، فحلف باللـه لئن عافاه الله ليجلدنها مائة جلدة، وعند هذه الواقعة قال:﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْـبٍ وَعَذَابٍ ﴾

وهذا خطأ عظيم، فالشيطان لا قدرة له على إيقاع الناس في الأمـراض والآلام، بـل هو أضعف من ذلك، والله أرحم بعباده من أن يسلمهم للشـيطان، وقـد قـال تعـالى في بيـان قـدرات الشـيطان وعلى لسـانه:﴿ وَمَـا كَـانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُـلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَـوْتُكُمْ فَاسْـتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُـونِي وَلُومُـوا أَنْفُسَـكُمْ مَـا أَنَـا بِمُصْـرِخِكُمْ وَمَـا أَنْتُمْ بِمُصْـرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ (ابراهيم:22)، ومما اسـتدل بـه الفخـر الـرازي على رد تلك الشبهة:

1. أنا لو جوزنا حصول الموت والحياة والصحة والمرض من الشيطان، فلعل الواحد منا إنما وجد الحياة بفعل الشيطان، ولعل كل ما حصل عنـدنا من الخـيرات والسـعادات، فقد حصل بفعل الشـيطان، وحينئـذ لا يكـون لنـا سـبيل إلى أن نعـرف أن معطي الحيـاة والموت والصحة والسقم هو الله تعالى.

2. أن الشيطان لو قـدر على ذلـك فلم لا يسـعى في قتـل الأنبيـاء والأوليـاء، ولم لا يخرب دورهم، ولم لا يقتل أولادكم.

وقد أجاب على الاعتراض القائل بأنه (لم لا يجوز أن يقال إن الفاعل لهـذه الأحـوال هو الله تعالى، لكن على وفق التماس الشيطان؟) بقوله:(إذا كان لا بد من الاعـتراف بـأن خالق تلك الآلام والأسقام هـو اللـه تعـالى، فـأي فائـدة في جعـل الشـيطان واسـطة في ذلك؟)

أما المراد من الإخبار بمس الشيطان، فإن القـول الصـحيح في ذلـك هـو أن المـراد منه هو إلقاء الوساوس الفاسـدة والخـواطر الباطنـة، وكـل ذلـك كـان يضـعه في أنـواع العذاب والعناء، وقد اختلف القـائلون بهـذا في تلـك الوسـاوس كيـف كـانت وذكـروا فيـه وجوها، منها:

1. أن علته كانت شديدة الألم، ثم طـالت مـدة تلـك العلـة، والشـيطان كـان يـذكره النعم التي كانت والآفات التي حصلت، وكان يحتال في دفع تلك الوسـاوس، فلمـا قـويت تلك الوساوس في قلبه خاف وتضـرع إلى اللـه، وقـال: ﴿ أنى مسـنى الشيطـان بنصـب

وخفف عني ما ألاقي من العنا بأنك أنت المبتلي والمقدر

وما لامرئ عما قضى الله معدل وليس له منه الذي يتخير

وبقول ابن عطاء الله: (ليخفف ألم البلاء عنك علمك بأنه سبحانه هو المبلي لك، فالذي واجهتك منه الأقدار، هو الذي عودك حسن الاختيار)

وقال آخر: كيف تعترض، والله يراك ويسمعك، وهو ما أنزل عليك البلاء إلا ليختبر موقفك، فهل ترضى أن تسقط في الاختبار؟

وقال آخر، وهو بديع الزمان: لا تعترض.. فإن السكون والهدوء والرتابة والعطالة نوع من العدم والضرر، وبعكسه الحركة والتبدل وجودٌ وخير، فالحياة تتكامل بالحركة، وتترقى بالبلايا، وتنال حركات مختلفة بتجليات الاسماء، وتتصفى وتتقوى وتنمو وتتسع، حتى تكون قلماً متحركاً لكتابة مقدراتها، وتفى بوظائفها، وتستحق الأجر الأخروي(1).

وقال آخر، وهو كذلك بديع الزمان، ولكن بصوت مختلف: لا تعترض.. واعلم انه ليس لك حق في الشكوى، بل عليك الشكر، عليك الصبر؛ لأن وجودك واعضاءك وأجهزتك ليست بملكك أنت، فانت لم تصنعها بنفسك، وانت لم تبتعها من اية شركة او مصنع ابتياعاً، فهي ملكٌ لآخر. ومالك تلك الاشياء يتصرف في ملكه كيف يشاء.

قلت: عهدي بك ـ سيدي ـ تمثل لما تقول، فاضرب لي على ذلك مثالا.

قال: هب أن صانعاً ثرياً ماهراً بكلّف رجلاً فقيراً لقاء أجرة معينة ليقوم له لمدة ساعة بدور النموذج، لإظهار صنعته الجميلة وثروته القيمة، فيكلفه بلبس القميص المزركش الذي حاكه، والحلة القشيبة المرصعة التي نسجها، ويطلب منه أن يظهر أوضاعاً وأشكالاً شتى لبيان خوارق صنعته وبدائع مهارته، فيقصّ

وعذاب ﴾ لأنه كلما كانت تلك الخواطر أكثر كان ألم قلبه منها أشد.

2. أنها لما طالت مدة المرض جاءه الشيطان وكان يقنطه من ربه ويزين له أن يجزع فخاف من تأكد خاطر القنوط في قلبه فتضرع إلى الله تعالى وقال: ﴿ أنى مسنى الشيطان ﴾

3. أن الشيطان لما قال لامرأته لو أطاعني زوجك أزلت عنه هذه الآفات فذكرت المرأة له ذلك، فغلب على ظنه أن الشيطان طمع في دينه فشق ذلك عليه فتضرع إلى الله تعالى وقال ذلك.

وكل هذا يمكن قبوله، ووراء هذا أقوال أخرى يجب تنزيه الأنبياء عنها، ولا تصح روايتها.

1) المكتوب الثاني عشر: 54.

ويبدل، ويطوّل، ويقصر، وهكذا..

فهل يحق لذلك الفقير الاجير ان يقول لذلك الصانع الماهر: (إنك تتعبني وترهقني وتضيّق عليّ بطلبك مني الانحناء مرة والاعتدال أخرى.. وانك تشوّه الجمال المتألق على هذا القميص الذي يجمّل هندامي ويزيّن قامتي بقصّك وتقصيرك له.. إنك تظلمني ولا تنصفني؟)

قلت: فأنزل هذا المثل على ما نحن فيه.

قال: هكذا الأمر بالنسبة للصانع الجليل سبحانه وتعالى - ولله المثل الاعلى - الذي البسك أيها المريض قميص الجسد، وأودع فيه الحواس النورانية المرصعة كالعين والأذن والعقل، فلأجل اظهار نقوش اسمائه الحسنى، يبدّلك ضمن حالات متنوعة ويضعك في اوضاع مختلفة. فكما انك تتعرف على اسمه (الرزاق) بتجرعك مرارة الجوع، تتعرف على اسمه (الشافي) بمرضك(1).

سمعت صوتا آخر يقول: لم يختر الله لك إلا ما يصلح.. فلا تطلب ما لا يصلح لك.

قلت: لقد ذكرني هذا بقوله ﷺ في الأثر الإلهي: (إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه)(2)

قال المعلم، وقد رأى استرواحي لسكوني: قم لنسر إلى قاعة أخرى من هذا المستشفى.

قلت: دعني ـ يا معلم ــ لأسمع لجميع هذه الأصوات، فقد ملأت نفسي سكينة.

قال: لو ظللت تسمعها دهرك جميعا ما خرجت، فكل الكون، وكل حقائق الوجود تدعوك إلى السكون إلى الله.. فارحل.. فلا ينبغي أن تسكن لغير الله.

الغيبة بنعم الله

دخلنا القسم الثاني من أقسام الغيبة، وهو قسم (الغيبة بنعم الله)، وقد كتب على بابه قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ (النحل:18) ورأيت داخل القاعة جوائز شتى، كل جائزة تشير إلى فضل من فضل الله ونعمة من نعمه.

قلت للمعلم: ما هذه الجوائز؟

---

1) الكلمات: الكلمة السادسة والعشرون: 554.

2) الخطيب في التاريخ وغيره.

قال: هذه جوائز الفضل الإلهي المخزنة في خزائن البلاء.

قلت: ألهذه الجوائز كانت تنظر تلك المرأة الصالحة، حين عثرت، وانقطع ظفرها، فضحكت، فقيل لها: أما تجدين الوجع؟ فقالت: إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه.

قال: تلك جائزة من هذه الجوائز.

قلت: فكم هذه الجوائز؟

قال: هي كثيرة.. ولكن أي مريض يمر على هذا المستشفى ينال عشر جوائز، كل جائزة منها بالدنيا وما فيها.

قلت: ألهذا أمر الله تعالى بتبشير الصابرين، فقال تعالى: ﴿ وَلَنَبلُوَنكُم بِشَيء منَ الخَوف وَالجُوعِ وَنَقصٍ منَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثمَرَاتِ وَبَشرِ الصابِرِينَ الذِينَ إِذَا أَصَابَتهُم مصِيبَةٌ قَالُوا إِنا لِلهِ وَإِنا إِلَيهِ راجِعونَ أُولَئِكَ عَلَيهِم صَلَواتٌ من ربهِم وَرَحمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ المُهتَدُونَ ﴾ (البقرة:155-157)

قال: أجل.. فالبشارة لا تكون إلا على نعمة وفضل.

قلت: ألهذا ذكر الله تعالى كثرة الخير المخزن في طيات ما نكره، فقال تعالى:﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ (النساء: 19)؟

قال: أجل، وقد قال بعضهم تعليقا على الآية: (لا تكرهوا الملمات الواقعة، فلرب أمر تكرهه فيه نجاتك، ولرب أم تحبه فيه عطبك)

قلت: ألهذا بشر ﷺ المبتلين بأنهم سيكونون موضع غبطة الخلق يوم القيامة عندما يعاينون ما أعد الله لهم من جزاء، فقال: (يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض)(1)؟

قال: أجل، ولذلك كان من الحزم الانشغال بالمكاسب وتقليل الخسائر.. فانظر إلى مكاسب بلائك، لتنسيك المكاسب ما خسرته من جسدك وراحتك.

قلت: لقد ذكرتني بتعداد بعضهم للمعاني الجمالية المصبوبة في قوالب البلاء، فقال: (إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات: أحمده إذ لم تكن أعظم مما هي، وأحمده إذ رزقني الصبر عليها، وأحمده إذ وفقني للإسترجاع لما أرجو فيه من الثواب، وأحمده إذ لم يجعلها في ديني)

قال: هي أربع مكاسب، كل مكسب منها كاف في شغلك

1) الترمذي كتاب الزهد رقم (2403) عن جابر وقال: هذا حديث غريب.

عن البلاء، وفي رسم الابتسامة في شفتيك بدل الأنين.

قلت: قرأت عن بعض الصالحين أنه برىء من علة كان فيها، فجلس للناس، وهنؤوه بالعافية، فلما فرغ الناس من كلامهم، قال: (إن في العلل لنعماً لا ينبغي للعاقل أن يجهلها: تمحيص للذنب، وتعرض لثواب الصبر، وإيقاظ من الغفلة، وإذكار بالنعمة في حال الصحة، واستدعاء للمثوبة، وحض على الصدقة، وفي قضاء الله وقدره بعد، الخيار)

قال: فللنطلق من هذه المعاني لننال هذه الجوائز العشرة.

قلت: وما هي؟

قال: التمييز، والتمحيص، والتأديب، والتذكير، والافتقار، والمحدودية، والسكينة، والتطهير، والمعاينة، والثواب.

نعمة التمييز:

قلت: فما نعمة التمييز؟

قال: هي ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ(1) اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران:142)، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة:16)

قلت: فما وجه الإشارة إلى هذه النعمة؟

قال: الله تعالى يبتلي خلقه بأصناف البلاء ليميز المحق من المبطل، والطيب من الخبيث.

قلت: فما سر ذلك؟

قال: الله تعالى بحكمته جعل هذه الدار محلا لاختبار عباده، لينزل كل واحد منهم ـ في النشأة الآخرة ـ المحل الذي ينسجم مع طبيعته، وتبرزه أهليته، فلذلك كانت هذه الدار هي دار التمييز التي يتميز فيها المحسن من المفسد، والراضي من الساخط(2).

قلت: ولكن الله يعلم بأحوال عباده محسنهم ومسيئهم، وراضيهم وساخطهم.

قال: ولكنه لعدله لا يكتفي بعلمه، بل يجعل من أعمال العباد

---

1) هذه التعبيرات وأشباهها في القرآن الكريم لا تعني عدم علم الله بالشيء قبل حصوله، وإنما تعني تحققه الواقعي، ويشبه هذا ـ كما يذكر الشيرازي ــ علم المهندس بكل تفاصيل البناء عند وضعه التصميم. ثم يتحول التصميم الى بناء عملي. والمهندس يقول حين ينفذ تصميمه على الارض: اريد ان ارى عمليا ما كان في علمي نظريا.. وقد فصلنا الحديث عن هذه الشبهة في رسالة:(أسرار الأقدار)

2) وهذا كما ينص عليه قوله تعالى:﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأنفال:37)

حجة لهم أو عليهم.

قلت: فما وجه كون التمييز نعمة؟

قال: دخل جماعة على بعض الصالحين، وهو في مارستان قد حبس فيه، وقد جمع بين يديه حجارة، فقال: من أنتم؟ فقالوا: محبوك، فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة فتهاربوا فقال: ما بالكم ادعيتم محبتي، إن صدقتم فاصبروا على بلائي.

قلت: لم أفهم هذا المثال.

قال: فاسمع لآخر يقربه لك، فقد قال: كنت نائما عند بعض الصالحين، فانبهني فقال لي: (يا فلان، رأيت كأني قد وقفت بين يدي الله تعالى فقال لي: خلقت الخلق فكلهم ادعى محبتي، وخلقت الدنيا فهرب مني تسعة أعشارهم، وبقي معي العشر، وخلقت الجنة فهرب مني تسعة اعشار العشر، وبقي معي عشر العشر، فسلطت عليهم ذرة من البلاء، فهرب مني تسعة اعشار عشر العشر، فقلت للباقين: معي، لا الدنيا اردتم، ولا الجنة اخذتم ولا من النار هربتم، فماذا تريدون، قالوا: انك تعلم ما نريد، فقلت لهم: فاني مسلط عليكم من البلاء بعدد انفاسكم ما لا تقوم له الجبال الرواسي اتصبرون؟ قالوا: اذا كنت انت المبتلي لنا، فافعل ما شئت فهؤلاء عبادي حقا)

قلت: لا يزال عقلي كالا دون فهم وجه كون التمييز نعمة.

قال: فقد قال بعض الصالحين: (الناس ما داموا في عافية مستورون، فإذا نزل بهم بلاء صاروا إلى حقائقهم؛ فصار المؤمن إلى إيمانه، وصار المنافق إلى نفاقه)

قلت: فما وجه النعمة في هذا، بل إن هذا بلاء.. محض بلاء؟

قال: أرأيت لو جاورك في بيتك الأدنى من لا تطيق عشرته.. أترضى بذلك؟

قلت: لا.. بل إني سأرحل عنه..

قال: ولو خسرت مالك.

قلت: ولو خسرت مالي..

قال: لم؟

قلت: طلبا للراحة منه.

قال: فهذا منزل محدود.. لأمد معدود.. فكيف بالمجاورة المستمرة الدائمة التي لا حدود لها.

قلت: الكامل لا يرضى صحبة الناقص، والطيب لا يطيق معاشرة الخبيث.

قال: ولذلك كان التمييز الذي يحصل في الآخرة بين الأجناس والأنواع نعمة من النعم العظمى التي يستشعرها المؤمنون، فلا يدخل الجنة إلا الطيبون، بل إنهم في نفس الجنة متميزون بحسب مراتبهم ودرجاتهم.

قلت: ولهذا يبين القرآن الكريم المواقف المختلفة من أنواع البلاء، ففي موقف الخوف مثلا يخبر تعالى عن صنفين من الناس:

أما الأول، وهو الناجح في الاختبار، فيذكر تعالى وقوفه كالطود الأشمّ أمام كل المخاوف، قال تعالى: الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (آل عمران:173)

وأما غيرهم من الجبناء الساقطين في الاختبار فقد قال تعالى في شأنهم: فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ (المائدة:52)

وقد أخبر تعالى عن الناجحين في الاختبار بأنه من المنعم عليهم، قال تعالى: قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (المائدة:23)، وهذا في مقابلة الساقطين الجبناء الذين قالوا: يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (المائدة:22)، وقالوا بكل تبجح: يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (المائدة:24)

وهكذا في كل المواقف، نجد المؤمنين الصادقين الناجحين فيما أنعم به عليهم من البلاء، ونجد الراسبين الساقطين في الامتحان الذين قال تعالى في شأنهم: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (الحج:11)

فهذا الخاسر لا يعبد الله في الحقيقة وإنما يعبد أهواءه التي قد تتفق أحيانا مع ما يأمر به الله، فيتوهم الخلق أنه يعبد الله، فلذلك يبتلى بما يظهر حقيقته، ويكشف عن سريرته.

نعمة التمحيص:

قلت: فما نعمة التمحيص؟

قال: هي التي أشار إليها قوله تعالى: وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (آل عمران:141)، فقد أخبر تعالى أن

العلة في البلاء الذي حصل للمؤمنين هـو تمحيصـهم، كمـا أن علـة البلاء الحال بغيرهم هو محقهم.

قلت: فما التمحيص(1)؟

قال: هو التنقية والتطهـير والتميـيز لتظهـر أهليـة كـل واحـد منهم ما يستحقه من جزاء.

قلت: فما يظهر تلك الأهلية؟

قـال: لا تـبرز الأهليـة إلا بأسـياف البلاء، وريـاح الفتن، وأنـواع التمحيص، فالدعاوى سهلة، ولكن الصـعب إثباتهـا، ولـذلك رد اللـه تعالى على من حسبوا الأمر سهلا، تكفي فيه مجرد الدعاوى، فقال تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَـأْتِكُمْ مَثَـلُ الَّذِينَ خَلَـوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُـوا حَتَّى يَقُـولَ الرَّسُـولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (البقرة:214)

قلت: ولكن هذه الآية نزلت في محل خاص.

قال: ولكنها في حقيقتها تفسر سـنة اللـه في تمحيص عبـاده ليبرز كل شخص ما في صدره من تسـليم أو اعـتراض، أو عبوديـة أو ربوبية، كما قال تعالى: وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَـا فِي صُـدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (آل عمران:154)

فـالقلب كـالمجتمع كلاهمـا يحتـاج إلى أنـواع البلاء والمحن والفتن التي تميز الطيب عن الخبيث، والطاهر من النجس.

سمعت صوتا كأني أعرفه، قلت: ما هذا الصوت يا معلم؟

قال: هذا صوت سيد.

قلت: أهو طبيب من أطباء هذا المستشفى؟

قال: كل الأولياء أطباء بهذا المستشفى.

قلت: فما الذي جعله يتكلم الآن؟

قال: سمع قراءتنا للآية، فأراد أن يتحدث عنها، فأصخ سـمعك إليه.

قـال سـيد: التمحيص درجـة بعـد الفـرز والتميـيز.. التمحيص عمليـة تتم في داخـل النفس، وفي مكنـون الضـمير.. إنهـا عمليـة كشف لمكنونات الشخصية، وتسليط الضوء على هذه المكنونـات، تمهيـدا لإخـراج الـدخل والـدغل والأوشـاب، وتركهـا نقيـة واضـحة مستقرة على الحق، بلا غبش ولا ضباب.

قلت: فما الحاجة إليه؟

---

1) المحص: في اللغة التنقية، والمحق في اللغة النقصـان، وقـال المفضـل: هـو أن يذهب الشيء كله حتى لا يرى منه شيء، ومنه قولـه تعـالى: ﴿ يمحـق اللـه الربا﴾(البقـرة: 276) أي يستأصله.

قـال: كثـيرا مـا يجهـل الإنسـان نفسـه، ومخابئهـا ودروبهـا ومنحنياتها. وكثـيرا مـا يجهـل حقيقـة ضـعفها وقوتهـا، وحقيقـة مـا استكن فيها من رواسب، لا تظهر إلا بمثير !

وفي هذا التمحيص الذي يتولاه الله - سبحانه - بمداولة الأيام بين الناس بين الشدة والرخاء، يعلم المؤمنون من أنفسـهم مـا لم يكونوا يعلمونه قبل هذا المحـك المريـر:محـك الأحـداث والتجـارب والمواقف العملية الواقعية.

فقـد يظن الإنسـان في نفسـه القـدرة والشـجاعة والتجـرد والخلاص من الشـح والحـرص.. ثم إذا هـو يكشـف - على ضـوء التجربة العمليـة، وفي مواجهـة الأحـداث الواقعيـة - إن في نفسـه عقابيل لم تمحص، وأنه لم يتهيأ لمثل هذا المستوى من الضغوط ! ومن الخير أن يعلم هذا من نفسه، ليعاود المحاولة في سـبكها من جديد(1).

قلت: ألهذا كان الألم علاجا مشخصا للأدواء؟

قال: أجل.. وهو في ذلك كتلك المحاليل الكاشفة الـتي تمـيز أنـواع العناصـر، ليتـبين الأصـيل من الـدخيل، وتتمـيز الصـحة عن المرض.

قلت: فما وجه كونه نعمة؟

قال: لا يمكن العلاج إلا بالتشخيص، فمن السهل ادعاء الصبر، ومن الصعب التحقق به، فلذلك كان التمحيص مقدمة للتأديب.

نعمة التأديب:

قلت: فما نعمة التأديب؟

قـال: هي الـتي أشـار إليهـا قولـه تعـالى: وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَـهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (الانبياء:87)

قلت: فما وجه الإشارة فيها؟

قال: لقد جعـل اللـه البلاء الـذي حـل بيـونس عليه السلام مؤدبـا لـه، وزاجرا عما وقع فيه.

قلت: فيمكن لهذا الاستشهاد بمـا وقـع لآدم عليه السلام من أكلـه من الشجرة بعد أن نهي عنها.

قال: أجل.. فقد ابتلي ليؤدب أمام أوامر ربـه، وليعـرف مـدى عداوة الشيطان له، فكان ظاهر بلائـه نقمـة، وباطنـه رحمـة، قـال تعـالى: فَلَمَّا ذَاقَـا الشَّـجَرَةَ بَـدَتْ لَهُمَـا سَـوْآتُهُمَا وَطَفِقَـا يَخْصِـفَانِ

1) في ظلال القرآن: 1/482.

عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (لأعراف:22)

قلت: ولكنه ـ مع ذلك ـ وللأسف ـ خرج من الجنة.

قال: من أكبر نعم الله على آدم عليه السلام أنه خرج من الجنة.

قلت: ما هذا ـ يا معلم ـ أكانت الجنة نارا حتى يكون خروجه منها نعمة؟

قال: لم تكن نارا، ولكن سكونه إليها هو النار.. لقد انقلب آدم عليه السلام بعد خروجه من الجنة شخصا آخر.

قلت: كيف.. فآدم الذي دخل الجنة، هو آدم الذي خرج منها.

قال: ولكنه ـ عندما خرج منها بأسياف البلاء ــ تحقق فيه ما أريد منه من منصب الخلافة العظيم الذي خلق له.

قلت: لقد ذكرتني بكلام لبعضهم على لسان الحضرة الإلهية يقول فيه مخاطبا آدم عليه السلام: (يا آدم لا تجزع من قولي لك: اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ (لأعراف:24)، فلك ولصالح ذريتك خلقتها.. يا آدم كنت تدخل علي دخول الملوك على الملوك، واليوم تدخل علي دخول العبيد على الملوك.. يا آدم لا تجزع من قولي لك: وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُم (البقرة:216)) (1)

قال: ولهذا ورد في النصوص الإخبار بابتلاء الله لعباده بسبب الذنوب التي يقعون فيها، وهو ابتلاء يشبه تماما تقريع المعلم لتلميذه رادعا له ومؤديا، وقد قال تعالى: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (الشورى:30)، فالآية الكريمة تبيَّن بوضوح أن المصائب التي تصيب الإنسان هي نوع من التحذير والعقاب الإلهي إلا ما كان من البلاء المتعلق بالمقربين من الأنبياء والصديقين، فله نواح أخرى غير هذا.

قلت: لقد روي أنه لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من اختلاج عرق ولا خدش عود ولا نكبة حجر إلا بذنب ولما يعفو الله عنه أكثر)(2)

قلت: فما وجه كون التأديب نعمة؟

قال: لقد كانت ملاحظة الصديقين لهذا سبب سرور عظيم، فقد لحظوا عناية الله بهم وتأديبه لهم، وغابوا بهما عن ألم الأنين الذي حل بهم.

ولهذا قال على بن أبي طالب: (ألا أخبركم بأفضل آية في

---

1) الفوائد:35.

2) ابن عساكر.

كتاب الله حدثنا بها النبي ﷺ: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (الشورى:30)، ثم قال: (يا علي ما أصابكم من مرض أوعقوبة أوبلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم، والله أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة وما عفا عنه في الدنيا فالله أحلم من أن يعاقب به بعد عفوه)(1)

قلت: إني أرى البلاء لا ينزل على الأفراد فقط، بل هو يعدوها إلى المجتمعات، فهل هو من التأديب؟

قال: أجل.. فإن الله برحمته ولطفه وحكمته يرسل تنبيهاته للمجتمعات حتى تعود إلى ربها وتتأدب بين يديه، ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم:41)، وهذا يدل على كون هذا سنة اجتماعية.

وفي قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ تنبيه إلى أن العلة في ذلك ليس الانتقام وإنما التأديب، فما: ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً ﴾ (النساء: 147)

ويشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (لأنفال:53)،ـ وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (الرعد:11)

قلت: لقد ذكرتني بما يقول أهل الأدب في هذا، فقد قال بعضهم: (المحن آداب الله عز وجل لخلقه، وتأديب الله بفتح القلوب، والأسماع، والأبصار)

وكتب آخر إلى صديق له في محنة لحقته: (إن الله تعالى ليمتحن العبد، ليكثر التواضع له، والاستعانة به، ويجدد الشكر على ما يوليه من كفايته، ويأخذ بيده في شدته، لن دوام النعم والعافية، يبطران الإنسان، حتى يعجب بنفسه، ويعدل عن ذكر ربه، وقد قال الشاعر:

لا يترك اللّه عبداً ليس يذكره ممن يؤدّبه أو من يؤنّبه

أو نعمة تقتضي شكراً يدوم له أو نقمة حين ينسى الشكر تنكبه

قال: فالبلاء مدرسة من مدارس الله لتأديب عباده.. ألا تدربون جنودكم بالجوع والعطش؟

---

1) أخرجه ابن أبي حاتم موقوفاً، ورواه مرفوعاً من وجه آخر.

قلت: بلى.. بل لا يصح أن يحمل جندي اسم الجندية إلا إذا جاع وعطش ونزلت به كل المصائب.

قال: لم؟

قلت: ليتمرن، وتمتلئ نفسه صبرا، وقلبه شجاعة.

قال: فكذلك رحمة الله اقتضت أن يذيقكم بعض البلاء ليتربى في نفوسكم ما يعجز الترف على تربيته.

نعمة التذكير:

قلت: فما نعمة التذكير؟

قال: هي التي أشار إليها قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ (فاطر:37)، فمن الأقوال في تفسيرها أن المراد بالنذر الأمراض(1).

قلت: لقد ورد في هذا حديث لا أدري مدى صحته، هو: (الحمى رائد الموت، وسجن الله في الأرض)(2)

قال: وقد ورد في الآثار ما يدل على هذا المعنى أيضا، فقد روي أن بعض الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ قال لملك الموت ﷺ: أمالك رسول تقدمه بين يديك ليكون الناس على حذر منك؟

قال: نعم، لي والله رسل كثيرة من الإعلال والأمراض والشيب والهموم وتغير السمع والبصر، فإذا لم يتذكر من نزل به ولم يتب، فإذا قبضته ناديته: ألم أقدم إليك رسولاً بعد رسول ونذيراً بعد نذير؟ فأنا الرسول الذي ليس بعدي رسول، وأنا النذير الذي ليس بعدي نذير، فما من يوم تطلع فيه شمس ولا تغرب إلا وملك الموت ينادي: يا أبناء الأربعين، هذا وقت أخذ الزاد، أذهانكم حاضرة وأعضاؤكم قوية شداد. يا أبناء الخمسين قد دنا وقت الأخذ والحصاد، با أبناء الستين نسيتم العقاب وغفلتم عن رد الجواب فما

---

1) ومن الأقوال في تفسير الآية: أن النذير هو القرآن، وقيل الرسول؛ وقال ابن عباس: هو الشيب، وقيل: النذير الحمى، وقيل: موت الأهل والأقارب، وقيل: كمال العقل.

وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا تعارض بينها، فالشيب نذير، لأنه يأتي في سن الاكتهال، قال الشاعر:

رأيت الشيب من نذر المنايا لصاحبه وحسبك من نذير

وأما موت الأهل والأقارب والأصحاب والإخوان فإنذار بالرحيل في كل وقت وأوان، قال الشاعر:

وأراك تحملهم ولست تردهم فكأنني بك قد حملت فلم ترد

وأما كمال العقل فبه تعرف حقائق الأمور، فالعاقل يعمل لآخرته ويرغب فيما عند ربه؛ فهو نذير.

وأما محمد ﷺ فبعثه الله بشيرا ونذيرا إلى عباده قطعا لحججهم؛ قال الله تعالى: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾(النساء:165انظر: القرطبي: 14/354.

2) ابن السني وأبو نعيم في الطب.

لكم من نصير: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ (فاطر:37))(1)

قلت: فما وجه كون التذكير بهذا نعمة؟

قال: إذا علم المؤمن بقرب أجله سارع إلى المبادرة، قبل أن يفوت الأوان.. وليس ذلك فقط، بل إن البلاء في صوره المؤلمة يجعل صاحبه يقلع عما هو فيه من الغي، فلا يلقى الله وهو في سكرات غيه.

قلت: لقد ذكرتني ببديع الزمان حين قال..

ضحك، وقال مقاطعا لي: لا تحتاج لأن تذكره، فهو طبيب بصير من أطباء هذا المستشفى، فأصخ بصيرتك لتسمع إليه.

قال بديع الزمان: ثم إن الشيخوخة والمرض والبلاء، وما يحدث من وفيات هنا وهناك، تقطّر ذلك الألم المرير إلى نفس كل إنسان، وتُنذره دوماً بمصيره المحتوم، فلا جرم أن أولئك الضالين وأرباب السفاهة والمجون سيتأجج في قلوبهم جحيمٌ معنوي، يعذبهم بلظاه حتى لو تمتعوا بمباهج الدنيا ولذائذها، بيد أن الغفلة وحدها هي التي تحول دون استشعارهم ذلك العذاب الأليم(2).

قلت: الله !.. ما أدق بصيرته ! وما أحد نظره !

قال: أصخ سمعك ولا تقاطعه.

أصخت سمعي، فإذا به يقول، وكأنه يخاطب مريضا متألما يذكره بالكنوز المخبأة في طيات المرض: أيها المسكين الشاكي من المرض! إن المرض يغدو كنزاً عظيماً لبعض الناس، وهدية إلهية ثمينة لهم.. وباستطاعة كل مريض أن يتصور مرضه من هذا النوع، حيث أن الحكمة الإلهية اقتضت أن يكون الأجلُ مجهولاً وقته، إنقاذاً للإنسان من اليأس المطلق أو من الغفلة المطلقة، وإبقاءاً له بين الخوف والرجاء، حفظاً لدنياه وآخرته من السقوط في هاوية الخسران.. أي أن الأجل متوقع مجيئه كل حين، فإن تمكّن من الإنسان وهو سادر في غفلته يكبّده خسائر فادحة في حياته الأخروية الأبدية. فالمرض يبدد تلك الغفلة ويشتتها، وبالتالي يذكّر بالآخرة ويستحضر الموت في الذهن فيتأهب له. بل يحدث أن يربّحه ربحاً عظيماً، فيفوز خلال عشرين يوماً بما قد يستعصي استحصاله خلال عشرين سنة كاملة(3).

قلت: يا بديع الزمان.. يا من تنور هذا المستشفى ببصيرته..

---

1) ذكره ابن الجوزي في كتاب:(روضة المشتاق والطريق إلى الملك الخلاق)
2) الكلمة الثالثة عشرة - ص: 158
3) اللمعة الخامسة والعشرون: 326، بتصرف.

أخبرني بمثال على ذلك تثبت به قلبي.. فقد عهدتك صاحب أمثلة.

قال: كان هناك فَتَيان - يرحمهما اللـه -، ورغم كونهمـا أمـيين من بين طلابي، فقد كنتُ ألحظ بإعجاب موقعَهما في الصف الأول في الوفاء والصدق وفي خدمة الايمان، فلم أدرك حكمـة ذلـك في حينهـا، ولكن بعـد وفاتهمـا علمت انهمـا كانـا يعانيـان من دائين عضـالين، وبإرشـاد من ذلـك المـرض أصـبحا على تـقوى عظيمـة يسعيان في خدمـة راقيـة، وفي وضـع نـافع لآخرتهمـا، على خلاف سائر الشباب الغافلين الساهين حتى عـن فرائضهـم، فنسأل اللـه أن تـكون سنتا المرض والمعاناة اللتان قضيـاهما في الحيـاة الـدنيا قد تحولتا الى ملايين السنين من سعادة الحياة الابدية (1).

ثم سكت برهة، وقال: ومالي أذهب إلى أصحابي.. سـأحدثك عن نفسي.. (حينما وطأت قدماي عتبة الشـيخوخة، كـانت صـحتي الجسدية التي ترخي عنان الغفلة وتمدّها قـد اعتلّت أيضـاً فـاتفقت الشيخوخة والمرض معـاً على شـن الهجـوم عليّ، ومـا زالا يكيلان على رأسي الضربات تلو الضربات حتى أذهبا نوم الغفلة عنّي. ولم يكن لي ثمـة مـا يربطـني بالـدنيا من مـال وبـنين ومـا شـابههما، فوجدت أن عصارة عمري الـذي أضـعته بغفلـة الشـباب، إنمـا هي آثام وذنوب، فاستغثتُ صائحاً مثلما صاح نيازي المصري:

ذهب العُمر هباءً، لـم أفز فيه بشيء
ولقد جئت أسير الدرب، لكنْ
رحل الرّكبُ بعيداً وبقيتْ
ذلك النائي الغريب وبكيتْ
همتُ وحدي تائهاً أطوي الطريق
وبعينيّ ينابيع الدموع
وبصدري حرقة الشوق
حار عقلي..!)(2)

نعمة الافتقار:

قلت: فما نعمة الافتقار؟

قال: هي التي أشار إليها قوله تعالى: كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَـانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (العلق:6 ـ 7)

قلت: لقد أخبر تعالى بأن رؤية الإنسان لغنـاه، تجعلـه طاغيـة ظالما متعديا لحدوده.

---

1) اللمعة الخامسة والعشرون: 326.
2) اللمعة السادسة والعشرون: 345.

قال: ولذلك يكون الافتقار، وكل ما يؤدي إليه نعمة من النعم تخلص الإنسان من الطغيان، وتعيده إلى وضعه الطبيعي.

قلت: هذا تشير إليه آيات كثيرة، فالله تعالى يقول، وهو يبين سنة اجتماعية لا تكاد تتخلف: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (الشورى:27)

قال: هذه حقيقة لا تدل عليها النصوص فقط، بل يدل عليها الواقع.. واقع كل الناس، فهم إن عاشوا الترف نسوا الخالق والمخلوق.. وظلموا وبغوا.

قلت: لقد قد ذكر الفخر الرازي علة لكون التوسع موجبا للطغيان، فقال: (الإنسان متكبر بالطبع، فإذا وجد الغنى والقدرة عاد إلى مقتضى خلقته الأصلية وهو التكبر، وإذا وقع في شدة وبلية ومكروه انكسر فعاد إلى الطاعة والتواضع)(1)

قال: هذا صحيح، ولهذا كان من العقوبة التي تنزل على عباد الله الغافلين أن تفتح عليهم زهرة الدنيا، ويفاض عليهم نعيمها، قال تعالى:﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (الأنعام: 44)

ويروى في هذا عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إذا رأيتم الله تعالى يعطي العباد ما يشاءون على معاصيهم فإنما ذلك استدراج منه لهم)، ثم تلا قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (الأنعام:44))(2)

قلت: فقد قيل: إن السبب الذي حمل فرعون على قوله: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (النازعات:24) طول العافية والغنى، فإنه لبث أربعمائة سنة لم يتصدع رأسه، ولم يضرب عليه عرق.

قال: لو أخذته الشقيقة ساعة واحدة لشغله ذلك عن دعوى الربوبية.

قلت: ألهذا لا ينزل الله تعالى فرجه ابتداء في أكثر الأحوال؟

قال: أجل.. وهذا من رحمة الله بعباده.. لأن ما يأتيهم قبل الفرج من فضله الذي لم يلتفتوا إليه أعظم من الفرج نفسه.

قلت: هو يتركهم حتى يستشعروا فقرهم وحاجتهم الله.

---

1) التفسير الكبير.
2) ابن أبي حاتم.

قال: وحينذاك يفيض عليهم عطاؤه وغيثه.

قلت: لقد ذكر تعالى ذلك، فقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (الشورى:28)، وقال: ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ (الروم:49)، وقال: ﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الروم: 50)

قال: ولهذا، فإن المتوسمين من عباد الله يستدلون بوجود الفاقات على قرب الصدقات، لأن الفاقة تحقق صاحبها بالافتقار، والافتقار يؤهل صاحبه للفضل.

قلت: فالفاقات إذن رسائل رحمة؟

قال: هذا ما يفهمه العارفون منها، فهم يعتبرون أفعال الله تعالى فيهم وفي غيرهم رسائل رحمة ومودة.. ولا يفهمون من تلك الأنات والبلايا إلا أنها حروف من الله تشهدهم وجود فاقتهم، وتشعرهم بحقيقتهم، لتشغلهم بالله عن أنفسهم.

قلت: لقد أشار ابن عطاء الله إلى هذا فقال: (خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك، وترد فيه إلى وجود ذِلتك)

وأشار إلى هذا المعنى في الحكمة الأخرى بقوله: (فاقتك لك ذاتية، وورود الأسباب مذكرات لك بما خفي عليك منها، والفاقة الذاتية لا ترفعها العوارض)

قال: نعم، فإنه إذا علم العبد أن العدم سابق على وجوده، وأن وجوده مفتقر إلى المدد في كل وقت، وإلا تلاشى وانعدم، علم أن فاقته ذاتية، وأن الاضطرار لازم لوجوده، وأن ورود العلل المختلفة من الفقر والمرض مذكرات له بما خفي عليك من الفاقة الذاتية، فإن غالب الناس يغفلون عن الفاقة الذاتية إذا دامت عليهم صحة أبدانهم وكثرة أموالهم.

قلت: لقد تحدث بديع الزمان عما يحدثه البلاء من أنواع الفاقة والعجز، والتي تقرب المبتلى إلى ربه.

قال: فأصخ سمع بصيرتك إليه.. ألا تعلم أنه من أطباء هذا المستشفى؟

سمعت صوته، وهو يقول: إن البلايا والضر والأمراض تجعل صاحبها يشعر بعجزه وضعفه، فيلتجىء إلى ربه الرحيم، ويتوجه اليه ويلوذ به، فيؤدي بهذا عبادة خالصة، هذه العبادة خالصة زكية لا يدخل فيها الرياء قط، فإذا ما تجمل المصاب بالصبر وفكّر في

ثواب ضره عند الله وجـميل أجره عنده، وشكر ربه عليها، تـحولت عندئذ كل ساعة من ساعات عمره كأنهـا يـوم من العبـادة، فيغـدو عمره القصير جداً مديداً طـويلاً، بـل تتــحول - عنـد بعضـهم - كـل دقيقة من دقائق عمره بـمثابة يوم من العبادة.

قلت: فـالبلاء إذن ــ يـا بـديع الزمـان ــ مسـجد من مسـاجد العبودية ومحراب من محاريبها؟

قال: ليس هذا فقط، بل هناك حكم أجل يبرزها فقر الإنسان، لها علاقة بالعرفان.

قلت: أفقر الإنسان يعرفه بالله؟

قال: بل يوصله إليه.

قلت: كيف ذلك؟

قال: (ان الله سبحانه قد أدرج في الانسـان عجـزاً لا حـد لـه، وفقراً لانهاية له، إظهاراً لقدرته الـمطلقة وإبرازاً لرحمته الواسـعة. وقد خلقه على صورة معينة بـحيث يتألم بما لا يحصى من الجهات، كمـا أنـه يتلـذذ بمـا لا يعـد من الجهـات، إظهـاراً للنقـوش الكثـيرة لأسمائه الحسنى. فابدعه سبـحانه على صورة ماكنة عجيبة تـحوي مئات الآلات والدواليب، لكل منها آلامها ولذائـذها ومهمتهـا وثوابهـا وجزاؤها، فكأن الاسماء الإلـهية المتجلية في العالم الذي هو إنسان كبير تتجلى أكثرها أيضاً في هذا الانسان الذي هو عالم أصغر، وكما أن ما فيه من أمـور نافعـة - كالصـحة والعافيـة واللذائـذ وغيرهـا - تدفعه الى الشكر وتسوق تلـك الــماكنة الى القيـام بوظائفهـا من عدة جهات، حتى يغدو الانسان كأنه ماكنة شـكر. كـذلك الامـر في المصائب والأمراض والآلام وسائر المـؤثرات المهيجـة والمحركـة، تسوق الدواليب الأخرى لتلك الماكنة الى العمـل والحركـة وتثيرهـا من مكمنها فتفجّـر كنـوز العجـز والضـعف والفقـر الــمندرجة في الــماهية الانسـانية. فلا تـمنــح الــمصائبُ الانسـانَ الالتــجاء الى البارىء بلسان واحد، بل تـجعلـه يلتـجىء اليه ويستغيثه بلسان كل عضو من أعضائه)[1]

قلت: هـذه نعم جليلـة ينبتهـا غـرس البلاء، المضـمخ بعطـر الافتقار.

قال: ليس هذا فقط بل إنـه يلقن المـريض أهم عـرى الحيـاة الاجتماعية.. فهو لا يربطه بالله فقط، بل يربطه بالمجتمع أيضا.

قلت: كيف ذلك؟

---

1) اللمعة الثانية: 19.

قـال: لأنـه ينقـذ الانسـان من الاسـتغناء عن الآخـرين، ذلـك الاستغناء الذي يسـوق الى الوحشـة ويجـرد الانسـان من الرحمـة، فالنفس الأمارة الواقعة في شباك الاسـتغناء - النـاجم عن الصـحة والعافية - لن تشعر بالاحترام اللائـق تجـاه العلاقـات الاخويـة، ولن تحس بالرحمة والرأفة بـالمبتلين بالمصـائب والامـراض الجـديرين بالرحمة والعطـف، ولكن مـتى مـا انتـاب الانسـان المـرض وأدرك مدى عجزه، ومدى فقره، تحت ضغوط المرض وآلامه وأثقاله فانه يشعر بالاحترام لأشقائه المؤمنين اللائقين بالاحترام الذين يقومـون برعايته، أو الذين يـأتون لعيادتـه، ويشـعر كـذلك بالرأفـة الانسـانية وهي خصلة إسلامية تجاه اهل المصائب والبلايا - قياساً على نفسه - فتفيض من قلبه الرحمة والرأفة بكل معناهما تجاههم، وتضـطرم عنده الشفقة حارة ازاءهم، واذا استطاع قدّم لهم يـد العـون، وان لم يقـدر عليـه شـرع بالـدعاء لهم، أو بزيـارتهم والاستفسـار عن راحتهم وأحوالهم مؤدياً بذلك سنةً مشروعة كاسـباً ثوابهـا العظيم) (2)

قلت: هنيئا للفقراء هذه النعم العظيمة التي يحملها فقرهم.

قال المعلم: لقد عرفت عند رحلتك لكنوز الفقراء كيف يطـير الافتقار بالمؤمن، فلا يقف به إلا على باب الله تعالى، فيتوجه بكل كيانه إلى الـرحيم الـرحمن، كمـا يتوجـه الصـبي إلى أحضـان أمـه، فيكسب بالتجائه من اللذة ما ينسـيه إلى كـل ألم، بـل يكـون ذلـك الألم هو طريق الأشواك القصير المحدود الذي أوصـله إلى الجنـان المزهرة.

قلت: لكانك تشير بقولك هذا، وبهذه الرحمة المكسوة بكساء الألم إلى قولـه تعـالى:﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَـنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَـاءَ رَحْمَـةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾ (الاسراء: 28)

قال: هذا صحيح، ولذلك كـان في الافتقـار الـذي ينشـئه البلاء لذة يشعر بها العارفون لا تقل عن لذة شعور الصبي بـالأمن، وهـو يعود إلى أحضان أمه الدافئة.

قلت: فهذا من معاني قوله تعالى:﴿ وَعَسَـى أَنْ تَكْرَهُـوا شَـيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَـرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:216)

قال: أجل.. وكل هذا المستشفى تفسير لهذا القول.

قلت: لقد سمعت بعضهم يعبر عن هذا بسجود القلب؟

---

2) اللمعة الخامسة والعشرون: 329.

قال: أجل.. وقد سئل سهل التستري: (أيسجد القلب؟)، فقال: (نعم، يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء)

قلت: فهذا السجود الخاشع الدائم الذي يسجده القلب لا يكون إلا بالافتقار إلى الله.

قال: يحكى في هذا عن بعض العارفين أنه قال: (دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها، فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام، فلم أتمكن من الدخول حتى جئت باب الذل والافتقار، فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه ولا مزاحم فيه ولا معوق، فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبته، فإذا هو سبحانه قد أخذ بيدي وأدخلني عليه)(1)

قلت: لهذه الآثار الجميلة التي يحدثها البلاء في النفس، ومع الله، ومع المجتمع، كان الحمد لله والشكر له يخرج من أفواه الصالحين غضا طريا مشفوعا بالشعور بالمنة لاعتقادهم أن الله ما ابتلاهم ليعذبهم، وإنما ابتلاهم ليخلصهم من أوزار نفوسهم، وليجعلهم أهلا له، وقد روي في الخبر أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: (إذا رأيت الفقر مقبلا إليك فقل: مرحبا بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغني مقبلا إليك فقل: ذنب عجلت عقوبته)(2)

وكان بعضهم إذا اشتد مرضه وجوعه يقول: (إلهي ابتليتني بالمرض والجوع، وكذلك تفعل بأوليائك، فبأي عمل أؤدي شكر ما أنعمت به علي)

وكان آخر يقول: (إلهي أجعتني، وأجعت عيالي وتركتني في ظلم الليالي بلا مصباح، وإنما تفعل ذلك بأوليائك فبأي منزلة نلت هذا منك؟)

وسر ذلك هو خوف الصالحين من الاستدراج بالنعيم، كما قال قائلهم: (والله ما أحد من الناس بسط الله له في الدنيا فلم يخفف أن يكون قد مكر له فيها إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه. وما أمسكها الله عن عبد فلم يظن أنه خير له فيها إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه)

بل هذا ما صرح به ﷺ في قوله: (والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما

---

1) مدارج السالكين: 1/430.

2) وهذا ــ طبعا ــ ليس على عمومه، بل له محله الخاص، وقد ذكرنا المعنى الصحيح لهذا الخبر في رسالة (كنوز الفقراء)

أهلكتهم)(3)

نعمة المحدودية:

قلت: فما نعمة المحدودية؟

قال: من نعم الله العظيمة في البلاء كونه محدودا.

قلت: من أي الجهات كان محدودا؟

قال: من جهة محله، أو من جهة الزمن الذي يستمر فيه.

قلت: فكيف كان البلاء محدودا من جهة المحل؟

قال: إن الله تعالى برحمته لم يبتل منك إلا أعضاء محدودة، أو محال محدودة، ورزقك بدلها من العوض ما يهون عليك ذلك الألم، أو ما تستأنس به بدل ذلك المفقود، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (النساء: 104)

قلت: فما وجه الإشارة في هذه الآية؟

قال: لقد رزق الله المؤمنين الرجاء عوضا عن الألم الذي أصابهم، وهو ما يخفف من حدة البلاء، ويجعله محدودا لا يتجاوز إلى أرواحهم التي هي محل الرجاء.

قلت: فهل تشير إلى هذا آيات أخرى؟

قال: أجل.. آيات كثيرة، فالله تعالى يقول: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (البقرة:155)

فقد ذكر تعالى أن البلاء يكون بشيء من الخوف والجوع، أي بقليل منهما، وبنقص من الأموال والانفس والثمرات، أي ذهاب بعضها فقط وبقاء البعض الآخر.

قلت: هذه إشارة جميلة ودقيقة.. ولكنها قد لا تفهم.

قال: إشارات القرآن الكريم لا يفهمها إلا المتدبرون.

قلت: فلنبسطها حتى يفهموها، ألم يجعل الله تعالى القرآن الكريم ميسرا للذكر؟

قال: إن الله تعالى ذكر في الآية أمرين: ذكر الابتلاء بصيغة المحدودية، وذكر التبشير بصيغة الإطلاق، فلم يحدد الجوائز المرتبطة بالبشارة.

قلت: لم؟

قال: لينمحق البلاء في البشارة، بالإضافة إلى انمحاقه في محدوديته.

---

3) أحمد والترمذي وابن ماجة عن عمرو بن عوف.

قلت: فاضرب لي مثالا على ذلك.

قال: إذا جاز أن نمثل البلاء بشيء، فإن أقرب شيء إليه هو الحفرة التي تدمل الأرض بالجراح.

قلت: نعم هذا تقريب حسن، فالحفرة كالألم الذي أصاب جسد الإنسان.

قال: فإذا كانت الحفرة محدودة من حيث حجمها، ثم ملأناها بأكياس.. لا من الرمل.. بل من الذهب الخالص.. بل بما هو أشرف من الذهب وأغلى قيمة.. أيبقى للحفرة وجود؟

قلت: لو أن الأمر كذلك لتمنى صاحب الحفرة أن تكون حفرته أخدودا عظيما، بل بحرا عميقا، بل محيطا لا حدود له.

قال: الأمر كذلك.. ولكنكم لا تبصرون.

قلت: فهل هناك إشارة أخرى؟

قال: قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ (البقرة:124)، فقد أخبر الله تعالى بأنه ابتلى إبراهيم عليه السلام بكلمات، أي ببعض البلاء، لا بكل البلاء، ومثل ذلك ما ذكر من أنواع البلاء التي حصلت للأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ــ فهي كلها من البلاء المحدود، والذي ينتهي غالبا بالفرج التوسعة.

قلت: فهل هناك إشارة أخرى؟

قال: قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (الشورى:30)، فقد أخبر تعالى أن من أسباب المصائب الذنوب، وأنه برحمته لا يعاقب على كل الذنوب، بل لو عاقب عليها لما ترك على ظهرها من دابة، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ (فاطر:45)

قلت: لقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (الشورى:30)، قول رسول اللّه ﷺ: (والذي نفس محمد بيده ما من خدش عود، ولا اختلاج عرق، ولا عثرة قدم، إلا بذنب، وما يعفو اللّه عنه أكثر)(1)

وورد فيها ما رواه أبو جحيفة قال: دخلت على علي بن أبي طالب ، فقال: ألا أحدثكم بحديث ينبغي لكل مؤمن أن يعيه؟ قال، فسألناه، فتلا هذه الآية: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (الشورى:30)،ـ فقال: ما عاقب اللّه تعالى به في الدنيا، فاللّه أحلم من أن يثني عليه العقوبة يوم القيامة، وما عفا اللّه عنه في الدنيا، فاللّه أكرم من أن يعود في

1) أخرجه ابن أبي حاتم.

عفوه يوم القيامة)[2]

قال: فالبلاء بهذا يصبح محدودا غاية المحدودية.. لأنك لا تقارنه ببلاء مثله، وإنما تقارنه بقدرة الله التي لا تحد، مع مشيئته النافذة في خلقه، فالله مع كونه ابتلاك إلا أنه ابتلاك بشيء محدود لا قيمة له بجنب ما صرف عنك.

قلت: لقد ذكرتني بحكاية رجل الصالح ذكره بعضهم، فقال: كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك، فالديك يوقظهم للصلاة والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خباءهم والكلب يحرسهم، قال: فجاء الثعلب فأخذ الديك، فحزنوا له وكان الرجل صالحاً فقال: عسى أن يكون خيراً، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله فحزنوا عليه فقال الرجل: عسى أن يكون خيراً، ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال عسى أن يكون خيراً، ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سبي من حولهم وبقوا هم، قال: وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من أصوات الكلاب والحمير والديكة، فكانت الخيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات كما قدّره الله تعالى.

فقد كانت هذه المصائب كبيرة في لحظة نزولها، ولكنها كانت بدلا عن مصائب أكبر، فنابت المصائب الصغيرة عن الكبيرة.

قال: بل أشار إلى هذا قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام حين خرق السفنية، وكانت مصيبة صغيرة أقل بكثير من أن يسلبوا السفينة، قال تعالى: ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾ (الكهف: 79)

أو حين قتل الغلام، وهو مصيبة كبيرة في نفسه، ولكنه صغيرة إذا ما قورن بنتيجته، قال تعالى: ﴿، وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾ (الكهف: 80 ـ81)

قلت: فهمت هذا.. وأدركت سر كونه نعمة.

قال: ليس هذا فقط.. بل إن من نعم هذه المصيبة التي حلت بك أنها كانت في الدنيا، ولم تكن في الدين، وكانت في الجسد، ولم تكن في الروح، وتعلقت بالدنيا، ولم تتعلق بالاخرة.

قلت: لا يفقه سر هذا إلا من عرف نسبة الدين إلى الدنيا، ونسبة الروح إلى الجسد، ونسبة النشأة الأولى إلى النشأة الآخرة.. فاضرب لي مثالا يقرب لي هذا المعنى.

---

2) أخرجه ابن أبي حاتم موقوفاً، ورواه مرفوعاً من وجه آخر.

قال: صاحب السيارة الذي تعرض لحادث، مات فيه من مات لكنه نجا، وتأثرت سيارته، فإن هذا وإن تأسف على ما أصابها، إلا أنه يحمد الله على أن المصيبة حلت بالسيارة، ولم تحل به.

قلت: هذا صحيح.. فكيف نطبق هذا المثل على ما نحن فيه؟

قال: لقد عرفنا أن الجسد مطية الروح ومركوبها، وأن غذاء الروح هو الدين، وسمها هو التعلق بالدنيا.

قلت: أجل.. وقد ذكرتني بكلام جميل لبديع الزمان في هذا.

سمعت صوته، وهو يقول: (إن المصيبة التي تعدّ مصيبة حقاً والتي هي مضرة فعلاً، هي التي تصيب الدين. فلابد من الالتجاء الى الله سبحانه والانطراح بين يديه والتضرع اليه دون انقطاع. أما المصائب التي لاتمس الدين فهي في حقيقة الامر ليست بمصائب، لأن قسماً منها تنبيه رحماني! يبعثه الله سبحانه الى عبده ليوقظه من غفلته.. أما القسم الآخر من المصائب فهو كفارة للذنوب، وقسم آخر أيضاً من المصائب هو منحة إلهية لتطمين القلب وافراغ السكينة فيه، وذلك بدفع الغفلة التي تصيب الإنسان، وإشعاره بعجزه وفقره الكامنين في جبلته)(1)

قال: وهناك ناحية أخرى مهمة يمكن الاعتبار منها هنا تخفف من البلاء وتجعله محدودا، بل تكاد تلغيه.

قلت: ما هي؟ فقد شوقتني.

قال: هي محدودية آلام الدنيا مهما عظمت بآلام الآخرة ومصائبها.

قلت: يشير إلى هذا المعنى آيات كثيرة، فالله تعالى يقول: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ (الشعراء:25 ـ 207)، أي لو أخرناهم وأنظرناهم وأمهلناهم برهة من الدهر وحيناً من الزمان وإن طال، ثم جاءهم أمر اللّه، أي شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من النعيم.

قال: لأنهم في ذلك الحين يدركون قصر عمر الدنيا التي كانوا يتفانون من أجلها.

قلت: وقد دل على ذلك آيات كثيرة، فالله تعالى يقول: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ﴾ (الاحقاف:35)، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ (النازعات:46)

قال: وقد أخبر ﷺ أنه (يؤتى بالكافر فيغمس في النار غمسة

1) اللمعة الثانية: ص 16. بتصرف.

ثم يقال له هل رأيت خيراً قط؟ هـل رأيت نعيمـاً قـط؟ فيقـول: لا واللّه يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤسـاً كـان في الـدنيا، فيصـبغ في الجنة صبغة، ثم يقال له: هل رأيت بؤساً قط؟ فيقـول: لا واللّـه يـا رب)(1)، فلحظـة واحـدة في الجنـة تنسـي أشـد النـاس بؤسـا في الدنيا كل ما عاناه فيها.

قلت: فهمت الناحية الأولى، وعرفت أثرها ووجه كونها نعمـة، فما الناحية الثانية؟

قال: **محدودية الزمان**.

قلت: فسرها لي.

قال: هي ما أشار إليه قوله تعالى: الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِـيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (البقرة:156)

قلت: فما وجه الإشارة فيها؟

قـال: كلمـة الاسـترجاع تحمـل دلالـة عظيمـة على محدوديـة البلاء، فالمؤمن المبتلى سـيرجع إلى ربـه، وسـتنتهي برجوعـه كـل أصناف البلايا.

قلت: فاضرب لي مثالا على ذلك.

قال: أرأيت لو أن مسجونا سجن أيامـا معـدودة.. وكـان آمـر السجن رحيما، فكان يرسل له كل يوم من يملؤه بالبشـر، ويقـول لـه: (إن هي إلا أيـام وتعـود إلى أهلـك ومالـك) ألا يستبشـر هـذا المسجود ويستأنس؟

قلت: بلى..

قال: فالله تعالى المبتلي لم يرسل لنا من يؤنسنا بـذلك، بـل هو الذي ملأنا بالأنس، فأخبرنا برجوعنا إليه ليمسح عنا كـل دمعـة، ويبرئ لنا كل جرح.

قلت: فهمت الإشارة.. فهل هناك إشارة أخرى؟

قال: قوله تعالى: وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (الضحى:4)

قلت: هذه الآية في تبشير رسول الله ﷺ.

قال: لا.. هـذه الآيـة تبشـر الكـل.. تبشـر كـل من يسـمع من الله.. فلا يصح أن نحجر على كلام الله.

قلت: فما فيها؟

قـال: ذكـر الآخـرة بعـد ذكـر البلاء يفيـد عظم الجـزاء الـذي يشهده المبتلون بعد أن تنقضي فترة بلائهم.

قلت: ألهذا التفت السحرة إلى المدة التي يمكن لفرعون أن

---

1) مسلم.

يعذبهم فيها؟

قال: أجل، لقد وجدوها قصيرة لا تساوي شيئا أمام ما عند الله، فقالوا له عندما وضعهم في ذلك الخيار الصعب: ﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (طه:72)

قلت: ولهذا يعبر تعالى عن عذاب الآخرة وبلائها بكونه:﴿ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ (طه:127)

قال: ليملأ القلوب المتألمة بالأنس بانتهاء عذابها المحدود.

قلت: لا ـ يا معلم ـ فهي آية تخويف لا تأنيس.

قال: هي تخويف وتأنيس.. هي كالزرع الذي يسقى بماء واحد، ويفضل بعضه على بعض في الأكل، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرعد:4)

قلت: بلى.

قال: فذلك مطره النازل إلى الأرض، وهذا مطره النازل على القلوب.

قلت: فكيف يزرع هذا البسمة في القلوب المتألمة؟

قال: يروى أنّ يونس ﷺ قال لجبريل: دلني على أعبد أهل الأرض، فدله على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب ببصره، فسمعه وهو يقول: إلهي متعتني بهما ما شئت أنت، وسلبتني ما شئت أنت، وأبقيت لي فيك الأمل يا بر يا وصول.

قلت: ما معنى هذا؟

قال: معناه ما صرح به باب مدينة العلم(1) فيما رواه عنه الأحنف بن قيس قال: ما سمعت بعد كلام رسول الله ﷺ أحسن من كلام أمير المؤمنين علي حيث يقول: (إن للنكبات نهايات، لا بد لكل أحد إذا نكب من أن ينتهي إليها، فينبغي للعاقل إذا أصابته نكبة أن ينام لها حتى تنقضي مدتها، فإن في دفعها قبل انقضاء مدتها زيادة في مكروهها)

قلت: لقد استشهد الأحنف لهذا بقول الشاعر:

الدهر تخنق أحيانا قلادته

---

1) إشاة إلى قوله ﷺ:(أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب) رواه ابن عدي والطبراني في الكبير، والحاكم.

فاصبر عليه ولا تجزع ولا تثب

حتى يفرجها في حال مدتها

فقد يزيد اختناقا كل مضطرب

قال: وزيادة على هذا كله، فإن المـؤمن لا يغفـل بـالنظر إلى البلاء الذي نزل به عن الرخاء الذي عاشه، والـذي لا تـزال ترتسـم ذكرياته في ذهنه يستأنس بها.

قلت: ألهذا إشارة من القرآن الكريم؟

قال: أجل، قوله تعالى: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ (التوبة:25)، فقد وردت هذه الآية في موضع من مواضع الألم تذكرهم بأفضال الله السابقة لتملأهم أنسا بها.

قلت: لقد قال الشاعر في هذا وأحسن:

فلا تجــزع وإن أعســرتٍ فقد أيسرت في الزمن

ولاَ تظنن بربّك ظنّ سوءٍ فإنّ اللـه أولى بالجميل

قال: هذه سنة الله في عباده، فهـو يبتلي بالسـراء والضـراء، فمن ابتلي بالسراء لا بد أن يبتلى ببعض الضـراء، ومن رحمـة اللـه محدودية الضراء بجنب السراء.

قلت: لقد أشار ابن مسعود إلى هذا بقوله: (لكل فرحةٍ تَرْحة، وما مُلِىءَ بيتٌ فرحاً إلا مُلِىءَ تَرحاً)

قلت: فما سر جعل البلاء محدودا؟

قال: لأن القصد منه هو الاختبـار، والاختبـار محـدود من حيث الأسئلة المطروحة فيـه، ومن حيث المـدة الـتي تطـرح فيهـا تلـك الأسئلة.

قلت: فما هي المكاسب التي أنالها من هذه المحدودية؟

قـال: أول مكسـب لـك في هـذا هـو تقليـل عـدد مصـائبك وتحجيمها، بل تقزيمها، كمـا قـال بعض الصـالحين: (إذا نـزلت بـك مصيبة فصبرت، كانت مصيبتك واحدة، وإن نزلت بك ولــم تصـبر، فقد أصبت بمصيبتين: فقدان المحبوب، وفقدان الثواب)

قلت: لقد ذكرتـني ــ يـا معلم ــ بأحـاديث جميلـة للصـالحين، فإنهم لا يغفلون بما حل بهم من بلاء عما بهم من نعم الله:

فقد حدث بعض الصـالحين، قـال: مـررت بعـريش من مصـر

وأنا أريد الرباط، فإذا أنا برجل في مظلة قد ذهبت عيناه ويداه ورجلاه، وبه أنواع البلاء وهو يقول: الحمد لله حمدا يوافي محامد خلقك بما أنعمت علي وفضلتني على كثير ممن خلقت تفضيلا. فقلت: لأنظرن أشيء علمه أم ألهمه الله إلهاما؟ فقلت: على أي نعمة من نعمه تحمده؟ أم على أي فضيلة تشكره؟ فوالله لو أرسل السماء علي نارا فأحرقتني، وأمر الجبال فدكدتني، وأمر البحار فغرقتني ما ازددت له إلا حمدا وشكرا وإن لي إليك حاجة: بنية لي كانت تخدمني وتتعاهدني عند إفطاري انظر هل تحس بها؟ وقال عبد الوهاب بني كان لي فقلت: والله إني لأرجو أن يكون لي في قضاء حاجة هذا العبد الصالح قربة إلى الله عز وجل. فخرجت أطلبها بين تلك الرمال فإذا السبع قد أكلها. فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، من أين آتي هذا العبد الصالح أخبره بموت ابنته؟ فأتيته فقلت له: أنت أعظم عند الله منزلة أم أيوب عليه السلام؟ ابتلاه الله في ماله وولده وأهله وبدنه حتى صار عرضا للناس؟ فقال: لا بل أيوب. قلت: فإن ابنتك التي أمرتني أن أطلبها أصبتها وإذا السبع قد أكلها. فقال: الحمد لله الذي لم يخرجني من الدنيا وفي قلبي منها شيء. فشهق شهقة فمات. فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، من يعينني على غسله ودفنه؟ فإذا أنا بركب يريدون الرباط، فأشرت إليهم فأقبلوا إلي فأخبرتهم بالذي كان من أمره فغسلناه وكفناه ودفناه في مظلته تلك، ومضى القوم. وبت ليلتي في مظلته آنسا به حتى إذا مضى من الليل قد ثلثه إذا أنا به في روضة خضراء، وإذا عليه حلتان خضراوان، وهو قائم يتلو القرآن. فقلت ألست صاحبي بالأمس؟ فقال: بلى. فقلت: فما صيرك إلى ما أرى؟ قال: وردت من الصابرين على درجة لم ينالوها إلا بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء.

نعمة السكينة:

قلت: فما نعمة السكينة؟

قال: هي تلك الطمأنينة التي يجدها المؤمن عقب بلائه، وهي تثبيت الله تعالى للقلوب المتألمة، ولولاه لزلزل بها.

قلت: أهي الصبر؟ فالثبات هو ثمرة الصبر.. وهو نعمة تجعل في القلوب قدرة عجيبة على التحمل والتعايش مع البلاء.

قال: هي قريبة من نعمة الصبر.. ولكنها أعظم شأنا.

قلت: كيف؟

قال: السكينة هبة ربانية تنزل على من توفرت فيهم الأهلية،

بينما الصبر عمل إنساني وجهد يمارسه المكلف ليتحقق به(1).

قلت: ألهذا ورد الأمر بالصبر، ولم يرد الأمر بالسكينة، فقد قال تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة:45)،ـ وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ((البقرة:153)،ـ وقال تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (آل عمران:186)،ـ وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: 200)، ولم يأت في آية واحدة الأمر بالسكينة.

قال: السكينة لا يؤمر بها، لأنها تتنزل.. وما يتنزل لا يؤمر به.. وإن صح أن يؤمر به، فإنه يؤمر بالتحقق بأهلية التنزل.

قلت: وما أهلية التنزل؟

قال: وقوف المؤمن في مواقف الخوف والشدة والزلزلة.

قلت: لقد نهينا عن طلب البلاء.

قال: لا أقصد ذلك.. ولكني أقصد أن تتعرض للبلاء المرتبط بالخوف والشدة والزلزلة.

قلت: فكل الخلق يتعرضون لذلك.. هذا من ضرورات الاختبار.

قال: فيهم من يتعرض لها بالله، وفيهم من يتعرض لها بنفسه.

قلت: فمن تعرض لها بنفسه؟

قال: يوكل إليها.. وقد يلتجئ إلى الصبر.. وقد يضيق به الصبر، فينتحر بجسده أو بروحه.

قلت: فمن تعرض لها بالله؟

قال: تتنزل عليه السكينة لتخبره بتولي الله له، وقيامه بشأنه.

قلت: ألهذا كان النبي ﷺ في مواقف الشدة يطلب السكينة؟.. فقد حدث بعضهم، قال: رأيت النبي ﷺ ينقل من تراب الخندق حتى وارى التراب جلدة بطنه، وهو يرتجز بكلمة عبدالله بن رواحة:

لاهم لولا أنت ما ولا تصدقنا ولا صلينا

---

1) وقد يتفق الصبر السكينة في كونهما هبة ربانية، كما في قوله تعالى:﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:250)

فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأولى قد بغوا وإن أرادوا فتنة أبينا

قال: أجل.. ولهذا وردت السكينة في القرآن الكريم في مواضع الشدة(1).

قلت: وهي في أغلبها تتعلق برسول الله ﷺ والعصبة المؤمنة معه(2).

قال: أجل.. والعصبة المؤمنة معه تشمل صحابة رسول الله ﷺ المنتجبين إلى يوم القيامة.

قلت: الصحابة المنتجبون ماتوا.

قال: من اصطلح على تسميتهم كذلك ماتوا.. ولكن من صاحبوا رسول الله ﷺ بأرواحهم لا تخلو منهم الأرض.. ولو خلت منهم الأرض لأذن الله للقيامة أن تقوم.

نعمة التطهير:

قلت: فما نعمة التطهير؟

قال: الله تعالى برحمته ولطفه يحب عبادة المتطهرين(3)، فلذلك يهيء لهم من أسباب الطهارة ما يغسل به الأدران عنهم.

قلت: لقد قال تعالى في المطر الذي أنزله يوم بدر: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (الأنفال:11)، وقال في الصدقات: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ (التوبة:103)، وقال في المحسنين: ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الزمر:35)

قال: أجل.. فالله تعالى ينزل على عباده من أسباب الطهارة ما يجعلهم أهلا لكل فضيلة.

قلت: والبلاء من هذه الأسباب؟

قال: أجل.. ألم تسمع قوله ﷺ: (ما من مصيبة تصيب

---

1) قال تعالى: ﴿، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ((التوبة:26) وقال تعالى: ﴿، هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً((الفتح:4)

2) ما عدا ما ورد في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿، وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (البقرة:248) فإن السكينة هنا ارتبطت بالتابوت، قال ابن عباس:(كل سكينة في القرآن فهي طمأنينة إلا التي في سورة البقرة)

3) كما قال تعالى:﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ (التوبة:108)

المسلم إلا كفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها)[1]

وعندما نزل قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً ﴾ (النساء:123) بلغت من المسلمين مبلغا شديدا فقال رسول الله ﷺ: (قاربوا وسددوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها، أو الشوكة يشاكها)[2]

والنصوص الكثيرة تنطق بهذا المعنى، فعندما دخل عبد الله بن مسعود على النبي ﷺ في مرضه وجده وهو يوعك وعكا شديدا، فقال: إنك لتوعك وعكا شديدا، إن ذاك بأن لك أجرين قال: (أجل ما من مسلم يصيبه أذى إلا حات الله عنه خطاياه كما تحات ورق الشجر)[3]

ولذلك يتخلص المؤمن في مرضه ـ بقدر سعة صبره ورضاه ـ من كل الذنوب التي رانت على قلبه، قال ﷺ: (إنما مثل المريض إذا برأ وصح كالبردة تقع من السماء في صفائها ولونها)[4]

ويخبر ابن عباس قال: شكا نبى من الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ـ إلى ربه فقال: (يا رب، العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك تزوى عنه الدنيا وتعرض له البلاء ويكون الكافر لا يطيعك ويجترىء عليك وعلى معاصيك تزوى عنه البلاء وتبسط له الدنيا فأوحى الله تعالى إليه إن العباد والبلاء لي وكل يسبح بحمدى فيكون المؤمن عليه من الذنوب فأزوى عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقانى فأجز به بحسناته ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له فى الرزق وأزوى عنه البلاء فأجزيه بحسناته فى الدنيا حتى يلقانى فأجزيه بسيئاته)

قلت: ألهذا إذن وردت النصوص بالنهي عن سب المرض، فقد دخل ﷺ على أم السائب، فقال: (ما لك يا أم السائب تزفزفين؟) قالت: (الحمى، لا بارك الله فيها)، فقال: (لا تسبي الحمى، فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد[5]

---

1) البخاري ومسلم.
2) البخاري ومسلم.
3) البخاري ومسلم.
4) الترمذي: 4/411.
5) ثبت علميا أنه عند الإصابة بالحمى تزيد نسبة مادة(الأنترفيرون) لدرجة كبيرة كما ثبت أن هذه المادة التي تفرزها خلايا الدم البيضاء تستطيع القضاء على الفيروسات التي هاجمت الجسم وتكون أكثر قدرة على تكوين الأجسام المضادة الواقية... فضلا عن ذلك فقد ثبت أن مادة (الأنترفيرون) التي تفرز بغزارة أثناء الإصابة بالحمى لا تخلص الجسم من الفيروسات والبكتريا فحسب ولكنها تزيد مقاومة الجسم ضد الأمراض وقدرتها على القضاء على الخلايا السرطانية منذ بدء تكوينها وبالتالي حماية الجسم من

(1)
قال: أجل.. فهو رحمة من رحمات اللـه.. ولا ينبغي أن يسـب عاقل رحمة الله.

قلت: ألهذا ـ أيضا ـ ورد في النصوص كراهية العافية الدائمـة، فقد روي أن رجلا جاءه المـوت في زمـان رسـول اللـه ﷺ، فقـال رجل: (هنيئا لـه مـات ولم يبتـل بمـرض)، فقـال رسـول اللـه ﷺ: (ويحك وما يدريك لو أن الله ابتلاه بمرض يكفر به عنه من سيئاته)

وروي عن الربيع بن عميلة قال: كنا مع عمار بن ياسر، وعنده أعرابي، فذكروا المرض، فقال الأعرابي: مـا مرضـت قـط، فقـال عمار: (لست منا، إن المسلم يبتلى بالبلاء، فيكون كفـارة خطايـاه، فتتحات كمـا تتحـات ورق الشـجر، وإن الكـافر يبتلى فيكـون مثلـه كمثل البعير عقل فلا يدري لم عقل؛ ويطلق، فلا يـدري لم أطلـق)

(2)
قـال: ليس ذلـك على إطلاقـه.. فاللـه أعلم أين يضـع عافيتـه وبلاءه، والمؤمن لا يختار مع الله.. ولكنه إن ابتلي ببلاء شكر.

قلت: أيشكر أم يصبر؟

قال: النعم تشكر.. وقد عرفت أن البلاء نعمة.

قلت: ولكنه ورد بالأمر بالصبر معه.

قال: الصبر هـو الثبـات في وجهـه.. والشـكر هـو النظـر إلى المحاسن التي يختزنها البلاء.. والصبر هو مقام الغافلين.. والشــكر هو مقام العارفين.

قلت: ألهـذا كـان ﷺ يبشـر المرضـى، فقـد عـاد ﷺ رجلا من وعك كان به فقال: (أبشر، فإن الله يقول: هي ناري أسـلطها على عبدي المذنب لتكون حظه من النار)(3)

وعاد ﷺ أم العلاء، وهي مريضـة فقـال: (أبشـري يـا أم العلاء فإن مرض المسلم يذهب الله بـه خطايـاه كمـا تـذهب النـار خبث

ظهور أي خلايا سرطانية يمكن أن تؤدى إلى إصابة الجسم بمـرض السـرطان ولـذا قـال بعض الأطباء إن كثيرا من الأمراض نستبشر فيها بالحمى كما يستبشر المـريض بالعافيـة فتكون الحمى فيها أنفع من شرب الـدواء بكثـير مثـل مـرض الرمـاتيزم المفصـلى الـذي تتصلب فيـه المفاصـل وتصـبح غـير قـادرة على التحـرك ولـذلك من ضـمن طـرق العلاج الطبي في مثل هذه الحالات الحمى الصـناعية أي إيجـاد حالـة حمى في المـريض يحقنـه بمواد معينة ومن هنا ندرك حكمة رسول الله ﷺ في رفض سب الحمى بل والإشـادة بهـا بوصفها تنقى الذنوب كما تنقى النار خبث الحديد كما أشار هذا الحديث الشـريف، انظـر: الإعجاز العلمي في الإسلام والسنة النبوية " لمحمد كامل عبد الصمد.

1) رواه مسلم.
2) ابن عساكر.
3) أحمد والحاكم وابن ماجة.

الذهب والفضة)[1]

قال: أجل.. ليخبرهم أن ما نزل بهم نعمة تستحق الشكر لا الأنين.

قلت: والمعاندون المعارضون.. كيف نبشرهم؟

قال: بما يبشر به العارفون.

قلت: فإن أعرضوا؟

قال: تعرض عنهم.. فقد روي أن رسول الله ﷺ دخل على أعرابي يعوده وهو محموم، فقال: (كفارة وطهور)، فقال الأعرابي: (بل حمى تفور على شيخ كبير تزيره القبور)، فقام رسول الله ﷺ وتركه[2].

قلت: فما سر كون البلاء مطهرا من الذنوب؟

قال: هو ما يحدثه في القلب من ترفع عن الدنيا، وعدم تعلق بها، ونوع من الزهد فيها، فحب الدنيا رأس كل خطيئة.. ألم تسمع ببصيرتك ما يقول الغزالي.. فهو من أطباء هذا المستشفى وكل مستشفى؟

أصخت ببصيرتي، فإذا بي أسمعه، وهو يقول: رأس أسباب النجاة التجافى بالقلب عن دار الغرور، ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها، وأنسه بها حتى تصير كالجنة فى حقه، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته، وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا، ولم يسكن إليها، ولم يأنس بها وصارت سجنا عليه[3]، وكانت نجاته منها غاية اللذة كالخلاص من السجن.

قلت: البلاء نعمة من هذا الوجه يجب الفرح بها.. ولكن الألم مع ذلك موجود.

قال: هو ضرورى، وهو يضاهى فرحك عند الحاجة إلى الحجامة بمن يتولى حجامتك مجانا، أو يسقيك دواء نافعا بشعا مجانا، فإنك تتألم، وتفرح، فتصبر على الألم وتشكره على سبب الفرح، فكل بلاء فى الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذى يؤلم فى الحال وينفع فى المآل.

قلت: هذا مثال رائع.. وهو يجعل المعنى قريبا إلى الخيال كقرب الحس.

قال: وعكس ذلك من دخل دار ملك للنظر فيها، وعلم أنه

---

1) مسلم.
2) البيهقي في شعب الإيمان.
3) وفي هذا يقول ﷺ:(الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) رواه مسلم.

يخرج منها لا محالة، فرأى وجها حسنا لا يخرج معه من الدار..فإن ذلك وبال عليه وبلاء..

قلت: لم.. فقد رأى حسنا.

قال: لأنه يورثه الأنس بمنزل لا يمكنه المقام فيه، ولو كان عليه فى المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه، فأصابه ما يكره حتى نفره عن المقام كان ذلك نعمة عليه.

وهكذا الدنيا، فهي (منزل وقد دخلها الناس من باب الرحم، وهم خارجون عنها من باب اللحد، فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء، وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة، فمن عرف هذا تصور منه أن يشكر على البلايا ومن لم يعرف هذه النعم فى البلاء لم يتصور منه الشكر لأن الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة ومن لا يؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصور منه الشكر على المصيبة)(1)

نعمة المعاينة:

قلت: فما نعمة المعاينة؟

قال: هي نعمة رؤية الله لموقف عبده، ومعاينته لصبره ورضاه.

قلت: الله يرى الكل، ويعاين الكل، فإنه ﴿ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ (آل عمران:5)، فما وجه الاختصاص في هذه النعمة؟

قال: الله يرى الكل.. ولكن لا يشعر برؤيته إلا خواص الخواص.

قلت: من هم؟

قال: الذين رفع الله عن أعينهم الغشاوة، وعن قلوبهم الحجب.

قلت: فما يفيدهم استشعار رؤية الله لهم؟

قال: الأنس الذي يقضي على بلائهم.

قلت: هم يأنسون بالله دائما.. فما علاقة ذلك بالألم والبلاء؟

قال: ألم يبتلهم الله لينظر كيف يعملون؟

قلت: بلى، فقد قال تعالى:﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة:105)

قال: أليس الثبات في وجه البلاء بالأنس بالله عملا من

---

1) إحياء علوم الدين: 4/130.

الأعمال الصالحة؟
قلت: بلى.. بل هو من أعظم الأعمال الصالحة، ولـذلك يـنزل الله البلاء على عبده بحسب درجة إيمانه.
قال: فإذا شعرت بـأن اللـه الـذي ابتلاك ينظـر إليـك ألا تتقن عملك؟
قلت: تقصد إتقان موقفي مع البلاء.
قال: أجل.
قلت: نعم، فشعوري برؤية الله لي لا يزيدني أنسا فقـط، بـل أشعر بشعور لست أدري مدى صحته.
قال: وما تشعر؟
قلت: ممارسو الرياضات عندنا يستقدمون مشجعيهم، فلذلك كلما كثر مشجعوهم كلما زاد ذلك من حماستهم، فشـعوري برؤيـة الله يعطيني نوعا من هذه القوة.
قال: هذا صحيح.. ولو أن الله أعظم من كل المتفرجين..
قلت: أجل، فلله المثل الأعلى.
قال: لقد دلت النصوص هذا المعنى، فالله تعالى يقـول لنـوح عليه السلام وهو يواجه أعظم المصـائب والضـغوط من قومـه حين صـنعه للفلك: وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا (هود:37)
قلت: لا شك أن هذه الكلمة كـان لهـا أثـرا خطـيرا في نفس نوح عليه السلام.
قال: أجل.. وقد قيل مثلهـا لرسـول اللـه ﷺ، فقـد قـال اللـه تعالى له، وهو في مواقـف لا تقـل عن موقـف نـوح عليه السلام: وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا (الطور:48)
قلت: لقد ذكرتني بسيّد الشهداء الحسين بن علي ، فقد قـال بعد أن تفاقم الخطب أمامه في كربلاء، واستشـهد أصـحابه وأهـل بيته: (هون علي ما نَزَلَ بِي أَنهُ بِعَيْنِ اللهِ)
قال: ولهذا اعتبر ﷺ الإحسان الذي هو قمة الأعمال الصالحة، أو أداء الأعمال بأحسن الكيفيات متعلقا بالشعور برؤية اللـه سـواء كان رؤية معاينة أو رؤية مراقبة.
قلت: ولكن هذه النعمة ـ يا معلم ـ مختصة بالمحسنين، وهـذا المستشفى يداوي عموم الناس، فكيف يعطى لهم مثل هذا الدواء الذي قد لا يستسيغونه؟
قـال: أطبـاؤكم يعطـون مرضـاكم أدويـة كثـيرة لا تستسـيغها أجسامهم، ولا تأنس لها، بل هي تثير فيهـا عللا كثـيرة، فهـل منعهم

ذلك من استعمالها؟

قلت: لا.. فشعورهم بخطر الداء الذي يقفون في وجهه يدعوهم لممارسة كل الأساليب.

قال: فكذلك الأولياء يعالجون الخلق بأدوية كثيرة، منها ما يفهمونه، ومنها ما لا يفهمونه، فما استساغوه انتفعوا به، وما لم يستسيغوه أعطاهم نوعا من الشوق لاستساغته.

قلت: فما ينفع الشوق؟

قال: من لم يحترق جوفه بلهيب الأشواق، لم يستسغ تلك الأذواق.

قلت: كيف؟

قال: لا يعرف لذة الماء إلا من أحرق العطش جوفه.

قلت: فهمت.

قال: ما فهمت.

قلت: سر الإغراب والغموض الذي يضع هالة جميلة على كلام الحكماء من أهل الله.

قال: هو يضع تلك الهالة لتثير الأشواق.. فإذا ثارت الأشواق كان الوصول بقدرها.

نعمة الثواب:

قلت: فما نعمة الثواب؟

قال: حينما تزاح الغشاوة التي تكسو العيون في الدنيا، فتفسد بسببها المقاييس يدرك الخلق الكنوز التي كان يخفيها البلاء، فيودون ما أخبر عنه ﷺ بقوله: (يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض)(1)

قلت: هذا حديث عظيم.

قال: فبشر به.

قلت: كيف؟

قال: علقه على أبواب المستشفيات.. واكتبه على كل وصفة مريض.. واذكره لكل مبتلى.

قلت: لا أعرف أن مثل هذا من الأعمال الخيرية التي يؤجر عليها.

قال: هذا من أعمال الرسل وخلفاء الرسل، فهم الذين أرسلوا بالبشارة وللبشارة.. أليس دين الله أعظم بشارة؟.. ألم

1) الترمذي كتاب الزهد رقم (2403) عن جابر وقال هذا حديث غريب.

يرسل المسيح ﷺ لأجل هدف واحد هو البشارة؟

قلت: أجل، بل إن لفظ (الإنجيل) نفسها تعني البشارة.

قال: ألم يأمر النبي ﷺ بكل ما يملأ المبتلى بالبشر والأنس؟

قلت: بلى.

قال: فهذا من ذاك.

قلت: فما الثواب المعد لأهل البلاء غير ما ذكرنا من النعم؟

عدم الحساب:

قال: أول ثواب عدم حسابهم يوم القيامة.

قلت: هذه نعمة عظيمة لا يمكن تصورها، فإن أعظم ما يخافه كل مؤمن هو الحساب.. أن تنشر صحفه، فيعاين جرائمه.. أو يفضح بين الخلائق.. إنه موقف صعب جدا.. فأحدنا لا يطيق الوقوف في محكمة الدنيا ليحاسب، فكيف يطيق الوقوف في محكمة الآخرة؟

قال: ومع ذلك، فقد وردت البشارات لأهل البلاء الناجحين بهذا النوع من الثواب، فقد روي أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ بها لمم فقالت: (يا رسول الله، ادع الله أن يشفيني) قال: (إن شئت دعوت الله أن يشفيك، وإن شئت فاصبري ولا حساب عليك)، قالت: (بل أصبر ولا حساب علي)(1)

وفي حديث آخر، قال ﷺ: (يؤتى بالشهيد يوم القيامة، فينصب للحساب، ويؤتى بالمتصدق، فينصب للحساب، ثم يؤتى بأهل البلاء، فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان، ويصب عليهم الأجر صبا، حتى إن أهل العافية ليتمنون في الموقف أن أجسادهم قرضت بالمقاريض، من حسن ثواب الله لهم)(2)

قلت: هذه بشارة عظيمة ترفع المبتلى إلى درجات تفوق درجات الشهداء والمتصدقين.

قال: ليس ذلك على الله بعزيز، فإن من المبتلين من يموت في اليوم مائة مرة، بينما الشهيد لا يموت إلا مرة واحدة(3).

قلت: أهذا احتقار للشهادة؟

قال: لولا عظمة الشهادة ما ذكرها رسول الله ﷺ في هذا الموقف.

قلت: فما سر هذا الجزاء؟

---

1) أحمد وابن حبان والحاكم.

2) الطبراني في الكبير.

3) بل إن البلاء العام الذي يصاحبه الرضا شهادة في سبيل الله، قال ﷺ: (الطاعون شهادة لكل مسلم) البخاري ومسلم.

قـال: ألم نعلم أن البلاء الـذي يقـع على المـؤمن المحتسـب يطهره من ذنوبه.

قلت: عرفنا ذلك عند معاينة نعمة التطهير.

قـال: فلـذلك إن عظم البلاء، وصـبر عليـه المبتلى، لقي اللـه وليس عليه ذنب يحاسبه عليه.

قلت: لقـد روي في هـذا عن أنس قـال دخلت مـع النـبي ﷺ نعود زيد بن أرقم وهو يشتكي عينيـه فقـال لـه: (يـا زيـد، لـو كـان بصرك لما به كيف كنت تصنع؟)، قال: (إذا أصبر وأحتسـب)، قـال: (إن كان بصرك لما به ثم صبرت واحتسبت لتلقين اللـه عـز وجـل وليس لك ذنب)(1)

قال: ولكن هذه البشارة العظيمة لها فئة محدودة.

قلت: وكيـف عـرفت ذلـك.. هـل اطلعت على قـوائم أهـل الآخرة فترى من يعفى منهم من الحساب؟

قال: أنا أضعف من أطلع.. ولكن الله أطلعنا.

قلت: أين؟

قـال: ألم تقـرأ قـول رسـول اللـه ﷺ: (عُرِضَـت عليَّ الأمم، فـرأيت النـبي ومعـه الرهيط(2)، والنـبي ومعـه الرجـل والـرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رُفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فـإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخـر، فـإذا سـواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب)، فقال بعضـهم: فلعلهم الـذين صـحبوا رسـول اللـه ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلِـدوا في الإسـلام فلم يُشـركوا باللـه شيئاً-وذكروا أشياء- فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: (مـا الـذي تخوضــون فيــه؟) فــأخبروه فقــال: (هم الــذين لا يســترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون)(3)

قلت: إذن هم سبعون ألفا.. هو عدد لا بأس به.

قـال: وقـد ذكـرهم رسـول اللـه ﷺ بأوصـافهم ليتنـافس في الوصول إلى درجاتهم.

قلت: أجــل، فهم الــذين لا يطلبــون من أحــد أن يــرقيهم أو يكويهم، فهم لا يسألون أحـداً إلا اللـه، حـتى في سـاعات الضـعف والمرض.

---

1) أبو يعلى، وابن عساكر.
2) تصغير رهط وهو ما دون العشرة أنفس.
3) البخاري ومسلم.

الجنة:

قال: وأما الثواب الثاني الذي وردت بـه النصـوص، فهـو دار السعادة الأبدية.

قلت: الجنة !؟

قال: لقد أخبر ﷺ أن البلاء الذي يصاحبه الرضا والصـبر يقـود صاحبه إلى الجنة، ومما يروى في ذلك قوله ﷺ: (إن الله قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة، يريد عينيه)(1)

قلت: هـذا ثـواب عظيم.. فالجنـة هي الـدار الـتي تهفـو لهـا القلوب.

قال: ومن رحمة الله بعباده أن جعل لها هـذا الجـزاء الـذي لا يستدعي غير الثبات.

قلت: ولكن يبدو أن هذا الجـزاء العظيم لا يكـون إلا في البلاء العظيم المستمر، ولأهل العزيمة في الصبر.

قال: هذا صحيح، وهو ما تـوحي بـه النصـوص، فقـد روي عن عطاء قال، قـال لي ابن عبـاس: ألا أريـك امـرأة مِنْ أهـل الجنـة؟ فقلت: بلى. قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي ﷺ فقـالت: إني أصرع وإني أتكشف فادع اللّه تعالى لي، قـال: (إن شـئت صـبرت ولـك الجنـة، وإن شـئت دعـوت اللّه تعـالى أن يعافيـك)، فقـالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف فادع اللّه أن لا أتكشف، فدعا لها)(2)

وعن أبي سنان قـال: دفنت ابنـاً لي فـإني لفي القـبر إذ أخـذ بيدي أبو طلحة (يعني الخولاني) فـأخرجني وقـال لي: ألا أبشّـرك؟ قلت: بلى، قال: قال رسول اللّـه ﷺ: (قـال اللّـه: يـا ملـك المـوت قبضت ولد عبدي؟ قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال: نعم، قال: فما قـال؟ قـال: حمـدك واسـترجع، قـال: ابنـوا لـه بيتـاً في الجنـة وسموه بيت الحمد)(3)

رفع الدرجات:

قلت: فما الثواب الثالث؟

قال: رفع الدرجات.

قلت: وما رفع الدرجات؟

قـال: ترقيـة العبـد من محـل في الجنـة إلى محـل أعلى.. ألا تعرفون الترقيات؟

قلت: بلى.. نعرفها.. ونتنافس فيها.

---

1) رواه البخاري والترمذي.
2) البخاري ومسلم.
3) أحمد والترمذي.

قال: فقل لقومك: (تنافسوا في درجات الجنة.. ودعـوا عنكم الصراع على تلك الدرجات التي ينشغل بها الأطفال)

قلت: هم لا يسمعون مني.

قال: فأسـمعهم قولـه ﷺ: (إن العبـد إذا سـبقت لـه من اللـه منزلـة لم يبلغهـا بعملـه ابتلاه اللـه في جسـده أو في مالـه أو في ولده، ثم صبره على ذلك، حتى يبلغه المنزلة الـتي سـبقت لـه من الله تعالى)(1)، وقوله ﷺ: (ما من مسلم يصاب بشيء في جسـده فيصبر إلا رفعه الله به درجة، وحط عنه به خطيئة)(2)

قلت: يبدو أن هذا الجزاء العظيم يرتبط كذلك بالبلاء العظيم.

قال: أجل، فقد أخبر ﷺ أن الرجل يكون له عند الله المنزلـة، فما يبلغها بعمل فما يزال يبتليه بمـا يكـره حـتى يبلغـه إياها، وبـأن عظم الجزاء مع عظم البلاء(3).

قلت: ألهذا أخبر ﷺ أن أكثر الناس بلاء الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل، فالأمثل.

قال: أجـل، فقـد قيـل لرسـول اللـه ﷺ: يـا رسـول اللـه، أي الناس أشد بلاء؟ قال: (الانبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه وإن كـان في دينـه رقـة ابتلاه الله على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشـي على الأرض وما عليه خطيئة)(4)

قلت: فالطامحون للدرجات العليـا معرضـون للبلاء إذن أكـثر من غيرهم.

قال: يروى في ذلك أن رجلا قال لموسـى: يـا موسـى، سـل الله لي حاجة يقضيها لي هو أعلم بها؛ ففعل موسى؛ فلمـا نـزل إذ هو بالرجل قد مزق السبع لحمه وقتله؛ فقال موسى: ما بال هذا يا رب؟ فقال الله تبارك وتعـالى لـه: (يـا موسـى انـه سـألني درجـة علمت أنه لم يبلغها بعمله فأصبته بما تـرى لأجعلهـا وسـيلة لـه في نيل تلك الدرجة)، فكان أبو سليمان الداراني إذا ذكر هـذا الحـديث يقول: سبحان من كان قادرا على أن ينيلـه تلـك الدرجـة بلا بلـوى، ولكنه يفعل ما يشاء.

صلاة الله:

قلت: فما الثواب الرابع؟

---

1) رواه أحمد وأبو داود وأبو يعلى والطبراني في الكبير والأوسط.
2) ابن جرير.
3) الترمذي وقال حديث حسن غريب.
4) أحمد والبخاري وابن ماجة والترمذي وابن حبان والحاكم.

قال: هو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة:155 ـ 157)

قلت: فما في هذا من الثواب؟

قال: لقد أخبر تعالى عن صلاته ورحمته بهؤلاء الصابرين، وهل هناك جزاء أعظم من صلاة الله على عبده.

قلت: فهل صلاة الله على عبده جزاء؟

قال: جزاء فوق الأجزية.. بل لا تعدلها أي جائزة أخرى.

قلت: فما تعني؟

قال: هي تقريب الله لعبده، والقرب لا يساويه جزاء ولا يطاوله ثواب، فهو إخراج من الظلمات إلى النور، ومن الحجاب إلى المشاهدة، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ (الأحزاب:43)؟

قلت: بلى، فما يعني هذا؟

قال: البلاء نافذة عظيمة من نوافذ التعرف على الله والتقرب منه، والتعرف على الله هو النور الذي يرفع كل الظلمات، والحق الذي يقتل كل باطل.

قلت: لقد ذكرتني بحكمة لابن عطاء الله يقول فيها: (إذا فتحَ لكَ وِجْهةً من التَّعرُّفِ فلا تبالِ معها أن قلَّ عملُكَ؛ فإنه ما فَتَحَها لك إلا وهو يريد أن يتعرَّفَ إليكَ.. ألم تعلم أن التَّعَرُّفَ هو مُورِدُهُ عليك، والأعمال أنت مهديها إليه، وأين ما تُهديه إليه مما هو مُورِدُهُ عليكَ)

استمرار الثواب:

قلت: يا معلم.. كل ما ذكرته، وما وردت به النصوص ثواب عظيم، ولكنه مع ذلك قد يحال بين المريض وبين كثير من أعمال البر، وتلك خسارة عظيمة.

قال: لا.. فالله الشكور الحليم لا يضيع عمل عبده إن قعد به الداء عنه، ألم تسمع قوله ﷺ: (إن العبد إذا مرض أوحى الله تعالى إلى ملائكته: أنا قيدت عبدي بقيد من قيودي، فإن أقبضه اغفر له، وإن أعافه فحينئذ يقعد لا ذنب له)(1).

وفي حديث آخر قال ﷺ: (ما من مسلم يصاب في جسده إلا أمر الله تعالى الحفظة: اكتبوا لعبدي في كل يوم وليلة من

---

1) الحاكم عن أبي أمامة.

الخير ما كان يعمل، ما دام محبوسا في وثاقي)[1]

وفي الأثر الإلهي: (قال الله تعالى: إذا ابتليت عبدا من عبادي مؤمنا فحمدني وصبر على ما ابتليته، فإنه يقوم من مضجعه ذلك كيوم ولدته أمه من الخطايا، ويقول الرب للحفظة: إني أنا قيدت عبدي هذا وابتليته فأجروا له ما كنتم تجرون له قبل ذلك من الأجر وهو صحيح)[2]

بل إن رسول الله ﷺ أخبر بأن مجرد الاسترجاع عند تذكر المصيبة له ثوابه عند الله، قال ﷺ: (ما من مسلم ولا مسلمة يُصاب بمصيبة فيذكرها، وإن طال عهدها فيحدث لذلك استرجاعاً إلا جدّد اللّه له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب)[3]

---

1) الحاكم عن ابن عمرو.
2) أحمد والطبراني في الكبير وأبو نعيم عن شداد بن أوس.
3) أحمد وابن ماجة.

ثانيا ـ حصن الأمل

دخلنا الحصن الثاني من حصون الروح.. وقد كانت تفوح منه روائح عطرة تنشرح لها الصدور.. وتشع من جنباته أنوار تسر لها العين، ويبتهج لها القلب.

وقد شد انتباهي في هذا الحصن وجود مرضى فيه، وهو ما لم أره في القسم السابق، ولكنهم مرضى، لا كالمرضى.. يجلسون مسترخين ـ كما نسترخي أمام شواطئ البحار ـ ولكن البحار التي كانوا ينظرون إليها، والتي كان نسيمها يهب عليهم لم تكن كالبحار.. كان كل شيء ليس ككل شيء.

قلت: ما هذا القسم يا معلم؟

قال: هذا حصن الأمل.

قلت: فهل ينتظر هؤلاء المرضى دورهم في العلاج؟.. إني لا أرى الضيق في وجوههم كما أراه في عيون المرضى الذين ينتظرون في قاعات الانتظار عندنا.

قال: هؤلاء يتنعمون بانتظارهم.

قلت: يتنعمون!؟.. لم أعلم إلا أن الانتظار ضيق للصدر، وقتل للوقت، فكيف يكون نعمة؟

قال: انتظاركم ضيق للصدر وقتل للوقت، أما انتظار أهل السلام فهو عمل وعبادة وقرب.. وهو لذلك روح من روح الجنة، وعطر من عطرها.

بينما أنا كذلك سمعت صوتا جميلا مادت لجماله أجساد المرضى المسترخين، وكان ينشد:

إذا ضاق أمر فانتظر فرجا ... فأصعب الأمرأدناه من

فلما سكت هب صوت آخر يردد بلحن عذب:

كن عن أمورك معرضا ... وكل الأمور إلى القضا

فلربما اتسع المضيق: ... وربما ضاق الفضا

ولرب أمر متعب ... لك في عواقبه رضا

الله يفعل ما يشاء ... فلا تكن متعرضا

الله عودك الجميل ... فقس على ما قد

فلما سكت هب صوت ثالث يردد بلحن عذب:

رب أمر ضـاقت النفس جاءهـا من قِبَـل اللـه

لاَ تكن في وجـــــه روح ربما قـد فـرجت تلـك

بينمـا المـرء كـئيب دنف جاءه الله بروح وفـرج

قلت: أهذا مجلس إنشاد.. أم مجلس علاج؟

قال: في هذا القسم يعالج المرضى بكـل المـراهم.. كـل مـا يزيد في أملهم في الله، وفي تحقيق مرادهم يذكر هنا.

قلت: ولكن هـؤلاء بجلوسـهم هـذا واسـترخائهم وقعـودهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصـل، ويضـيعون مـا أمـر اللـه بـه أن يؤدى، ألم يعرفوا أن وظيفة الإنسان في الحياة هي عبادة الله؟

قال: بلى.. وهم يعبدون الله في استرخائهم، كما يعبدون الله بقيامهم.

قلت: لم أعلم أن هناك عبادة تسمى الاسترخاء.

قال: ألم تقرأ قوله تعالى: الَّذِينَ يَـذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامـاً وَقُعُـوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ (آل عمران:191)

قلت: بلى.. فالله يثني على هؤلاء خير ثناء.

قـال: فـإن العابـد للـه حقـا من لا يغفـل عن عبادتـه في كـل محل.. فالله لا يعبد فقط بالقيام.

قلت: نعم.. هو يعبد بالركوع والسجود.

قــال: وبالاســترخاء والقعــود والانتظــار كمــا ينتظــر هــؤلاء المرضى.. ألم تسمع قولـه ﷺ: (سـلوا اللـه من فضـله فـإن اللـه يحب أن يسأل، وأفضل العبـادة انتظـار الفـرج)(1)، فقـد اعتـبر ﷺ انتظـار الفـرج عبـادة، ومـا الانتظـار إلا جلـوس لا يختلـف عن هـذا الجلوس.

قلت: ولكن ما سـر اعتبـار هـذا الانتظـار عبـادة.. بـل أفضـل عبادة؟

قــال: لأن القصــد من العبــادة هــو خلاص القلب من كــل الشوائب، وقطعه لكل العلائق.. أيمكن للشـخص أن يصـلي، وهـو يحادث صاحبه؟

قلت: لا.. إن الصلاة يبطلها هذا الشـغل وغـيره.. فهي أفعـال تتنافى مع روح الصلاة.

---

1) الترمذي.

قال: فكذلك العبد إذا خلص قلبه لله منتظرا فرجه.. فهـو في ذلك الحال لا ينظر إلا لله.. ولا ينتظر إلا من الله.

قلت: عرفت كونه عبادة.. ولكن كيف يكون أفضل العبادة؟

قال: لأنـك في الصـلاة قـد تغفـل عن صـلاتك.. قـد لا تحـدث صاحبك، ولكنـك تحـادث نفسـك وتمازحهـا.. ولكن القلب المتعلـق بالله قلب عارف.. لا يغفل عن الله لحظـة.. وأنت في الصـلاة قـد تشوب صلاتك بنـوازع الشـرك.. بينمـا في هـذا الانتظـار لا تحـدثك نفسك بأي رياء أو مسمعة.. وأنت في الصلاة..

قلت: فهمت هذا يا معلم.. وقد عرفت سر تفضـل اللـه على عباده الصالحين بقطع العلائق عنهم.

قال: لقد ورد في بعض الكتب الإلهية: (لأقطعن أمل من أمل سواي وألبسه ثوب المذلة بين النـاس، أتقـرع بـالفقر بـاب غـيري وبابي خير لك؟)

قلت: هذا صحيح، فإن كل أمل في غير الله يأس، وكل رجـاء في غيره طمع، وكل استعانة بغيره خذلان.

قال: ولهذا لم تجد خبرتكم الطبية العظيمة، ولا مستشفياتكم الضخمة، ولا جيوشـكم الهائلـة من الأطبـاء في دحـر جيش اليـأس القاتل الذي يدفع أعدادا هائلة منكم إلى الانتحار.

قلت: هذا صحيح.. ولكن مـا عسـى الأطبـاء أن يفعلـوا.. لقـد استعملوا كل قواهم العقلية.

قال: فلم لا يبعثونهم إلى هذا المستشفى؟

ضحكت، وقلت: ومن يسـمع بهـذا المستشـفى.. إنـني أقـف فيه.. ولكن لا أعلم عنه شيئا.. ففي أي مكان هو؟.. لعلي أفلح في إقناعهم بالإرشاد إليه.

قال: هو في كل مكان..

قلت: ولكنا لا نراه..

قال: لأنكم لا تبصرون..

قلت: نحن نبصـر.. بـل نزيـد في قـوة أبصـارنا كـل يـوم بمـا نخترعه من ألوان العدسات المكـبرة.. فنحن نـرى المجـرات كمـا نرى دقائق الميكروبات.

قال: أنتم تبصرون بأبصاركم، ولا تبصرون ببصائركم.. فلـذلك تعشى عيونكم عن رؤية مثل هذه الأدوية.

بينما أنا كذلك إذ سمعت صوتا عذبا تميد له قلـوب الجالسـين يردد قولـه ﷺ: (احفـظ اللـه يحفظـك، احفـظ اللـه تجـده أمامـك،

تعرف إلى الله في الرخاء، يعرفك في الشدة، فإذا سألت، فسل الله، وإذا استعنت، فاستعن بالله، جف القلم بما كان وما هو كائن، فلو جهد العباد أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عز وجل لك، لم يقدروا عليه، فإن استطعت أن تعمل لله بالصدق واليقين، فافعل، فإن لم تستطع، فإن في الصبر على ما تكره، خيراً كثيراً، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً)[1]

قلت: الله !.. لكأني أسمع هذا الحديث لأول مرة.. ما أحسن قراءة هذا الصوت لهذا الحديث.

قال: هذا صوت القلب..

قلت: أليس هذا صوتا للسان؟

قال: هو صوت اللسان النابع من القلب.

قلت: لقد رأيت هؤلاء المسترخين يميدون كما تميد السنابل تحركها الأعاصير.

قال: أرواحهم تبع لأجسادهم.. ومن يسمع مثل هذا ولا يميد!؟.. أتعلم لمن قال رسول الله ﷺ هذا الحديث؟

قلت: بلى.. لقد قاله لابن عباس .

قال: فأي شيخ هو؟

قلت ضاحكا: شيخ.. لا.. لقد كان غلاما صغيرا.

قال: أرأيت كيف يربي ﷺ الأمل في الله في قلوب الأطفال.. سمعت أنكم تلقحون صبيانكم في صغرهم لتحفظوهم من شرور الأوبئة.

قلت: بلى، فنحن نلقحهم ضد السِلِّ والتيتانس، وشلل الأطفال، والجدري، والشاهوق، والحميراء، والخناق.. وقد نلقحهم في حال الضرورة ضد التهاب السحايا، والكوليرا، والتيفوئيد، والحمَّى الصفراء، والكَلَب..

قال: فلا تنسوا أن تضيفوا هذا اللقاح.

قلت: أي لقاح؟

قال: لقاح الأمل في الله.. وفي حفظ الله.. وفي فرج الله.. فهذا اللقاح هو الذي يقي أرواحهم من فيروسات اليأس القاتلة.

قلت: فهمت كل هذا ـ يا معلم ـ ولكني لا أعرف أن مثل هذا يمكن اعتباره علاجا؟

قال: لم؟

---

1) الحديث بهذا اللفظ رواه الطبراني في الكبير وابن حبان.

قلت: لأن العلاج هو الذي يقضي على المرض، أما هذا، فلا يفعل شيئا.. بل المرض هو المرض.

قال: فهل جميع أدويتكم تقضي على الأمراض؟

قلت: منها ما يقضي، ومنها ما يخدر.

قال: أفلا تلجأون إلى هذا النوع من الأدوية المخدرة في كثير من الأمراض؟

قلت: بلى.. نلجأ إليها.. بل لا تكاد تخلو وصفة منها.

قال: فاعتبروا هذا من ذاك.

قلت: ولكني أعتبر هذا نوعا من الكذب على النفس.. وكأني أقول لها: لقد شفيت، مع أن الطعنات التي يواجهها بها المرض لا تزال تنخر قواها.

قال: لا.. ليس هذا من الكذب.. بل هو من سياسة النفس.

قلت: ما معنى هذا؟

قال: ألم تسمع قوله ﷺ: (إذا دخلتم على المريض فنفسوا له في الأجل، فإن ذلك لا يرد شيئا، وهو يطيب بنفس المريض)(1)

قلت: بلى..

قال: فقد شرع ﷺ في عيادة المريض أن ننفس عنه، ونبسط له جناح الأمل، فالأمل وحده سعادة، وما أضيق العيش لولا فسحة الأمل(2).

قلت: ولكن الجسد ـ مع ذلك ـ يبقى عليلا، فهو كالتبن الذي يخفي النار التي تلتهمه.

قال: والأمل هو الماء الذي يطفئ تلك النار، فلذلك قد يكون فيه من القوة بحيث يستطيع القضاء على المرض..

قلت: إذن دور هو القسم من أقسام المستشفى هو البحث عن كل ما يشرح صدر المريض من الأعشاب والأغذية.

قال: لا.. ليس هذا فقط.. وهذا ميدان أطباء هذا القسم من المختصين.. ولكن هناك شيء آخر، وهو أهم من تلك الأدوية.

قلت: أهم من تلك الأدوية!؟

قال: أجل.. فتلك الأدوية قد يفلح مفعولها، وقد لا يفلح.. بينما

---

1) الترمذي وابن ماجة.

2) ويدل لهذا قوله تعالى ـ وهو يبين قيمة الأمل وثمرته النفسية ـ:﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (آل عمران:126)، أي وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالهم إلا بشارة لكم وتطييباً لقلوبكم وتطميناً، وإلا فإنما النصر من عند الله الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم. فمع أن النصر من عند الله، إلا أن إخبار المؤمنين بمدد الله من الملائكة كان له تأثيره الجميلة في نفوس العصبة المؤمنة.

هذه الأدوية التي سنزور أقسامها لا شك في جدواها.

قلت: فما هو منبع هذه الأدوية؟

قال: حسن الظن بالله.

قلت: لم كان حسن الظن منبع الأمل؟

قال: لأنه يجعل القلب متوجها لخير الله منتظرا فضله، والله عند ظن عبده، وقد قال ﷺ في الأثر الإلهي: (يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني)(1)

***

سمعت أصواتا جميلة تترنم بلحن، لست أدري هل كان من السماء أم من الأرض، تقول:

أحسن الظن برب عودك حسنا أمس وسوى

إن ربا كان يكفيك الذي كانَ بالأمس سيكفيك

قلت: الله ! ما هذا لصوت الجميلُ.. ومن أين يصدرُ.. لا أرى مذياعا هنا.. ولا آلة تسجيل.

قال: أصوات البصائر لا تحتاج إلى الآلات.

قلت: فمن لحن هذا اللحن؟

قال: ألحان القلوب لا تحتاج إلى ملحنين، فهي عذبة بذاتها.

قلت: فلم كان حسن الظن بالله منبع انتظار الفرج وأساسه؟

قال: لأن الشعور بقرب الله ورحمته، والتفكر في فضله ورأفته، يجر إلى إحسان الظن به، وإحسان الظن به، سبيل للاستعانة به.. فلا يمكن أن تستعين بمن تشك في فضله أو قدرته.

بينما أنا كذلك إذ رأيت شخصا يربت على كتفي، لعله أول شخص ينتبه لي في هذا المستشفى، فالكل كان غارقا في توحده، قال لي: (استعمل في كل بلية تطرقك حسن الظن بالله عز وجل، في كشفها، فإن ذلك أقرب بك إلى الفرج)، ثم مضى.. لا يهتم بردي.. ولا ينتظر سؤالي.

بعدها سمعت صوتا جميلا.. لا يقل عن الصوت السابق جمالا يردد:

يا صاحب الهم إن الهم منفرج أبشر بخير فإن الفارج اللهُ

---

1) البخاري ومسلم، وتتمته:(فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة)

إذا بليت فثق بالله وارض به إن الذي يكشف البلوى هو اللهُ
اليأس يقطع أحيانا بصاحبه لا تيأسن فإن الفارج اللهُ
الله يحدث بعد العسر ميسرة لا تجزعنّ فإن الكافي اللهُ
والله ما لك غير الله من أحد فحسبك الله في كلّ لك اللهُ

قلت: الله.. ما أجمل هذه القصيدة.. كثيرا ما كنا نترنم بها.. ولكني أسمعها بلحن لم أسمعه من قبل..

قال: هذه ألحان القلوب كما قلت لك.

قلت: لقد اكتفى الشاعر بذكر أوصاف الله ليغرس الأمل في القلوب.

قال: حسن الظن بالله يستدعي التعرف على الله، فلا يمكن أن تحسن الظن بمن لا تعرفه.

قلت: هذا صحيح، فالمريض المتألم لا يرتاح إلا إذا وصف له الطبيب الخبير النطاسي، والسائل المحتاج لا يطمع إلا إذا أخبر عن الغني الكريم.

قال: وهكذا، فإن المتألم لا يشعر بالأمل فيما عند الله إلا بمعرفته.

قلت: ولكن معرفة الله بحر لا ساحل له.

قال: ولهذا سنكتفي ـ هنا ـ بالاغتراف من بعض أسماء الله الحسنى التي ورد التنصيص عليها، والتي تدل على قدرة الله التي لا يعجزها شيء، وعلى فضله العظيم الذي لا يحده شيء.

قلت: تعني أن حسن الظن يعتمد على معرفة القدرة والفضل.

قال: أجل.. فقد يكون العاجز كريما.. فيقف عجزه حائلا بينه وبين كرمه.. وقد يكون البخيل مالكا القدرة على التكرم عليك، ولكن بخله يحول بينه وبين ذلك.

قلت: ولهذ كان حسن الظن لا يكتمل إلا فيمن له القدرة المطلقة، والفضل العظيم.

قال: وليس ذلك إلا الله.

قلت: فكيف أتحقق بهذا؟

قال: بترتيل أسماء قدرته وفضله.

قلت: فهل لهذه الأسماء أقسام في هذا المستشفى؟
قال: أجل.. هلم بنا إليها.

القدرة المطلقة

دخلنا القسم الأول من أقسام حسن الظن باللـه، وقـد كتب على بابه ـ بحروف تحمل قوة عظيمـة، ممزوجـة بلطـف عظيم ـ: ﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (آل عمران:40)
قلت للمعلم: لا شك أن هذا هو قسم القدرة المطلقة.
قال: أجـل، وهـو من الأقسـام الهامـة الـتي يحتـاج المرضـى اليائسون من المرور عليها.
قلت: لم؟.. وأي داء يعالجون؟
قال: أول ما ينفخه الشيطان من بذور اليأس في نفسـك هـو إخبارك باستحالة إصلاح ما حـل بـك، فلـذلك كـان علاج هـذا الـداء بقتل هذه البذور في مهدها قبل أن تنبت.
قلت: وما تنبت؟
قال: شجرة اليأس القاتل.
قلت: وكيف تقطع هذه الشجرة إن نبتت؟
قال: بدلالاتها على القادر الذي لا يستحيل معه شيء.
قلت: أالله؟
قال: وهل هنـاك قـادر غـيره.. فاعتقـاد المـؤمن بقـدرة اللـه المطلقة، والتي لا يقف المستحيل أمامهـا تجعلـه يشـعر باسـتناده إلى ركن عظيم، وهذا الشعور هو الذي يولد فيـه الأمـل من جهـة، ويحضـه على التوجـه إلى اللـه من جهـة أخـرى، وفي كلا الأمـرين يبتسم أنينه، وتنفرج أسارير قلبه.

***

بينمـا كنت أسـتمع للمعلم رأيت رجلا يمـر على المرضـى، ويقول لهم: (اذكروا زكريا.. اذكروا زكريا)
قلت: أرغب هذا عن دين محمـد ﷺ إلى دين زكريـا عليه السلام.. مـا باله لا يدعوهم إلى ذكر الله.. ويدعوهم إلى ذكر زكريا؟
قال: ذكر زكريا هو ذكر لمحمد.. وذكرهم جميعا هو ذكر للـه.. فلا يحجب أهل الله عن الله.. الصراع هو الذي تكون فيه الحجب.
قلت: أستغفر الله.. لكن لماذا خص زكريا عليه السلام؟
قال: هـو ينبههم إلى التـدبر في قصـة زكريـا عليه السلام عنـدما رأى مريم ـ عليها السلام ـ وعنـدها من رزق اللـه مـا احتـار في سـببه،

فقال لها: ﴿ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَت هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَـرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران:37)

ففي ذلك الحين امنزج الشعوران لدى زكريا عليه السلام: الشعور بقدرة الله المطلقة التي لا يقف في وجهها الزمن ولا المستحيل، والشعور بفضل الله العظيم، فهو يرزق من يشاء بغير حساب.

وعندما امتزج الشعوران توجه لله طالبا ما كان يتصوره مستحيلا يستحي أن يسأل الله تحقيقه، قال تعالى مؤرخا لتلك اللحظة التي كانت فتحا عظيما على زكريا عليه السلام: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (آل عمران:38)

قلت: حينها جاءته الملائكة ــ عليهم والسلام ــ بالبشارة، وبتحقيق الأمل الذي كان حبيس القلب، واستحيا اللسان من إبرازه، قال تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران:39)

قال: وحينها ـ كذلك ـ انحلت عقدة لسان زكريا عليه السلام متعجبا من هذا، لا منكرا له، فسأل الله عن كيفية ذلك كما سأله الخليل عليه السلام من قبل عن كيفية إحياء الموتى، فرده الله إلى مشيئته المطلقة، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ (آل عمران:40)

قلت: وحينها أجابه الملك: ﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (آل عمران:40)

قال: أعرفت الآن لم كتبت هذه الآية في مدخل هذا القسم؟

قلت: أجل..

قال: ولهذا يملأ القرآن الكريم نفوسنا وضمائرنا بقدرة الله المطلقة، لنتوجه بكل كياننا إليه، فلا نعتقد أن هناك مستحيلا أمام الله، وأمام قدرة الله، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾ (فاطر: 44)

***

مر رجل آخر على المرضى، وهو يقول لهم: (اذكروا السموات والأرض.. اذكروا العرش والكرسي)

قلت: لم يذكرهم بهذا؟

قال: لينبههم إلى قدرة الله المطلقة.

قلت: يا معلم، لم نرى القرآن الكريم يمتلئ بذكر السموات

والأرض في مواضع الحديث عن القدرة؟

قال: لأن أكبر ما ترونه هو السموات والأرض، وهما ماهما.

قلت: يـا معلم.. نحن نـرى الأرض، ولكنـا لا نـرى إلا جـزءا بسيطا من السماء.

قال: نعم.. أنتم لا ترون إلا جـزءا بسـيطا من السـماء الـدنيا، وهي لا تساوي شيئا أمام ملك الله الواسع.

قلت: لقد ورد في النصـوص ذكـر الكرسـي، وهـو خلـق غـير السموات والأرض، بل أخبر تعـالى أنـه أوسـع منهمـا، قـال تعـالى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ (البقرة:255)

قال: ومع ذلك، فإنه لا يساوي شيئا أمام العرش(1)، فعن أبي ذر الغفاري أنه سأل النبي ﷺ عن الكرسي، فقال رسول اللّـه ﷺ: (والذي نفسـي بيـده مـا السـموات السـبع والأرضـون السـبع عنـد الكرسـي إلا كحلقـة ملقـاة بـأرض فلاة، وإن فضـل العـرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة)(2)

قلت: ولكن الله مع ذلك يخاطب عباده بما تعيه عقولهم.

قال: ليقرب لهم الحقيقة الـتي لا يمكن تقريبهـا.. لأن تقريبها يؤدي إلى التشبيه، والله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّـمِيعُ الْبَصِـيرُ﴾ (الشورى:11)

قلت: ولهذا يضـرب اللـه تعـالى المثـل على قدرتـه بإمسـاك السموات والأرض وحفظهما، تقريبـا لعظمـة القـدرة من القلـوب، وإلا فإن قدرة الله لا نهاية لهـا، ولا حـدود تحـدها، ألم تسـمع قولـه تعـالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِـكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَـزُولا وَلَئِنْ زَالَتَـا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ (فاطر: 41)

قلت: لقد أخبر تعـالى أنـه لا يـؤوده ولا يثقلـه حفظهمـا، قـال تعالى:﴿ وَسِعَ كُرْسِـيُّهُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَـؤُودُهُ حِفْظُهُمَـا وَهُـوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة:255)

وعندما افترى الغـافلون من اليهـود مـا افـتروا على اللـه من ركونه إلى الراحة بعد خلـق السـموات والأرض(3) رد عليهم قـائلا: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِـتَّةِ أَيَّامٍ وَمَـا مَسَّـنَا

---

1) النصوص الكثيرة تدل على أن العرش مخلوق يدار الكون منه بأمر الله تعـالى ، فهو أشبه بـ (سنترال) الكون، وليس كمـا يتصورالمشـبهون أنّـه مكـان يجلس عليـه اللـه تعالى !

2) ابن حبان، وأبو نعيم في الحلية، وابن عساكر.

3) ذكر المفسرون في سبب نزول الآيـة أنّ اليهـود كـانوا يتصـوّرون أنّ اللـه خلـق السماوات والأرض في سـتّة أيّـام (سـتّة أيّـام من أيّـام الأسـبوع)! ثمّ اسـتراح في اليـوم السابع (السبت) فوضع رجلا على رجل أخرى.

مِنْ لُغُوبٍ (قّ:38)

وعنـدما تعجب الغـافلون من إمكانيـة إحيـاء المـوتى بعـد أن يصبحوا رمما بالية، رد عليهم الله تعـالى بقولـه تعـالى: وَهُـوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (الروم:27)

قال: سبب ذلـك أن هـؤاء المتعجـبين قـارنوا قـدرتهم بقـدرة الله، وعلمهم بعلم الله، ونسوا أن ينظروا إلى أنفسهم ليروا الآيات العظيمة التي ينطوي عليها وجودهم، فلـذلك نـرى القـرآن الكـريم ينبه كثيرا إليها، قال تعالى: وَضَرَبَ لَنَـا مَثَلاً وَنَسِـيَ خَلْقَـهُ قَـالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (يّـس:78)

ثم أمـر رسـوله ﷺ بـالرد عليهم بإعـادة النظـر إلى منشـئها الأول، فقال تعالى: قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْـقٍ عَلِيمٌ (يّـس:79)

أو بتقليب أطـرافهم في السـماء والأرض، قـال تعـالى: أَوَلَمْ يَـرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (الاحقاف:33)

والقـرآن الكـريم لا يسـوق هـذه التنبيهـات لهـؤلاء الغـافلين وحدهم من اليهود والمنكرين للبعث، بـل يسـوقها لكـل ضـمير قـد توسوس له خواطر السوء أن هناك شيئا ما من شـئون الحيـاة قـد يعجز الله، أو قد يستحيل على الله.

ولذلك يخبر تعالى أن الخلق ما قدروه حق قـدره حين نسـبوا العجز له في أي محال من المحال، قال تعالى: مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَـقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (الحج:74)، وقال تعالى:وَمَا قَـدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ (الأنعام:91)

فلذلك يذكرهم بقدرته التي لا تحد، قـال تعـالى: وَمَـا قَـدَرُوا اللَّهَ حَـقَّ قَـدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعـاً قَبْضَـتُهُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وَالسَّـمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (الزمر:67)

بل يقسـم اللـه تعـالى على قدرتـه الـتي لا تحـد، ليؤكـد هـذا المعنى في الضمير المؤمن، قال تعالى: فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَـارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ((المعارج:40)

***

سرت مع معلم السلام في أرجاء هذا القسم، فرأيت بابـا قـد كتب عليه (باب معاينة مظاهر القدرة)

قلت للمعلم: هيـا بنـا نـدخل إلى هـذه القاعـة ففيهـا معاينـة

مظاهر القدرة.
قال: أخاف أن لا تخرج منها.
قلت: لم؟
قال: كثير ممن دخل هذه القاعة وعـاين بعض مظـاهر قـدرة الله لم يطق فراقها، فلم يخرج منها منذ دخلها.
قلت: لا تخف ـ يا معلم ـ فقد أخبرتـك أني لا أسـكن إلا لغايـة الغايات وقدس الأقداس.
قال: فادخل، ولا تطل المكث، فالأقسام الأخرى في انتظارنا.
دخلت القاعة، وهي كقاعات السنما إلا بفـارق بسـيط هـو أن السينما تنقل الصور إلى العيون، أمـا هـذه القاعـة، فتنقـل العيـون إلى الصور، كانت صورا كثيرة مزدحمة تملتئ بها القلوب والعقول.
أما الحضور.. فقد كانت أفواههم مشـدوهة لعظم مـا يـرون.. وقـد غـابوا عن كـل الآلام الـتي لا تخفيهـا الإعاقـات الـتي تنم بهـا جوارحهم.
سألت المعلم: من هؤلاء؟
قال: هؤلاء مرضى يئس أطباؤكم من علاجهم.. فهـداهم اللـه لهذا المستشفى.
قلت: ولكن عللهم لا تزال تنخر في أجسادهم.
قــال: ومــا يهمهم من عللهم.. هم يعيشــون في ســعادة لا يعيشها أعظم ملوككم.
أشار إلى أحدهم، فقال: أتعلم من هذا؟
قلت: لا.. ولكن يبــدو أن المشـيب بــدأ يشــتعل في شــعره ليقضي على سواد شبابه.
قال: هذا الرجل الذي تراه، جلس هنا منـذ ثمـانين سـنة، ولم يفارق مجلسه.
قلت: ثمانين.. عجيب هذا.. لا يبدو عليه التقدم في العمر.
قال: إنمـا يعمـر الجسـد البـالي.. أمـا المعـاينون، فقـد ذاقـوا إكسير الشباب الدائم، فلا ينشغلون بشيخوخة ولا هرم.
قلت: يا معلم.. دعني أجلس معهم.
قال: ألم نتفق على عدم السكون لشيء؟
قلت: أجل..
قال: فهيا.. فبالله إن تسر ترى العجائب.
***
خـرجت من القاعـة، وعنـد خـروجي ربت على كتفي شـيخ

وقور بحنان، وقال: (أليس في قدرة هذا الذي خلق كل هذا أن يخفف عني ما أنا فيه، أو يرمي بدائي إلى الهاوية التي لا حدود لها!؟)

قلت: نعم.. فمن أنت؟.. فما أعظم وقارك؟

تركني وانصرف، قال المعلم: هذا نزيل أقنعه الأطباء بكل أجهزتهم أنه ميئوس منه، وقد جاء إلى هنا.. وهو يعيش في سلام منذ جاء.

***

بعد خروجي لقيني شاب لا يقل عن الشيوخ وقارا، وقال: بعد هذه المظاهر التي تدل على قدرة الله المطلقة، والتي لا يعجزها شيء، هل تظل أيها المتألم حبيس آلامك، متصورا استحالة تفريجها.

أليس الذي خلق السموات والأرض، ودبر أمر الدقيق والجليل، أعظم من أن يقف المستحيل في طريقه، وأكبر شأنا من أن يعجزه ما نفخه شيطان اليأس في نفسك.

أردت أن أسأله عنه، فقاطعني، وقال: قد تقول: (نعم إنه قادر على كل شيء، ولكن من أنا حتى يتوجه إلي فاكا أزمتي، مفرجا كربتي، وما أنا إلا قطرة من بحر محيطه، أو هباءة في فضاء أثيره.. إذا راودك هذا الخاطر، وأوحت لك شياطين الإنس والجن بهذه الوساوس، فاذهب إلى ذلك القسم، فستجد فيه ضالتك)

الفضل الواسع

دخلنا القسم الثاني من أقسام حسن الظن بالله، وقد كتب على بابه ـ بحروف تحمل رحمة ممزوجة بحكمة ـ قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (البقرة: 105)

قلت للمعلم: لا شكَ أن هذا هو قسم الفضل الواسع.

قال: أجل، وهو من الأقسام الهامة التي يحتاج المرضى اليائسون إلى المرور عليها.

قلت: لم؟.. وأي داء يعالجون؟

قال: الفضل مكمل للقدرة.. ولا تبرز القدرة إلا بالفضل.. ولا يكتمل الفضل إلا بقدرة.

قلت: اشرح لي هذا، فإني أرى القدرة منفضلة عن الفضل انفصالا تاما.

قال: من كان قادرا، ولكنه بخيل، فإنه لا يصدر منه شيء، فإن صدر كان محفوفا ببخله.. ومن كان متفضلا، ولكنه عاجز كتم عجزه فضله، أو رماه عجزه بالبخل.

قلت: ففضل الله عظيم كقدرته؟

قال: لا يوازي قدرته إلا فضله، ألم تقرأ قوله تعالى: وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (البقرة: 105)

قلت: هذه الآية هي آية هذا الباب، وهي تذكر فضل الله الواسع العظيم.. ولكن القرآن الكريم يذكر أن فضل الله موزع حسب مشيئة الله، فهو: يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (آل عمران: 74)

قال: لا تفهم من هذه الآية غير ما تريد.. فضل الله واسع، ولكن من الخلق من تعرض له، فصار مخصوصا بالرحمة، ومنهم من أعرض فصار مخصوصا بالشقاوة.. فضل الله كالمطر من تعرض له ترابا أنبت طيبا، وأثمر طيبا، ومن تعرض له صخورا قاسية، فإن المطر ينزل عليه، ولكنه لا يؤثر فيه.

قلت: أرى القرآن الكريم يقصر الفضل على الله، كما قال تعالى: لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (الحديد:29)

قال: أجل ففضل الله بيد الله.. وهذا معنى جميل، تطرب له النفوس، لأنه ينفي الوسائط بين عباد الله، وفضل الله، فيكفي العبد أن يتوجه لله صادقا مخلصا ليرى يد الله، وهي تمتد إليه بالفضل والكرم والجود، كما قال تعالى: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ (البقرة:186)

وهذا الشعور هو الذي يتولد منه الرجوع إلى الله والاستمداد منه..

بينما نحن كذلك مر علينا رجل، والابتسامة تشع من عينيه، وهو يقول: الله ! ما أعظم فضل الله !..إنه الجدار الذي تتحطم أمامه كل الآلام.

ثم قصدني، وكأنه يعرفني، وربت على كتفي، وقال: ابتسم ـ أيها المتألم لأناتك ــ وطالع أسماء ربك التي تنطق بها حروف المكونات، وتضرع إليه بها كما يتضرع الكون جميعا، ففي نفس تضرعك تكمن الاستجابة، وفي نفس طلبك تتحقق الأماني.

قلت: من هذا؟، ومن أين خرج؟

قال: هذا الرجل كان في أقسام أسماء الفضل.. وهي أقسام تعرف بفضل الله انطلاقا من أسماء الله.

قلت: أهناك أقسام غير هذه؟

قال: أجل.. فهناك أقسام تعرف فضل الله من خلال أكوان الله.

قلت: فأي القسمين نزور؟

قال: سنقتصر من زيارتنا في هذا المحل على أسماء وردت في أكثرها النصوص المتعلقة بتفريج الكروب، وإجابة الدعوات وتنزل الفضل، لنزرع في قلوبنا قرب الله منا، وفضله العظيم علينا.

قلت: والفضل الذي تختزنه أكوان الله متى نراه.. أو متى نزوره؟

قال: سنزوره في درس آخر من دروس السلام، عندما نسبح في (بحار النعم)

الحي القيوم:

دخلنا قسما من أقسام الأسماء المرتبطة بفضل الله، وقد كتب على بابه: (الحي القيوم)

قلت للمعلم: هذان اسمان من أسماء الله الحسنى.

قال: نعم.. هما اسمان.. وهما اسم واحد؟

قلت: ما هذا التناقض؟

قال: كل واحد منهما إذا انفرد كان اسما من أسماء الله الحسنى، وفي اجتماعهما يتشكل اسم جديد له دلالة جديدة.

قلت: فما هي الدلالة الجديدة التي يحملها؟

قال: لا تعرفها إلا إذا عرفت دلالة كل اسم منفردا.

قلت: فما **الحي**.. ولماذا كان من أسماء الفضل؟

قال: هو من الأسماء الدالة على الفضل وغيره، فلا يمكن للقادر أن يكون قادرا إلا إذا كان حيا.. فالحياة هي الصفة التي تعتمد عليها جميع الصفات.

قلت: عرفت هذا.. فنحن لا يمكن أن نقوم بأي عمل إلا إذا كنا أحياء.

قال: مع فارق عظيم بين حياتكم البدائية البسيطة وحياة الله.. ألا تعلم أن الله لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (الشورى:11)

قلت: فما علاقة الحياة بفضل الله؟

قال: لا يمكن أن تدعو ميتا.. ولا أن يستجيب لك ميت.

قلت: صدقت.. لقد عبر الشاعر عن ذلك، فقال:

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي

قال: بل عبر الحق تعالى عن ذلك، فقال: وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ (الفرقان:58)، فقد ربط بين التوكل والحياة.. والتوكل هو استعانة بالله واستسلام مطلق لله ناتج عن ثقة عظيمة بفضل الله.

قلت: ألهذا إذن يقترن هذا الاسم بالأمر بدعاء الله، كما قال تعالى: هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (غافر:65)؟

قال: أجل، أي لأنه حي، فادعوه، لأن الدعاء لا يكون إلا لحي، وقد ورد الدعاء بهذا الاسم في هذا الباب، فقد روي أن رسول الله ﷺ قال: (ما كربني أمر إلا تمثل لي جبريل، فقال يا محمد: قل توكلت على الحي الذي لا يموت والحمد لله الذي لم يتخذ ولدا، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، وكبره تكبيرا)(1)

وفي حديث آخر، قال ﷺ: (ألا أعلمك كلمات تذهب عنك الضر والسقم، قل: توكلت على الحي الذي لا يموت، والحمد لله الذي لم يتخذ ولدا، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، وكبره تكبيرا)(2)

وقد روي في الاستعاذات المأثورة: (أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت الذي لا تموت والجن والإنس يموتون)(3)

قلت: فما **القيوم**.. ولماذا كان من أسماء الفضل؟

قال: هو القائم بنفسه المقيم لغيره.

قلت: فما القائم بنفسه؟

قال: هو الذي عظمت صفاته، فاستغنى عن جميع مخلوقاته.

قلت: فكيف قام غيره به؟

قال: هو الذي أوجد الأشياء، وأمدها وأعدها لكل ما فيه بقاؤها وصلاحها وقيامها.

قلت: فالقيوم إذن هو الغني عن الأكوان من كل وجه، وهي التي افتقرت إليه من كل وجه.

قال: ومن كان كذلك، فحري أن يستغاث به، ويلجأ إليه،

---

1) ابن أبي الدنيا في الفرج والبيهقي في الأسماء.
2) ابن السني في عمل يوم وليلة.
3) البخاري.

ويطرق بابه.

قلت: فلهذا الاسم إذن تـأثيره الخـاص في زرع الثقـة بقـدرة الله المطلقة، وفضله العظيم.

قال: أجل.. فقد جمع هذا الاسم بين المعنيين جميعـا، ولـذلك كان من الأسماء التي ورد الدعاء بها في الكربات.

قلت: عرفت المفردات، فما **معنى التركيب**؟

قـال: يتشـكل من ذينـك الاسـمين اسـم جديد(1) لـه دلالتـه الخاصة والمؤثرة.

قلت: فما هي؟

قال: هي مثل دلالة اجتمـاع القـدرة مـع الفضـل، فقـد يكـون قادرا غير متفضل، أو متفضلا غير قادر.

قلت: وهنا: قد يكون حيا غير قيوم، أو قيوما غير حي.

قال: أجل، فإذا كان حيا لم ترجه لحياته فقط، فقد يكون حيـا ضعيفا.. ولو كان قيوما غير حي، لا ترجوه كذلك، لأنه لا يسمعك إلا إذا كان حيا.

قلت: وبكونه حيا قيوما تجتمع فيه جميع مواصفات من يدعى فيجيب.

قال: أجل، ولهذا ورد في النصـوص مـا يشـير إلى كـون هـذا الاسم المقترن يحمل معـنى اسـم اللـه الأعظم الـذي إذا دعي بـه أجـاب، وإذا سـئل بـه أعطى(2)، ففي الحـديث أن النـبي ﷺ سـمع رجلاً يقول: (اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك المنان يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكـرام،

---

1) انظر في اقتران الأسماء ودلالاتها رسالة (أسرار الأقدار)

2) اختلف العلماء في (الاسم الأعظم) الذي إذا دُعي به لا يرد، اختلافا عظيما:

فمنهم من أنكره مثل أبي جعفر الطبري، وأبي الحسن الأشـعري، وجماعـة بعـدهما كأبي حاتم ابن حبان، والقاضي أبي بكر الباقلاني، فقالوا: لا يجـوز تفضـيل بعض الأسـماء على بعض، وحملـوا مـا ورد من ذلـك على أن المـراد بـالأعظم العظيم، وجعلـوا اسـم التفضيل على غير بابه، وهو أسلوب معروف عنـد علمـاء العربيـة، وأن أسـماء اللـه كلهـا عظيمة.

ومنهم من ذكر أن الأعظمية الواردة في الأخبار إنمـا يـراد بهـا مزيـد ثـواب الـداعي بذلك، كما إذا أطلق ذلك في القرآن، المراد به مزيد ثواب القارئ.

ومنهم من ذكر أن المراد بالاسم الأعظم، كل اسم من أسماء الله تعالى دعـا العبـد به مستغرقاً بحيث لا يكون في فكره حينئذ غير الله تعالى، فإن من تأتى له ذلك استجيب له، ونقل معنى هذا عن جعفر الصادق، وعن الجنيد وعن غيرهما.

ومنهم من ذهب إلى أن الله تعالى استأثر بعلم الاسم الأعظم، ولم يُطْلِعْ عليه أحداً من خلقه وأثبته آخرون، واضطربوا في ذلك.

ومنهم من ذهب إلى تحديد الاسم، واختلفوا في ذلك اختلافا شديدا، منها هذا الاسـم المركب، وسنعرض للمسألة بتفاصيلها في محلها الخاص من هذه الرسائل.

يا حي يا قيوم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النـار)، فقـال النـبي ﷺ: (لقد سأل الله باسـمه الأعظم الـذي إذا سـئل بـه أعطى، وإذا دعي به أجاب) (1)

قلت: فما السر في هذه الأفضلية؟

قال: لأن الحياة مستلزمة لجميع صـفات الكمـال، ولا يتخلـف عنها صفة منها إلا ضعف الحياة، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حيـاة وأتمها استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة، لذلك اقـترن هـذا الاسـم بالتوكـل في قولـه تعـالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴾ (الفرقان:58).. وأما القيوم: فهـو متضـمن كمـال غناه، وكمال قدرته، فإنه القائم بنفسه، فلا يحتـاج إلى غـيره بوجـه من الوجوه، القائم على غيره، فلا قيام لغيره إلا بإقامته.

ولهـذا، كـان ﷺ إذا أهمَّهُ الأمْـرُ، رفـع طرفـه إلى السـماء فقال: (سُبْحَانَ الله العظيمِ)، وإذا اجتهد فى الدعاء قال: (يا حَىُّ يـا قَيُّومُ)

وكان ﷺ يستغيث باللـه مسـتنجدا متوسـلا بهـذا الاسـم، ففي الحديث أنَّ رسولَ الله ﷺ كان إذا حَزَبَهُ أمرٌ قـال: (يـا حَىُّ يـا قَيُّومُ برحمتِكَ أستغيثُ)(2)

رأيت كثيرا من النـاس يجتمعـون في حلقـة رجـل يبـدو عليـه الوقار، قلت للمعلم: من هذا؟

قال: هذا طبيب من أطباء هذا المستشفى.

قلت: هلم نستفيد منه..

قال: حسبك بهذا هنا.. فالأقسام الأخرى في انتظارنا.

الصمد:

دخلنا قسما آخر من أقسام الأسـماء المرتبطـة بفضـل اللـه، وقد كتب على بابه: (الله الصمد)

قلت للمعلم: لقد ورد ذكر هذا الاسم في القرآن الكريم مـرة واحدة، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ (الاخلاص:2)؟

قال: ولكن في سـورة اختصـت بـالتعريف باللـه، وهي تعـدل ثلث القرآن(3)، فلذلك كانت له لذلك مزية خاصة.

قلت: لقد ورد في اللغة لهذا الاسم دلالات كثيرة جدا، ولذلك ورد اختلاف كبير في تحديد معناه.

---

1) أهل السنن الأربع وابن حبان وأحمد والحاكم.

2) الترمذىّ.

3) لقوله ﷺ:(أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة فإنه من قرأ قل هـو اللـه أحد الله الصمد في ليلة فقد قرأ ليلته ثلث القرآن) أحمد والترمذي والنسائي.

قال: ما نحتاج إليه هنا دلالة واحدة وهو الصمد الذي يعني في اللغة القصد، فيكون الصمد بذلك بمعنى المصمود أي المقصود في الحوائج والنوازل، المستحق أن يُلجَأ إليه لتحقيق الحاجات ونيل الرغبات وتفريج الكربات ودفع الملمات.

قلت: لقد قرأت كلاما جميلا لابن عباس في تعريف هذا الاسم.

قال: وما قال؟

قلت: قال: (هو السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو اللّه سبحانه، ليس له كفء وليس كمثله شيء، سبحان اللّه الواحد القهار)

قال: ولهذا ورد في النصوص ما يدل على أن هذا الاسم هو الاسم الأعظم، فقد سمع النبي ﷺ رجلا يقول: اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد فقال: (لقد سألت الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب)(1)

وهو من الأسماء التي كان ﷺ يتوسل بها في علاج المرضى، ففي الحديث أن رسول الله عاد رجلا، فقال: (بسم الله الرحمن الرحيم أعيذك بالله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد من شر ما تجد) ثلاث مرات (2).

الكافي:

دخلنا قسما آخر من أقسام الأسماء المرتبطة بفضل الله، وقد كتب على بابه (الكافي)

قلت للمعلم: ما الكافي(3)؟

قال: هو الذي يكفي عباده ما يحتاجون إليه، بحيث يستغنون به عن غيره، كما قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ (الزمر:36)

قلت: لم كان كذلك؟

قال: لأنه حي قيوم عالم بجميع المعلومات، قادر على كل

---

1) أبو داود والترمذي وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم،.

2) ابن زنجويه في ترغيبه، والعقيلي، والبغوي.

3) كلمة (كافي) مأخوذة من (كفاية)، وهي تعني الإقدام على عمل معين والتمكن منه ، قال الراغب في مفرداته: (الكفاية) هي رفع حاجة والوصول إلى المقصود، وكفية على وزن كنية تعني الغذاء الكافي ، وكفي على وزن خفي تعني المطر.

الممكنات، غني عن كل الحاجات، يعلم حاجات العباد، ويقـدر على دفعها، وهـو ليس بخيلا ولا محتاجـا حـتى يمنعـه بخلـه وحاجتـه عن إعطاء ذلك المراد.

قلت: ألهذا وعد الله كل من ينصره بكفاية الله فقال تعالى: فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (البقرة:137)

قال: بل أخبر تعالى بأنـه كفى رسـوله ﷺ أمـر المسـتهزئين، قال تعالى: إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (الحجر:95)

قلت: فما يكفينا الله؟

قال: كل شيء.. فكفاية الله لعباده شاملة لكل شـيء، فاللـه هو الذي يكفي عباده كل ما يهمهم من العظيم والحقير، ولهذا كان ﷺ إذا أوى إلى فراشـه؛ قـال: (الحمـد للـه الـذي أطعمنـا وسـقانا وكفانا وآوانا؛ فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي)(1)

وقد ورد في قصة الغلام مع الساحر والراهب: أنه كلما ذهبوا به إلى مكان لقتله؛ قال: (اللهم اكفنيهم بما شئت)(2)

قلت: فهذا يدعو العارفين إلى الاكتفاء بالله.

قال: أجل.. ولذلك أخبر الله تعالى عن اكتفاء المؤمـنين باللـه وبحفظ الله، قال تعالى: الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانـاً وَقَـالُوا حَسْـبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيـلُ (آل عمران:173)

وقال عن رسوله ﷺ: إِلاّ تَنْصُـرُوهُ فَقَـدْ نَصَـرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَـهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْـزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَـا وَجَعَـلَ كَلِمَـةَ الَّذِينَ كَفَـرُوا السُّـفْلَى وَكَلِمَـةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَـا وَاللَّهُ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ (التوبة:40)

قلت: ولهذا إذن ورد الدعاء بهذا الاسم في السنة، وقـد أخـبر ﷺ عن تأثيره العجيب في دفع الضرر، فقال ﷺ لفاطمة الزهـراء : (إذا أخذت مضـجعك فقـولي: (الحمـد اللـه الكـافي، سـبحان اللـه الأعلى، حسبي الله وكفى، ما شاء الله قضى، سمع الله لمن دعا، ليس من اللـه ملجـأ ولا وراء اللـه ملتجـأ، تـوكلت على اللـه ربي وربكم مـا من دابـة إلا هـو آخـذ بناصـيتها، إن ربي على صـراط مستقيم، الحمد للـه الـذي لم يتخـذ ولـدا ولم يكن لـه شـريك في

---

1) مسلم.
2) مسلم.

الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا)، ثم قال ﷺ: (ما من مسلم يقولها عند منامه ثم ينام وسط الشياطين والهوام فتضره)[1]

***

بينما نحن كذلك إذ سمعت حركات في القاعة، فسألت المعلم: فقال: هذا عبد الوكيل قد جاء، ومعه عبد الحسيب.

قلت: ومن عبد الوكيل.. ومن عبد الحسيب.. فلا أعلم في الأسماء التي تختزنها ذاكرتي هذين الاسمين؟

قال: هما طبيبان من أطباء هذه القاعة.

قلت: وما علاقتهما باسم الله الكافي؟

قال: سيشرحانها لك، فهذه وظيفتهما.

قال عبد الوكيل: (الوكيل) من الأسماء القريبة من اسم الله الكافي.

قلت: فما يعني؟ وما وجه القرابة بينهما؟

قال: الوكيل هو من توكل إليه الأمور، وتفوض إليه، كما قال تعالى: ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾(الأحزاب: 3) أي القائم بأمور عباده، المتكفل بمصالحهم، الكفيل بأرزاقهم، فالخلق والأمر له، لا يملك أحد من دونه شيئاً.

قلت: فما علاقته بالكافي؟

قال: من توكل لك، فقد كفاك، ولهذا ورد هذا الاسم في ذكر من الأذكار العظيمة التي تتعلق بهذا الجانب، وهو (حسبنا الله ونعم الوكيل)

قلت: هو ذكر قرآني أثنى الله على من قاله، فقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران:173)

قال: وكان هذا الالتجاء سببا في حصول خير عظيم للمؤمنين، قال تعالى: ﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (آل عمران: 174)

قلت: كان هذا الذكر هو الذي نطق به إبراهيم عليه السلام في أحرج مواقف حياته، قال ابن عباس في الآية السابقة: (قالها: إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ (آل عمران:173))[2]

---

1) ابن السني.
2) البخاري.

قال: ولهذا أخبر ﷺ أن لهذا الـذكر تـأثيره العميـق في النفس بإعطائها القوة وتخليصها من العجر، قال ﷺ: (إن الله تعالى يحمد على الكيس ويلوم على العجز فإذا غلبك الشيء فقل: حسبي الله ونعم الوكيل)(1)

وقد ورد في النصوص استعمال هذا الذكر في الموضع الـذي نحن فيه، فقد كان ﷺ إذا أصابه غم أو كرب يقول: (حسـبي الـرب من العبـاد، حسـبي الخـالق من المخلـوقين، حسـبي الـرازق من المرزوقين، حسبي الله الذي هو حسبي، حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم)(2)

***

بمجرد انتهاء عبد الوكيل قال عبد الحسـيب: الحسـيب(3) من كفاك جميع ما أهمك من أمر دينك ودنيـاك، وهـو الـذي يجلب لـك المنافع، ويدفع عنك المضار، وهو الذي يحميـك من كـل المخـاطر، ويؤمن لك كل السبل، وهو الذي..

قلت للمعلم: ألهـذا قـال تعـالى: وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُـوَ حَسْبُهُ ((الطلاق:3)

قال: أجل.. من توكل على الله فهو حسبه.

الشافي:

دخلنا قسما آخر من أقسام الأسـماء المرتبطـة بفضـل اللـه، وقد كتب على بابه (الشافي)

قلت للمعلم: الله ! ما أجمل هذا الاسم.. ومـا أعظم تفريجـه لكربات المعتلين.. فإن المريض لا يحن لاسم كما يحن للطبيب؟

قـال: ولهـذا ورد اسـم (الطـبيب) مقترنـا باللـه، فاللـه هـو الطبيب: طبيب القلوب والنفوس والأجساد، فقد ورد في الحـديث عن أبي رمثة قال: دخلت مع أبي على رسـول اللّـه ﷺ فـرأى أبي الذي بظهره(4)، فقـال: (دعـني أعالجـه فـإني طـبيب)، فقـال ﷺ: (اللّه الطبيب)(5)

وقد ذكر ﷺ علة كون الله هو الطبيب الحقيقي، فقـال: (اللـه الطَّبِيبُ، بل أنت رجلٌ رفيقٌ، طَبِيبُها الذي خلقها)

قلت: ما سر هذا؟، فالنبي ﷺ جعل اسم الطبيب خاصا بالله.

---

1) الطبراني في الكبير.
2) ابن أبي الدنيا في الفرج من طريق الخليل بن مرة عن فقيه أهل الأردن بلاغا.
3) قد يحمل هذا الاسم معنى الكفاية ومعنى المحاسبة، كما في قولـه تعالى: ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً (النساء:6)
4) وهو خاتم النبوة.
5) الترمذي والنسائي مختصرا ومطولا، وقال الترمذي: حسن غريب.

قال: لأن الطبيب هو العالم بحقيقة الدواء والداء، والقادر على الصحة والشفاء، وليس ذلك إلا اللّه، فهو العالم وحده بتفاصيل العلل، جميع العلل، والعالم وحده بعلاجها: ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(الملك:14)

قلت: ولهذا توسل إبراهيم عليه السلام إلى الله بالشفاء، فقال: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء:80)

قال: أجل.. يشفي من كل شيء.. من أمراض الحس وأمراض المعنى، هو خالق الدواء، وملهم الأطباء، ورازق الشفاء، فما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء.

قلت: لقد ورد في النصوص ما يدل على هذا، فقد وورد في القرآن الكريم التنصيص على ما جعل الله في العسل من الشفاء، فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل:69)

وورد طلب الشفاء من الله تعالى في الأمراض الحسية، قال ﷺ: (من عاد مريضاً لم يحضر أجله فقال سبع مرات: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك إلا عافاه الله من ذلك المرض)(1)

وأما المعنوية والنفسية، فقد قال تعالى في بيان خصائص كلامه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:57)

قال: ولهذا ورد هذا الاسم في أدعية الاستشفاء، ففي الحديث أن النبي ﷺ كان يعوِّذ بعض أهله يمسح بيده اليمنى ويقول: (اللهم رب الناس أذهب البأس واشفه وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً)(2)

المغيث:

دخلنا قسما آخر من أقسام الأسماء المرتبطة بفضل الله، وقد كتب على بابه (المغيث)

قلت للمعلم: الله ! ما أجمل هذا الاسم.. لكأني به يمد يده إلى ضعف الإنسان وقصوره وحاجاته الكثيرة لينقذه منها؟

قال: أجل.. فله هذه الدلالة النفسية العميقة التي تشهد لها كل الحقائق، وكل الفطر، وكل الموجودات:

---

1) أبو داود، والترمذي، وقال: حسن غريب، والحاكم عن ابن عباس.
2) البخاري وغيره.

فالله تعالى هو الذي يغيث عباده عندما تنزل بهم الكربات، وعندما تمتد أيديهم إليه طالبة نجدته، قال تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (لأنفال:9)

ولله تعالى هو الذي يغيث البشر بإنزال الغيث، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ (لقمان:34)،ـ وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (الشورى:28)

قلت: ولهذا كان ﷺ في الاستسقاء يصرخ مستغيثا بالله، فقد روي أن رجلاً دخل المسجد يوم الجمعة، ورسول الله ﷺ يخطب، ثم قال يا رسول الله: هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا، فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: (اللهم أغثنا.. اللهم أغثنا.. اللهم أغثنا)

بينما نحن كذلك إذ ظهرت أنوار عظيمة تحمل صورا مختلفة تملأ القلوب أنسا وثقة، قلت للمعلم: ما هذه الصور؟

قال: هذه بعض مظاهر اسم الله المغيث، وهي تدعوا للتأمل فيها لامتلاء القلب معانيها.

قلت: فهيا نلبي نداءها.. فما أعظم أن تمتلئ قلوبنا بالثقة بالله.. وفي إغاثة الله.

قال: سنقتصرعلى أربعة مظاهر لاسم الله المغيث وردت بها النصوص، ولها علاقة بهذا الباب، أما ما عداها فسنمر بالكثير منها في دروس السلام، فلا تعجل، ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ (طه:114)

فارج الكرب:

رأيت صورة سواد عظيم يغمر الكون فيملأه بالكآبة، وإذا بإغاثة إلهية تنزل على ذلك السواد، فترفع ما علاه من الظلام، وتحوله إلى نور تمتلئ بجماله أرجاء القاعة.

سألت المعلم عن سر هذه الصورة، فقال: هذا مظهر من مظاهر الإغاثة أرسله فارج الكروب، ليمحو الغين الذي ران على الكون والقلوب.

قلت: وما الكروب؟

قال: الكرب هو الغم الشديد، والمصيبة العظيمة، ولذلك لم يرد في النصوص المقدسة إلا في مواضع الشدة الشديدة، والدواهي العظيمة.

قلت: نعم، فقد ورد في حديث الشفاعة الطويل قوله ﷺ:

(يجمع الله الأولين والآخـرين في صـعيد واحـد فيسـمعهم الـداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون)(1)

قال: وورد قبل ذلك في قوله تعـالى مخـبرا عن إنجائـه لنـوح عليه السلام من الكرب: ﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَـهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ (الانبياء: 76)،ـ وقال تعالى:﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَـهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ((الصافات:76)

وأخبر عن إنجائه لموسى وهارون ـ عليهمـا السـلام ــ، فقـال تعالى:﴿ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ (الصافات: 115)

قلت: الله !.. ما أعظم رحمة الله بأنبيائه !

قال: وبجميع خلقه، ألم يخبر تعالى عن سـنته في إنجـاء كـل الخلق من كل الكربات، فقـال تعـالى:﴿ قُـلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَـا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام:64)

قلت: بلى.. واستشـعار هـذا المعـنى ينفي اليـأس من قلب المؤمن عندما تحل به المصيبة العظيمة الـتي يـرى اسـتحالة حلهـا بالأسباب التي لديه.

قال: ولهذا علمنا رسـول اللـه ﷺ أذكـارا نقولهـا عنـد الكـرب تذكرنا بالله وبقدرة الله التي لا يعجزها شيء، قال ﷺ لأسـماء بنت عميس : (ألا أعلمك كلمات تقوليهن عند الكرب؟ الله اللـه ربي لا أشرك به شيئا)(2)

وقال ﷺ: (يا بني عبد المطلب، إذا نزل بكم كرب أو جمة أو جهد أو لأواء فقولوا: الله الله ربنا لا شريك له)(3)

وقال ﷺ: (من قرأ آية الكرسي، وخواتيم سـورة البقـرة عنـد الكرب أغاثه الله تعالى)(4)

وقال ﷺ: (دَعَـواتُ المكـروبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَـكَ أرجُـو، فَلا تَكِلْنِى إلى نَفْسى طَرْفَةَ عَيْنٍ، وأصْلِحْ لى شَأنى كُلَّهُ، لا إله إلا أنْتَ)(5)

وقال ﷺ: (إني لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلا فرج اللـه عـز وجل عنه، كلمة أخي يونس:﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الانبياء:87))(6)

قلت: الله ! الله ! ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه.

---

1) البخاري ومسلم.
2) أحمد وأبو داود.
3) الطبراني في الكبير.
4) ابن السني.
5) أبو داود.
6) ابن السني في عمل يوم وليلة.

قال: أجل.
قلت: هذا ترياق عجيب، فكيف نغفل عنه؟
قال: وهل تغفلون عن هذا فقط؟.. من نسي الله غفل عن كل شيء.
قلت: فما سر ارتباطها بتفريج الكربات؟
قال: سنرحل إلى هذا في درس من دروس السلام(1).

باعث اليسر:

رأيت صورة عقد كثيرة يستحيل على أي يد أن تفكها.. وفجأة وجدت هذه العقد تنحل عقدة عقدة.. بل يذهب كل ما بها من آثار العقد.

سألت المعلم عن سر هذه الصورة، فقال: هذه مظاهر العسر الذي يعقد القلوب بعقده.. فإذا علمت القلوب شدة عقدها، ويئست منها بعث الله بيسره، فالله هو الذي يعقب العسر باليسر، ألم تسمع إلى قوله تعالى: سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً (الطلاق:7)

تدخل رجل من الحاضرين، وقد سمع هذا الكلام من المعلم، فقال: بل يعقب العسر بيسرين(2)، قال تعالى: فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (الشرح: 5ـ 6)، قال ابن عباس يفسر هذه الآية: (يقول الله تعالى خلقت عسرا واحدا، وخلقت يسرين، ولن يغلب عسر يسرين)

وقال ابن مسعود: (والذي نفسي بيده، لو كان العسر في حجر، لطلبه اليسر حتى يدخل عليه؛ ولن يغلب عسر يسرين)

بل ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ خرج يوما مسرورا وهو يضحك ويقول: (لن يغلب عسر يسرين فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (الشرح: 5، 6)(3)

تدخل آخر، فقال: والله تعالى واضع المخارج، فهو الذي يضع المخارج عندما تنسد الأبواب، وتضيق المسالك، قال تعالى: وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (الطلاق:2)

ولذلك أمرنا أن نقول: رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً (الاسراء: 80)

قلت للمعلم: من هذين؟

---

1) انظر:رسالة (كنوز في بطن الحوت)
2) نص المفسرون على أن من عادة العرب إذا ذكروا اسما معرفا ثم كرروه، فهو هو، وإذا نكروه ثم كرروه فهو غيره. وهما اثنان، ليكون أقوى للأمل، وأبعث على الصبر.
3) عبد الرزاق وابن جرير والحاكم والبيهقي.

قال: هذان مقيمان بهذا القسم لا يبرحانه.. يعبدان الله بهذين الاسمين.

كاشف الضر:

رأيت صورة قروح وأدواء كثيرة تمزق لها قلبي.. ثم رأيت مرهما ينزل من السماء.. فيقع على تلك القروح، فيشفيها شفاء تاما، ولا يدع أثرا لعلة.

سألت المعلم عن سر هذه الصورة، فقال: هذا مظهر من مظهر الإغاثة أرسله كاشف الضر، ليمحو القروح التي تجثم على القلوب والأجساد.. فالله تعالى هو كاشف الضر، بل لا يكشف الضر غيره، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الأنعام:17)، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (يونس:107)

قلت: بلى، ولهذا كان من دواعي تسليم المؤمنين لله وإذعانهم له وحده ما نص عليه العبد الصالح بقوله: ﴿ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ ﴾ (يّس:23)

قال: بل هذا ما أمر كل مؤمن أن يقوله، قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (الزمر:38)

تدخل رجل من نزلاء المستشفى، فقال: إن هذه الحقيقة يذعن لها الكل حتى أولئك الذين يجهلون الله عند الرخاء، فإنه إذا ما حلت بهم الشدائد لا يجدون غير باب الله، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (يونس:12)، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (الروم:33)، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ (الزمر:8)، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ

دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (الزمر:49)

تدخل آخر، فقال: والله تعالى لا يعاتب هؤلاء على تذكرهم إياه وقت الكرب والشدة، بل يعاتبهم على نسيانهم وغفلتهم حال الأمن والعافية.

جاء ثالث، وهو يقول: يخبرنا القرآن الكريم عن رجل من الزمن السالف رأى قرية قد دب إليها الخراب، وكساها الموت بسرابيله، بل كفنها بأكفانه، فتأسف حزنا عليها، فأماته الله مائة عام، ليراها وقد دبت إليها الحياة، فلا يحزن ولا ييأس، قال تعالى: أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (البقرة:259)

شارح الصدور:

رأيت صورة غيوم كثيرة لكنها غير ممطرة، ولا تبقى في السماء، بل كانت تنزل إلى الأرض، ثم تدخل إلى الصدور، فيصيح أصحابها من الألم والضيق.. فيأتي نسيم عليل يذهب ما بها من ضيق، ويملأها انشراحا وعافية.

قلت للمعلم: لا شك أن هذه صورة بعض الغازات السامة التي يتفنن قومي في اختراعها.. ولكن ما سر ذلك النسيم؟

قال: لا.. هذه صورة الضيق الذي يملأ القلوب والصدور، وذلك النسيم، هو مظهر من مظاهر الإغاثة الإلهية، فالله تعالى هو شارح صدر المتألمين، قال تعالى: قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (طه:25)،ـ وقال تعالى: أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (الزمر:22)، وقال تعالى: أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (الشرح:1)

والله تعالى هو المنجي من الهم والغم، قال تعالى: ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً (آل عمران:154)، وقال تعالى: وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ (طه:40)،ـ وقال تعالى: فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (الانبياء:88)

تدخل أحد الحاضرين، فقال: ولهذا أرشدنا رسول الله ﷺ أن

نستعين بالله في دفع الهم والغم، قال ﷺ: (ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال: (اللهم إني عبـدك وابن عبـدك وابن أمتـك ناصـيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هـو لـك سميت به نفسك أو علمته أحدا من خلقـك أو أنزلتـه في كتابـك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدلــه مكانه فرجا) فقيل: يا رسـول اللـه ألا نتعلمهـا؟ فقـال: (بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها)(1)

1) أحمد.

ثالثا ـ حصن الاستعانة

ذهبنا إلى الحصن الثالث من حصون الروح، وهو حصن (الاستعانة بالله)، وقد كتب على بابه بحروف من نور: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة:5)

قلت للمعلم: لم كانت الاستعانة بالله تالية لحسن الظن بالله؟

قال: أول نتيجة للمعرفة بالله هي حسن الظن به والثقة فيه، وهما مفتاح الأمل الذي يجعل القلب متوجها لله طالبا غوثه مستمدا عونه.. فمن ثمرات حسن الظن بالله الاستعانة به، كما أن من ثمرات سوء الظن بالله عدم الالتفات إليه.

ولهذا عقب الله تعالى العبادة بالاستعانة في سورة الفاتحة، فقال:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة:5)،ـ فمن عبد الله كما أمر لا بد أن يصل إلى نصيبه من المعرفة الذي يضعه في عبودية الاستعانة بالله.

قلت: فما ثمرة الاستعانة بالله؟

قال: القوة التي تتحدى كل الصعاب، وتنفرج لها كل الكروب، أرأيت لو استعنت بأقوياء قومك على بناء بيتك.. ألا تبنيه؟

قلت: بل أبنيه.. وأبني قصورا معه.. فلا قوة كقوة الاستعانة.

قال: هذا أثر الاستعانة بالبشر، وبجهد البشر، فكيف بالاستعانة بالله الذي يملك الكل؟

قلت: فما يحقق هذه الاستعانة بالله؟

قال: الإيمان بالله، ألم تسمع قوله ﷺ في الحديث الذي يبين فيه أسس القوة التي يتمتع بها المؤمن، فقد قال ﷺ: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فان لو تفتح عمل الشيطان)(1)

قلت: فما حدود القوة التي أحققها بالاستعانة؟

قال: لا حدود لهذه القوة، فكل ما يخطر ببالك قليل بالنسبة للحقيقة.. ألم يواجه الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ الانحراف بجميع أشكاله، مستعينين بقوة الله !؟.. ألم تسمع قوله تعالى عن

---

1) أحمد.

رسول الله ﷺ في لحظة من اللحظات الحرجة التي مر بها: إِلاّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (التوبة:40)

وقوله عن موسى عليه السلام وهو بين عدو يتربص به، وبين بحر يحول بينه وبين الفرار: كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (الشعراء:62)

وقول موسى عليه السلام لقومه من الجبناء: اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (لأعراف:128)

قلت: فما مكامن القوة في الاستعانة بالله؟

قال: لا تكمن قوة الاستعانة بالله في المدد الذي يحصل ثمرة لها فقط، وإنما قوتها في نفس الاستعانة بما تحدثه من أمل في القلب، وانشراح في الصدر، وابتسامة للأنين.

بينما أنا كذلك إذ رأيت طبيبا يظهر عليه من خلال مظهره، ومن خلال صعوبة نطقه بالعربية أنه أعجمي، فسألت المعلم عنه، فقال: هذا طبيب من قومك(1).

قلت: وما الذي حضر به إلى هنا؟

قال: هو أستاذ زائر بهذا القسم.. ألا تعرف الأستاذ الزائر؟

قلت: بلى.. فجامعاتنا تفعل هذا.. حيث تستقدم بعض الأساتذة ليحاضروا في جامعاتها مدة، ثم يعودون إلى مراكز عملهم الأصلية.

قال: فهذا الطبيب كان يتصور العلاج عملية رياضية محضة، تكفي فيها المواد الكيميائية، ولا علاقة لها بالحالة النفسية أو التوجه الإيماني(2)، ولكنه تحول بعد ذلك ليقر بدور الإيمان والاستعانة بالله في الشفاء، فلهذا استقدمته إدارة المستشفى ليدلي بشهادته هنا.. فهلم نقترب لنسمع ما يقول.

تقدمنا، فسمعته يقول: لقد درست ـ عندما كنت أتعلم الطب ـ أحد المبادىء المادية الأساسية التي تفسر ما يحدث من تغيرات داخل الجسم عندما يصيبها عطب أو تلف، تفسيراً مادياً صرفاً، كما

---

1) هو بول إرنست أدولف، أستاذ مساعد التشريح بجامعة سانت جونس وعضو جمعية الجراحين الأمريكية.

2) عن كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) جمعها: جون كلوفر مونسما، ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان، الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع القاهرة.

فحصت قطاعات مجهرية لهذه الأنسجة، وتبينت أن الظروف المناسبة تعينها على أن تلتئم بسرعة وتتقدم نحو الشفاء، وعندما اشتغلت جراحاً في أحد المستشفيات بعد ذلك، كنت أستخدم المبدأ السابق استخداما يتسم بالثقة فيه والاطمئنان إليه. ولم يكن عليّ إلا أن أهيئ الظروف المادية والطبية المناسبة، ثم أدع الجرح يلتئم، وكلي ثقة بالنتيجة المرتقبة.

قلت: هذه هي المعرفة التي يؤمن بها أكثر الأطباء، ويكتفون بها.

قال المعلم: ولكن هذا الطبيب انتقل إلى مرحلة أخرى، سار من خلالها نحو الإيمان، فاسمع لما يقول.

قال الطبيب: ولكنني لم ألبث غير قليل حتى اكتشفت أنني قد فاتني أن أضِّمن علاجي وأفكاري الطبية أهم العناصر وأبعدها أثراً في إتمام الشفاء ألا وهو الاستعانة بالله.

قلت: فهل ذكرت لنا سر تحولك هذا؟

قال: سأذكر مثالا على التجارب التي مرر بها، والتي جعلتني أتحول إلى هذه القناعة.. عندما كنت أعمل جراحاً في أحد المستشفيات، جاءتني ذات يوم جدة جاوزت السبعين تشكو من شدخ في عظام ردفها، وبعد أن وضعت فترة تحت العلاج أدركت من فحص سلسلة الصور التي أخذت لها على فترات تحت الأشعة أنها تتقدم بسرعة عجيبة نحو الشفاء، ولم تمض أيام قليلة حتى تقدمت إليها مهنئاً بما تم لها من شفاء نادر عجيب، عندئذ استطاعت السيدة أن تتحرك فوق المقعد ذي العجلات، ثم سارت وحدها متوكئة على عصاها، وقررنا أن تخرج تلك السيدة في مدى أربع وعشرين ساعة وتذهب إلى بيتها، فلم يعد بها حاجة إلى البقاء في المستشفى.

وكان صباح اليوم التالي هو الأحد، وقد عادتها ابنتها في زيارة الأحد المعتادة حيث أخبرتها أنها تستطيع أن تأخذها والدتها في الصباح إلى المنزل لأنها تستطيع الآن أن تسير متوكئة على عصاها.

ولم تذكر لي ابنتها شيئاً مما جال في خاطرها، ولكنها انتحت بأمها جانباً وأخبرتها أنها قد قررت بالاتفاق مع زوجها أن يأخذا الأم إلى أحد ملاجيء العجزة لأنهما لا يستطيعان أن يأخذاها إلى المنزل.

ولم تكد تنقضي بضع ساعات على ذلك حتى استدعيت على

عجل لإسعاف السيدة العجوز، ويا لهول ما رأيت.. لقد كانت المرأة تحتضر، ولم تمض ساعات قليلة حتى أسلمت الروح.

إنها لم تمت من كسر في عظام ردفها، ولكنها ماتت من انكسار في قلبها، لقد حاولت دون جدوى أن أقدم لها أقصى ما يمكن من وسائل الإسعاف، وضاعت كل الجهود سدى.

لقد شفيت من مرضها بسهولة، ولكن قلبها الكسير لم يمكن شفاؤه برغم ما كانت قد تناولته في أثناء العلاج من الفيتامينات والعقاقير المقوية وما تهيأ لها من أسباب الراحة، ومن الاحتياجات التي كانت تتخذ لتعينها على المرض وتعجل لها الشفاء.. لقد التأمت عظامها المكسورة التئاماً تاماً ومع ذلك فإنها ماتت.

صحت: لماذا؟

نظر إلي، وقال: إن أهم عامل في شفائها لم يكن الفيتامينات ولا العقاقير ولا التئام العظام، ولكنه كان الأمل، وعندما ضاع الأمل تعذر الشفاء.

قلت: فما نواحي الأمل التي غابت عن ذهن هذه العجوز في تصورك كطبيب؟

قال: أثرت هذه الحاثة في نفسي تأثيراً عميقاً، وقلت في نفسي: لو أن هذه السيدة وضعت أملها في الله ما ضيعها وما انهارت ولما حدث لها ما حدث.. وبرغم أنني كنت أومن بالله خالق كل شيء بحكم اشتغالي بالعلوم الطبية، فإنني كنت أفضل بين معلوماتي الطبية والمادية، وبين اعتقادي في وجود الله كما لو لم تكن هنالك صلة بين هذين الأمرين.

قلت: فقد وصلت إذن إلى ضرورة الإيمان للشفاء والعافية والسعادة؟

قال: لقد أيقنت أن العلاج الحقيقي لابد أن يشمل الروح والجسم معاً وفي وقت واحد، وأدركت أن من واجبي أن أطبق معلوماتي الطبية والجراحية إلى جانب إيماني بالله وعلمي به، ولقد أقمت كلتا الناحيتين على أساس قويم.. بهذه الطريقة وحدها استطعت أن أقدم لمرضاي العلاج الكامل الذي يحتاجون إليه.. ولقد وجدت بعد تدبر عميق أن معلوماتي الطبية وعقيدتي في الله هما الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه الفلسفة الطبية الحديثة.

قلت: أهذه قناعتك وحدك؟.. أم ترى من زملائك من اقتنع بهذه القانعة؟

قال: الواقع أن النتيجة التي وصلت إليها تتفق كل الاتفاق مع

النظرية الطبية الحديثة عن أهمية العنصر السـيكولوجي في العلاج الحديث، فقـد دلت الإحصـائيات الدقيقـة على أن 80 بالمائـة من المرضى بشتى الأمراض في جميع المدن الأمريكية الكـبرى ترجـع أمراضهم إلى حد كبير إلى مسببات نفسـية، ونصـف هـذه النسـبة من الأشخاص الذين ليس لديهم مرض عضوي في أيـة صـورة من الصور.. وليس معنى ذلك أن هـذه الأمـراض مجـرد أوهـام خياليـة حقيقة، وليست أسبابها خيالية ولكنها موجودة فعلاً ويمكن الوصول إليها عندما يستخدم الطبيب المعالج بصيرته بها.

***

قلت للمعلم: هاهو الطب بدأ يسـلم وجهـه إلى اللـه، ويرتفـع عنه ذلك الغرور الذي أصابه بعد اكتشـافه لأسـباب العلـل، وكيفيـة علاجها.

قال: وسيرى من آيات الله ما يحمله إلى الله حملا.. ويوشـك لو امتد بك العمر أن تـرى المستشـفيات مسـاجد يعبـد فيهـا اللـه، ويذكر فيها بالله، لا تختلف عن سائر المساجد.

قلت: أرى بابان مقابلان.. إلى أين يؤديان؟

قال: إلى ركنين عظيمين من أركان الاستعانة.

قلت: ما أولهما؟

قال: التضرع إلى الله ودعاؤه وطلب مدده وعونه، وهو الـذي يقصد بالاستعانة عند الإطلاق.

قلت: وما الثاني؟

قال: العمل الصالح، فالله تعالى يمد بعونـه من أطاعـه، كمـا يحرم منه من عصاه، وقد ورد في الحـديث القدسـي: (يقـول اللـه تعـالى: من شـغله ذكـري عن مسـألتي أعطيتـه فـوق مـا أعطي السائلين)(1)

قلت: فكيف يكون العمل الصالح ركنا من أركان الاستعانة؟

قال: ألا تمد بالعون من استغاث بك طالبا النجدة؟

قلت: بلى.. وهـذا هـو الـركن الأول.. وسـؤالي عن الـركن الثاني.

قال: ألا تمد بالعون من نطق لسان حاله بالحاجة مـع صـلاحه وعفافه؟

قلت: لم أفهم هذا.

---

1) البخاري في خلق أفعال العباد، وابن شالهين في الترغيب في الـذكر، وأبـو نعيم في المعرفة.

قال: إذا سألك مسكين ألا تعطيه؟
قلت: بلى.. وهذا هو الركن الأول.
قال: فإذا رأيت فقيرا طيبا عفيفا استحيا من مد يده.. ألا تعطيه؟
قلت: بل أقدمه على السائل.
قال: لم؟
قلت: الله تعالى هو الذي أمرنا بذلك، فقد قال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 273)
قال: فكذلك من عرف بسيما الصلاح كان الله في عونه، سأل، أو لم يسأل.

الدعاء

اقتربنا من الباب الأول من أبواب الاستعانة بالله، وقد كتب عليه بحروف من نور قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة:186)
فقال لي المعلم: أول مفتاح من مفاتيح الاستعانة بالله هو الدعاء، فبه تطرق أبواب الجود، وتمد أيدي العون، وترسل أمداد الإغاثة.
قلت: ما سر أمر الله لنا بالدعاء، مع كونه لا يتضمن إلا مصالحنا، وهي من الفطرية بحيث لا تحتاج إلى الإلحاح في طلبها؟
قال: هذا سر من أسرار كرم الله.. فالكريم ليس من أعطاك بعد أن تسأله، وإنما الكريم هو الذي يسألك أن تسأله.
قلت: كيف؟
قال: لأنك إذا اضطررت إلى سؤال من لم يطلب منك أن تسأله قد يشق عليك السؤال خوفا من الرد.. ولكنه إن فتح لك المجال بطلبه حل عقدة لسانك بالسؤال.
قلت: لهذا ـ إذن ـ كان من رحمة الله ودلائل فضله أنه يحثنا على دعائه وطلب الحاجات منه، واعدا إجابة من دعاه وتحقيق سؤله، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر:60)
قال: ليس ذلك فقط، بل اعتبر عدم رفع الأيدي بالدعاء نوعا من أنواع الكبر، فقال تعالى تتمة للآية التي ذكرتها: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ

يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (غافر:60)

قلت: لم كان عدم رفع الدعاء كبرا؟

قال: لأنه ناتج عن إعظام النفس لنفسها، فلم تر الله كفؤا لتسأله حاجاتها.

قلت: أتتجرأ النفوس على هذا؟

قال: وكيف لا تتجرأ.. والكبر ابن إبليس.. ألم يكن في وسع إبليس أن يقول ما قال آدم عليه السلام طالبا مغفرة الله؟

قلت: بلى..

قال: فما الذي منعه من ذلك.. متحملا غضب الله في سبيل ذلك؟

قلت: الكبر الكاذب الذي امتلأت به نفسه.

قال: فهكذا من يرث من إبليس كبره.

قلت: لقد أدركت الآن سر قول الشاعر الصالح:

لا تسألنَّ بُنيَّ آدم وسل الذي أبوابه لا تحجب

اللهُ يغضب إن وبُنَيُّ آدم حين

قال: أجل.. فترك الدعاء نوع من أنواع الكبر، أو درك من دركات الغفلة، وكلاهما موجب لغضب الله.

***

سمعت صوتا في القاعة يردد بصوت جميل: ورد في بعض الكتب الإلهية أن الله تعالى يقول: (وعزتي وجلالي لأقطعن أمل كل مؤمل غيري باليأس، ولألبسنه ثوب المذلة عند الناس، ولأخيبنه من قربي، ولأبعدنه من وصلي، ولأجعلنه متفكرا حيران يؤمل غيري في الشدائد، والشدائد بيدي، وأنا الحي القيوم، ويرجو غيري، ويطرق بالفكر أبواب غيري، وبيدي مفاتيح الأبواب، وهي مغلقة، وبابي مفتوح لمن دعاني)

قلت للمعلم: ما هذا؟.. أيتلى غير القرآن الكريم؟

قال: معناه موجود في القرآن الكريم، ألم يقل الله تعالى موبخا المتكبرين الذين أصابهم ببلائه ليرفعوا أيديهم إليه طالبين نجدته، ولكن كبرهم حال بينهم وبين ذلك: وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ((المؤمنون:76)

بل بين تعالى أن غاية البلاء المرسل على الخلق هو دعوتهم إلى طرق أبواب الله، والاستمداد من فضله، ليكون ذلك سببا لاتصالهم بالله وعبوديتهم له، فقال تعالى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ

مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (الأنعام:42 ـ43)، أي هلا إذ جاءهم بأس الله ورأوه في الدنيا تضرعوا ورجعوا إلى الله سبحانه وتعالى، فعلموا أنه ربهم وإلههم ومولاهم، وأنه كما أنه قادر على نفعهم قادر على ضرهم، فاستفادوا من ذلك بالعودة إلى الله، وطاعة رسله..

***

جاءني رجل.. وكأنه يعرفني، فقال: ولكن..

قلت له: ولكن ماذا؟

قال: مع أهمية الدعاء وتأثيره الفاعل في تحقيق المطالب، وفي بث السكينة في النفوس المضطربة، إلا أن وحي الشيطان لا يزال يتسرب إليك ــ أيها المتألم لدائك ــ لينفخ فيك داء اليأس القاتل، ويبعدك عن جوار ربك القوي إلى جوار نفسك القاصرة.

قلت ـ وقد تصبب مني العرق حياء ـ: أجل، وأستغفر الله.. فما المخرج؟

قال: لقد توصل أطباء هذا المستشفى ـ انطلاقا من القرآن الكريم ــ إلى وضع أربعة أدوية تعالج الأوهام التي يبني بها الشيطان الأبراج التي تحول بينك وبين الاستمداد من ربك.

قلت: أأنا الآن مريض بأربعة علل؟

قال: كل من رأى يده قاصرة عن الدعاء، أو لسانه خافتا بالطلب، فهو مريض بأحد أوهام أربعة.

قلت: فما الأول؟

قال: وهم الضعف الذي يقول لك: (اعمل وراع الأسباب، فالكون كله أسباب، لا مكان فيه للخوارق)

قلت: فما الوهم الثاني؟

قال: وهم المعارضة الذي يقول لك: (من أنت حتى تعارض مقادير ربك، فقد جف القلم بما كان، ولن يؤخر دعاؤك، ولن يقدم)

قلت: فما الوهم الثالث؟

قال: وهم النقص الذي يقول لك: (الدعاء سلوى القاصرين، أما الكمل، فليس لهم خيار مع ربهم، ولا يريدون إلا ما أراد:

وليس لي في سواك حظ فكيفما شئت فاختبرني)

قلت: فما الوهم الرابع؟

قال: وهم اليأس الذي يقول لك: (كل الناس يرفعون أيـديهم، ولكن كل أيديهم ترجع صفرا.. فالتمس لك أسبابا أخرى)

قلت: هذه الأمراض، فأين الأدوية؟

قـال: فبـأي الأمـراض أصـبت أنت حـتى أدلـك على موضـع الدواء.

قلت: لعلي مريض بجميعها.. لا أدري.

قال: فسر إلى هـذه العيـادات الأربـع بصـحبة معلمـك، ففيهـا أدوية الأوهام الأربع.

وهم الضعف:

سرنا إلى القاعة التي يعالج فيها وهم الضـعف، فقـرأت على بابه مكتوبا: (هذا وهم ينفخـه الشـيطان في النفـوس الـتي تتصـور الكـون بصـورة معـادلات رياضـية، تتحكم في اللـه، ولا يتحكم اللـه فيها، فلذلك قد تنكر الخوارق، أو لا تنسـبها إلا للأنبيـاء والصـديقين، أمـا من عـداهم فهم تحت رحمـة القـوانين حلـوة كـانت أو مـرة، والتعامــل معهــا ينبغي أن يكــون بالســعي والاجتهــاد لا بالســؤال والتواكل)

قلت للمعلم: إن هــذا الكلام يحتــوي على بعض الحــق على الأقل، فالله تعالى قدر للكون مقادير ثابتـة ووضـعه بنظـام دقيـق، كما قال تعالى: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (القمر:49)

وأخبر أن مـا يـنزل من فضـله يـنزل بمقـادير محـددة، فقـال تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَـا نُنَزِّلُـهُ إِلَّا بِقَـدَرٍ مَعْلُـومٍ (الحجر:21)

بل أخبر أن الغيث النازل نازل بمقادير دقيقـة محـددة، فقـال تعالى: وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتـاً كَـذَلِكَ تُخْرَجُونَ (الزخرف:11)

قال: ولكن مع ذلك، فإن الله تعالى رب القوانين، وهـو الـذي يتحكم فيها، وليست هي التي تتحكم فيه، ولذلك من الخطأ اعتقـاد عدم ربوبية الله على القوانين، والله هو رب كل شـيء.. أرأيتم لـو أن أحدكم وضع نظاما من أنظمة هـذا الجهـاز الـذي تـدمنون على الجلوس بجانبه.

قلت: الحاسب الآلي..

قــال: أجــل.. فهــل يمكن لــه أن يضـع لــه من الاختيــارات والخصائص ما يشاء.. ثم يغيرها كما يشاء؟

قلت: مثل ماذا؟

قال: بأن يغير نوع الخط مثلا أو لونه، أو يضع صورا بدل صور أخرى.

قلت: ذلك بإمكانه.. بل بإمكانه أشياء أخرى كثيرة.

قال: فلو أن أحدا من مستعملي برنامجه تعود على لون معين.. فتصور أن ذلك اللون هو اللون الوحيد لذلك النظام.

قلت: هذا إما جاهل أو مكابر.. ومن البساطة الرد على دعواه.

قال: كيف؟

قلت: نتصل بمصمم النظام ليضع له واجهة أخرى تفند رأيه ومذهبه.

قال: فهذا الاتصال هو الدعاء.. والله هو واضع قوانين الخلق وبرامجهم.

قلت: ولكن.. كيف نرد على من يعتبر الدعاء نوعا من التواكل والقعود؟

قال: لا.. الدعاء نوع من الاستعانة بالله، وهو لما يحدثه في النفس من الأمل قوة فاعلة لها تأثيرها الإيجابي في الخروج من الأزمات.. واسمع لما يقول الشهود.

قلت: أهنا شهود أيضا؟

قال: الشهود في كل مكان..

رأيت أعجميا يقول بعربية مختلطة بعجمة: (الدعاء ــ إضافة إلى قدرته في بث الطمأنينة في النفس ــ يؤدي إلى نوع من النشاط الدماغي في الإنسان، وإلى نوع من الانشراح، والانبساط الباطني وأحياناً إلى تصعيد روح البطولة والشجاعة فيه. الدعاء يتجلى بخصائص مشخصة فريدة.. صفاء النظرة، وقوة الشخصية، والانشراح والسرور، والثقة بالنفس، والاستعداد للهداية، واستقبال الحوادث بصدر رحب، كل هذه مظاهر لكنز عظيم دفين في نفوسنا، وانطلاقاً من هذه القوّة يستطيع حتى الأفراد المتخلفون أن يستثمروا طاقاتهم العقلية والأخلاقية بشكل أفضل، وأكثر)(1)

سرنا قليلا، فرأينا أعجميا آخر يقول بعربية مختلطة بعجمة: (حينما ندعو فإننا نربط أنفسنا بقوة لا متناهية تربط جميع الكائنات مع بعضها.. إنّ أحدث العلوم الإنسانية ـ أعني علم النفس ــ يعلّمنا نفس تعاليم الأنبياء، لماذا؟ لأن الأطباء النفسانيين أدركوا أن الدعاء والصلاة والإيمان القوي بالدين يزيل عوامل القلق

1) نقلا عن: الأمثل للشيرازي: 1/462.

والاضطراب والخوف والهيجان الباعثة على أكثر أمراضنا)[2]

قلت: فالدعاء إذن عامل قوة لا عامل الضعف.

قال المعلم: الضعيف المؤمن بالله المتوكل عليه قد يتوجه للأعمال العظيمة، ويقوم بها خير قيام، لأنه لم يقم بها بذاته، بل قام بها بمعونة الله، وبمدده وفضله.. بينما القوي ــ الذي يتصور نفسه قويا ــ قد يقف أمام أبسط الأمور، لأن المعادلات التي رسمها له شيطان الأسباب لا تسمح له بالإقدام.

بينما نحن كذلك دخل طبيب بمئزره الطبي، فرنت له العيون، فقلت للمعلم: من هذا؟

قال: هذا الطبيب مختص بذكر النماذج التي تحطم أوهام المختبئين تحت عباءة الأسباب والقوانين الغافلين عن رؤية مسبب الأسباب.

قلت: فهو عالم بالرجال إذن.

قال: عالم بالأولياء.. لا بكل الرجال.. فأصخ سمعك إليه.

قال: أما النموذج الأول، فهو موسى عليه السلام عندما وقع في الحصار، البحر أمامه، والعدو من ورائه، حينذاك قال الغافلون من قومه: (أين المفر؟ ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ (الشعراء:61)

ولكن موسى عليه السلام قال بثقة المؤمن:﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ((الشعراء:62)

وعندما قالها انخرمت قوانين السيولة في البحر، واستسلم البحر لربه، وتحول إلى طريق يبس سار فيه موسى عليه السلام ومن معه.

صاح المرضى: الله ! الله !

وصحت معهم بلا شعور: الله ! الله ! لقد كان الدعاء هو مدد موسى عليه السلام، وهو مصدر قوته، كما أن الاعتماد على الأسباب هو سبب ضعف قومه المخذولين.

قال الطبيب: والنموذج الثاني، مع موسى عليه السلام أيضا، وهو موقف قومه من أمر موسى عليه السلام لهم بدخول الأرض المقدسة، قال لهم باعتباره الزعيم الذي أنقذهم من بطش فرعون، وباعتباره محل ثقتهم، فالخوارق يرونها أمامهم كما نرى القوانين العادية:﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (المائدة:21)

لكنهم غفلوا عن قدرة الله التي شقت البحر لتنقذهم،

---

2) الأمثل: 1/462.

وواجهوا هذا الأمر الإلهي ـ كما واجهوا غيره ـ بتخاذلهم، قالوا: ﴿ يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ (المائدة:22)

ولكن رجلين صالحين قويين منهم دلوهم على الطريق الذي يدخلون به إلى هؤلاء القوم، قال تعالى واصفا هذا الموقف: ﴿ قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة:23)

فقد دلوهم على أمرين:

مراعاة الأسباب: بالدخول عليهم من الباب.

مراعاة قدرة الله: بالتوكل عليه والاستعانة به.

لكن هؤلاء أبوا إلا النظر إلى قوتهم وحدها وأسبابهم وحدها، فقالوا، وبإصرار عظيم: ﴿يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة:24)

حينذاك لم يجد موسى ﷺ حلا إلا الفرار إلى ربه، فقال: ﴿ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة:25)

واستجاب له ربه كما عوده، وطمأنه، قال تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة:26)

صاح المرضى: الله ! الله !

وصحت معهم بلا شعور: الله ! الله !

قلت للمعلم: إن حياة موسى ﷺ في القرآن الكريم مثال عظيم على التوجه إلى الله في جميع الساعات: ساعات الشدة، وساعات الرخاء.

قال: أجل.. فإنه بعد أن قتل نفسا، وهو الذي يملك شفافية الإيمان وحساسيته، لم ينهد كيانه، ولم تخر قواه، بل قال متوجها لربه: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾ (القصص:16)، وما إن قالها حتى غفر له، بل نجاه من الغم الذي يصيب المؤمنين بعد وقوعهم في الخطأ، قال تعالى يذكر فضله عليه: ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ ﴾ (طه:40)

وحينذاك لم ينس الله الذي أجاب دعاءه، بل توجه إليه بقلبه الرقيق شاكرا: ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ (القصص:17)

وعندما جاءه الرجل يسعى محذرا قائلا: ﴿ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾(القصص:20)، قدم موسى الأسباب وهو ملتجئ لرب الأسباب، قال تعالى: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (القصص: 21)

أما الأسباب فخروجه خائفا مترقبا محتاطا متخذا كل الأسباب المادية، أما لجوؤه لرب الأسباب، فهو دعاؤه الله بأن ينجيه من القوم الظالمين، وهو يؤمل في فضله: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (القصص:22)

وعندما ورد ماء مدين، ولم يكن الوقت كافيا لأي عمل يمكن أن يكسب منه قوته توجه إلى ربه ـ كما يتوجه الصغير إلى والديه ـ قائلا: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (القصص:24)

وفي تلك اللحظة جاءه المدد الإلهي الذي لم يتخلف عنه لحظة من اللحظات.

قلت: إن من قومي من يقرأون هذه الأحداث التي يقصها القرآن الكريم كما يقرأون ألف ليلة وليلة، وهم يملأونها بالأساطير فوق ذلك.

قال: لا.. هذا تحريف خطير.. إن القرآن الكريم لا يرسم هذه الصور، ولا يعيد الحياة في هذه الأحداث إلا ليزيل عنكم الأوهام التي تحول بينكم وبين ربكم متلبسة ثياب العلم والحكمة.. فلا تتخذوا آيات الله هزؤا..

قلت: أهذا من ذاك؟

قال: بل هو أخطر من ذاك.. فالمستهزئ قد يتوب، أما هؤلاء فتشغلهم غفلتهم وما زين لهم عن مد أيديهم لله بالتوبة.

وهم المعارضة:

سرنا إلى القاعة التي يعالج فيها وهم المعارضة، فقرأت على بابها مكتوبا: (هذا وهم ناشئ عن سوء الفهم للقدر، ولعلاقة الله بعباده، وعنه تنشأ أوهام كثيرة تصور الله صورا لا تليق بجلاله وجماله ورحمته وحكمته)

قلت للمعلم: فسنبحث في هذا الباب إذن مسألة القدر.

قال: لا.. ليس بتفاصيلها.. فلذلك رحلة خاصة ودرس خاص نعرفه عندما نبحث في (أسرار الأقدار)

قلت: والآن.. وفي هذه القاعة؟

قال: سنعرف عدم التعارض بين الدعاء والقدر.

قلت: فما أول علاج نستفيده لعلاج هذا الوهم؟

قال: أول ما نستضيء به لـدفع هـذا الـوهم هـو التسـليم للـه واعتقاد عجزنا عن فهم حقائق الكون.

قلت: لا أرى الوهم يزال إلا بالعلم، فكيف تدلنا على التسـليم الذي يبقي الجهل راسبا في محله؟

قال: ألستم تستفيدون من الكهرباء؟

قلت: لو انقطعت الكهرباء على البشرية يوما واحدا لأصـبحت الأرض غير الأرض.

قال: فكم من الخلق يعرفون أسرارها؟

قلت: أفراد معدودون اختصوا في هـذا الجـانب.. ومـع ذلـك.. فإنهم كل يوم يكتشفون أشياء جديدة، ويصححون معلومات كـانت خاطئة.

قال: فإذا سلمتم لهؤلاء، فلم لا تسلمون لله الـذي خلـق كـل شيء وقدر كل شيء.

قلت: ما نسلم؟

قال: ما يتوهمه الغافلون تناقضا.

قلت: كيف ذلك؟

قال: الله تعالى أخبرنا بأنه قدر مقادير كل شيء، ودعانـا في نفس الوقت أن ندعوه، ووعدنا بإجابة دعواتنا.

قلت: هذا صحيح، وليس في ذلك أي تناقض.

قال: لا.. الغافلون اعتـبروا هـذا تناقضـا، فقـالوا: كيـف يجيب دعواتكم، وقد قدر المقادير وانتهى منها، وما سجل سيكون(1)؟

---

1) ذكر الفخر الرازي ما استدل به المتعلقون بهذا الوهم، ومما ذكره:

1. أن المطلوب بالدعاء إن كان معلوم الوقوع عند الله تعـالى كـان واجب الوقـوع، فلا حاجة إلى الدعاء، وإن كان غير معلوم الوقوع كان ممتنع الوقوع، فلا حاجـة أيضـا إلى الدعاء.

2. أن حدوث الحوادث في هذا العالم لا بد من انتهائها بالآخرة إلى المـؤثر القـديم الواجب لذاته، وإلا لزم إما التسلسل، وإما الدور وإما وقوع الحـادث من غـير مـؤثر وكـل ذلك محال وإذا ثبت وجوب إنتهائهـا بـالآخرة إلى المـؤثر القـديم، فكـل مـا اقتضـى ذلـك المؤثر القديم وجوده اقتضاء قديما أزليـا كـان واجب الوقـوع، وكـل مـا لم يقتض المـؤثر القديم وجوده اقتضاء قديما أزليا كان ممتنع الوقوع، ولما ثبتت هـذه الأمـور في الأزل لم يكن للدعاء أثر.

3. أن الأقدار سابقة والأقضـية متقدمـة والـدعاء لا يزيـد فيهـا وتركـه لا ينقص شـيئا منها، فأي فائدة في الدعاء،.

4. أنـه سـبحانه علام الغيـوب يعلم خائنـة الاعين ومـا تخفى الصـدور، فـأي حاجـة بالداعي إلى الدعاء؟

5. أن المطلوب بالدعاء إن كان من مصالح العبد فالجواد المطلـق لا يهملـه وإن لم يكن من مصالحه لم يجز.

قلت: ألم ينتبهوا إلى أن الذي أخبر عن قـدره هـو الـذي أمـر بدعائه؟

قال: هم يأخذون ببعض الكتاب، ويهجرون بعضه.

قلت: والمؤمنون المسلمون لله؟

قال: لا يسألون هذا السؤال، بل لا يخطر ببالهم، كما لا يخطر ببال كل الناس مـا يقولـه الطـبيب أو المهنـدس مـا دامـا يتكلمـان انطلاقا من خبرتهما واختصاصهما.

قلت: ألهذا إذن يخبر ﷺ بـأن البلاء ينفـع ممـا نـزل، وممـا لم ينزل، قال ﷺ: (لا يغنى حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نـزل وممـا لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان الى يوم القيامة)(1)، وقال ﷺ: (لا يرد القدر الا الدعاء، ولا يزيد في العمـر الا الـبر، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه)(2)

قال: أجل ليكون ذلك زادا للمؤمنين المسـلمين للـه، ويكـون علاجا نافعا للغافلين المتوهمين.

قلت: فما البذرة التي أنبتت هذا الوهم؟

قال: كيف وأخواتها.

قلت: لم أفهم قصدك.

قال: هو سؤالهم عن الكيفية، وهي تعـني البحث عن أمـور لا طاقة للعقل بفهمها أو للخيـال بتصـورها، فلـذلك كـان الكمـال في التسليم للخبير لا معارضته.

قلت: ولكن هؤلاء يقعون في خطأ عظيم، فهم يمارسون في حياتهم العادية خلاف ما يقتضيه تصورهم لمسألة الدعاء.

قال: أجـل.. فهم يـأكلون إذا جـاعوا، ويشـربون إذا عطشـوا، ويتـداوون إذا مرضـوا، ولا يقـول أحـد منهم: إن ذلـك معارضـة للمقادير، ولـو شـئنا لقلنـا لهم: لمـاذا تفـرون من المـوت بأسـباب الحياة التي تتفننون في الحرص عليها، ألا تعارضون بذلك المقـادير التي حددت آجالكم؟

قلت: فالـدعاء سـبب من الأسـباب، لا يختلـف عن سـائر الأسباب التي يمارسها كل البشر في جميع الأحوال.

قال: أجل.. هكذا أخبرت النصوص.

---

6. أن أجل مقامات الصديقين وأعلاها الرضا بقضاء الله تعـالى والـدعاء ينـافي ذلـك لأنه اشتغال بالإلتماس وترجيح لمراد النفس على مراد الله تعالى وطلبه لحصة البشر.

7. أن الدعاء يشبه الأمـر والنهي وذلـك من العبـد في حـق المـولى الكـريم الـرحيم سوء أدب.

1) ابن عدي، والحاكم.

2) البيهقي في الشعب، والطبراني في الكبير.

رأيت رجلا في تلك القاعة، قد التف حوله جمع من المرضى، سألت المعلم عنه، فقال: هذا الغزالي، وهو ـ كما تعلم ـ من أطباء هذا المستشفى.

اقتربنا من الغزالي، فسمعته يقول بحماسة، وكأنه يرافع في محكمة من المحاكم ـ وهو يشير إلى بعض المرضى الجدد ـ: (فإن قلت: فما فائدة الدعاء مع أن القضاء لا مرد له؟ فاعلم أن من جملة القضاء رد البلاء بالدعاء، فالدعاء سبب لرد البلاء ووجود الرحمة، كما أن الترس سبب لدفع السلاح، والماء سبب لخروج النبات من الأرض، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان، فكذلك الدعاء والبلاء، وليس من شرط الاعتراف بالقضاء ألا يحمل السلاح، وقد قال تعالى: ﴿ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ (النساء: 102)، فقدَّر الله تعالى الأمر وقدَّر أسبابه)(1)

قال المعلم: لقد تحقق هذا المعنى في منتهى كماله في رسول الله ﷺ فقد كان يعطي لكل مقام حقه من العبودية، ولعل أدل مثال على ذلك ما وقع منه في غزوة بدر، فقد أراه الله مصارع المشركين حتى أنه أخذ يرها للصحابة، ومع ذلك لم يكف ﷺ من الإلحاح على ربه في الدعاء، عن علي قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح.

وفي يوم المعركة نام رسول الله ﷺ، ثم استيقظ فزعا، وهو رافع يديه يناشد ربه ما وعده من النصر، ويقول: (اللهم إن تظهر على هذه العصابة يظهر الشرك ولا يقم لك دين)

قلت للمعلم: لكن بعض سالكي طريق المعرفة تأدبوا، فقالوا بشرعية الدعاء، ولكنهم قصروه على المعنى التعبدي المحض الذي يطلب به العبد مجرد الثواب من غير أن يكون له أي تأثير في تحقيق المطلوب.. فلا فرق عند هؤلاء بين الدعاء والامساك عنه بالقلب واللسان في التأثير في حصول المطلوب.. بل إن ارتباط الدعاء عندهم بتحقيق المطلوب كارتباط السكوت، لا فرق بينهما.

قال: هذا الرأي يتناقض مع ما صرحت به النصوص من جعل الله تعالى الدعاء سببا في تحقيق المطالب، بل هو يتناقض أصلا مع تشريع الدعاء، بل يعتبر قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر:60) قولا لا معنى له.. بل يعتبر كل ما ورد من

1) الإحياء: 1/328.

النصوص الحاثة على الدعاء، والمخبرة عن إجابة الله تعـالى دعـاء الداعين وتضرع المتضرعين لا حقيقة لها.

قلت للمعلم: لقد ذهب بعضهم إلى اعتبار الدعاء علامة جعلها الله تعالى أمارة على قضاء الحاجة، فمتى وفق العبد للـدعاء كـان ذلك علامة له على أن حاجته قد قضيت، وشبهوا ذلك بدلالــة الغيم الأسود في الشتاء على أنه يمطر.

وعممـوا هـذا القـول على جميـع الطاعـات والمعاصـي، فهي أمارات محضة عندهم لوقوع الثـواب والعقـاب، لا أسـباب حقيقيـة له.

بل عمموا ذلك في جميع ما يحدث في الكون من آثار، فكلهـا أمارت فالكسر مع الانكسار ليس سببا، بل لا ارتباط بينـه وبين مـا يترتب عليه إلا مجرد الاقتران، لا التأثير السببي.

قـال: فهـل يمنـع هـذا القـول الـداعين من رفـع أيـديهم للـه بالدعاء؟

قلت: لا..

قال: فلا حرج في هذا القول ما دام لا يمنعهم من رفع أيديهم إلى الله بالدعاء.

قلت: لقد أنكر بعضـهم هـذا القـول، واشـتدا في الإنكـار، بـل اعتبراهم مخـالفين لــ (الحس والعقـل والشـرع والفطـرة وسـائر طوائف العقلاء، بل أضحكوا عليهم العقلاء)(1)

قال: لا نرى صحة هذا الإنكار، بل نرى أن الاختلاف فيها مجرد اختلاف نظري لا مبرر له، ولا حاجة إليه، أو هو اختلاف تنوع، أو هـو اختلاف في التفسير لا أثـر لـه، فسـواء قلنـا بـأن الـدعاء أمـارة أو سبب لا يختلف الأمر بالنسبة للداعي، ولا يقعده ذلك عن الدعاء.

قلت: ولكن القول بالسببية له تأثيره الخاص.

قال: لا.. بل إن القول بكون الدعاء أمارة قد يكون أكثر تأثيرا في الدعوة إلى استعمال الدعاء من القول بالسببية.

قلت: كيف هذا؟

قال: لأن الـداعي إذا عـرف أن الـدعاء علامـة على اسـتجابة الله قد يجعله أكثر إقبالا عليه من اعتقاده سببا، فالسبب قد يقصـر عن تحقيق المطلوب بخلاف جعله علامة..

قلت: لقد ذكرتني بشاعر اقتبس هذا المعنى، فأحسـن، فقـد قال:

---

1) انظر: مدارج السالكين: 3/409.

لو لم ترد نيل ما أرجوه وأطلبه من جود كفيك ما علمتنى الطلبا

قال: وهناك ناحية أخرى أهم من هذه.

قلت: وما هي؟

قال: هي الأثـر الـروحي الـذي يتركـه اعتقـاد كـون الـدعاء أو العبادة أمارة لا سببا في حد ذاته.

قلت: أإلى هـذه الناحيـة أشـار العـارفون عنـد حـديثهم عن الدعاء، فقد نبه أبو الحسن الشـاذلي إلى الاشـتغال بمناجـاة اللـه قبل الاشتغال بتحقيق المطـالب، فقـال: (لا يكن همـك في دعائـك الظفر بقضاء حاجتك فتكون محجوباً، وليكن همك مناجاة مولاك)؟

وقال ابن عطاء الله: (لا يكن طلبـك تسـبباً إلى العطـاء منـه، فيقل فهمك عنـه. وليكن طلبـك لإظهـار العبوديـة، وقيامـاً بحقـوق الربوبية)؟

ثم علل كون الطلب لا يكون سبباً للعطاء بثلاث علل:

أما العلة الأولى، فعبر عنها بقوله: (كيف يكون طلبك اللاحـق سبباً في عطائه السابق؟)، فعطاء اللـه للعبـد عطـاء أزلي سـابق، وهو السبب في العطـاء الحـادث، والسـبب لا بـد من تقدمـه على المسـبب، وهـو كمـا قـال الواسـطي: أقسـام قسـمت، وأحكـام أجريت، كيف تستجلب بحركات أو تنال بسعايات؟

أمـا العلـة الثانيـة، فعـبر عنهـا بقولـه: (جـل حكم الأزل أن ينضاف إلى العلل)، أي أن حكم الله يتنزه ويتقدس أن يؤثر فيه أي مؤثر.

أما العلة الثالثة، فعبر عنها بقوله: (عنايته فيك لا لشيء منـك، وأين كنت حين واجهتك عنايته، وقابلتـك رعايتـه؟ لم يكن في أزلـه إخلاص أعمــال، ولا وجــود أحــوال. بــل لم يكن هنــاك إلا محض الإفضال، وعظيم النوال)

قال: هذا صحيح.. وهو لا يتناقض مع ما سبق ذكره، بل يكمله ويضفي على الدعاء من المعاني الجميلة والارتباط بالله مـا يرفعـه إلى مستويات عالية من العبوديـة.. فـإن معرفـة كـون عنايـة اللـه الأزليــة هي الســبب في كــل نعمــة يشــعر القلب بمحبــة اللــه واصطفائه على الكثير من خلقه، وهو ما يجعله يعبد الله مستشعرا منته عليه، وإحسانه السابق إليه.

قلت: أهـذا هـو مقصـود العـارفين من ذكـر التوحيـد بجـانب الدعاء؟

قال: أجل.. الدعاء سبب شرعي معتبر، ولكن الشرع الذي شرع الدعاء وبين تأثيره في قضاء الحوائج هو الذي بين سبق عناية الله بعبده، فيفنى العارف في الفضل السابق، وينشغل الغافل بالسبب اللاحق.

وهم النقص:

سرنا إلى القاعة التي يعالج فيها وهم النقص، فقرأت على بابها مكتوبا: (هذا الوهم ناشئ من سوء فهم لكلام الأولياء)(1)

قلت: ما هذا الوهم ـ يا معلم ـ؟

قال: هو ما كتب على الباب.

قلت: ولكنه لم يحدد الموضوع الذي أسيء فهمه.

قال: الأولياء والمقربون ربما تركوا الدعاء رضى بالقسمة الإلهية.

قلت: لقد عبر على موقفهم هذا ابن عطاء الله بقوله: (ربما دلهم الأدب على ترك الطلب؛ اعتماداً على قسمته؛ واشتغالاً بذكره عن مسألته)

قال: فهذه الحكمة لا تدل على تركهم الدعاء مطلقا، بل يدل على أنهم ربما تركوا الدعاء في بعض الأحيان لاشتغال بعبادة أو رضى بما قسم لهم.

قلت: ولكن مع ذلك.. أليس فيه مخالفة للنصوص، فإنها تحث على الدعاء مطلقا؟

قال: لا.. ليس الأمر بهذه الصورة، فإن ما ذكروه في هذا الباب صحيح لا مشاحة فيه، وقد ورد ما يؤيده من النصوص كقوله ﷺ في الحديث القدسي: (من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين)(2)

ألم نقل في بداية هذا القسم: إن الاستعانة بالله قد تتحقق بالسؤال، وقد تتحقق بالعمل الصالح؟

قلت: بلى، وقد ضربنا المثل على ذلك بالفقير المتسول، والمسكين المتعفف.. ولكن كيف نتعفف مع الله، وهو الذي أمرنا بالسؤال؟

قال: ليس الأمر كذلك.. بل إن الأمر لا يعدو مجرد رضا

---

1) ذكرنا في هذه الرسائل كثيرا أن دور العارفين التربوي هو الحديث عن الجوانب المعرفية المتعلقة بالتكاليف الشرعية، وجمع القلوب على حقائق التوحيد، تكميلا لدور الفقهاء، لا مناقضة لهم، لهذا تحدثوا في هذا الباب عن جانب مراعاة العبودية في الدعاء مع الاعتقاد بالمنة لله في الدعاء أو في تحقيقه.

2) البخاري في خلق أفعال العباد، وابن شالهين في الترغيب في الذكر، وأبو نعيم في المعرفة، والبيهقي.

بقسمة الله، وانشغالا بطاعته.

قلت: ولكني قد قرأت للواسطي قولا يجعل العلة غير هذا.. فقد قال: (أخشى إن دعوت أن يقال لي: إن سألتنا مالك عندنا فقد اتهمتنا، وإن سألتنا ما ليس لك عندنا فقد أسأت الثناء علينا، وإن رضيت أجرينا لك من الأمور ما قضينا لك في الدهور)

قال: هذا القول من الواسطي تعبير عن حالة وجدانية معينة، وليس تعبيرا عن مذهب أو فكرة كما قد يتصور.

قلت: ولكنه قد يكون معارضا للدعاء، أو يكاد يعتبره نقصا.

قال: لا.. سوء الفهم هو الذي جر إلى هذا المعنى.. لم يحتقر أحد من الأولياء ما عظمه الله، ولكن هذا تعبير عن أحوال معينة.

قلت: ولكن كلامه واضح.. فلماذا نتعسف في تأويله.. وهو ليس قرآنا حتى ندافع عنه.

قال: القرآن الكريم أعظم من أن يحتاج للدفاع عنه.. ولكنا ندافع عن الحقيقة التي أسيء فهمها.. فلا ينبغي أن نقول: أخطأت إلا لمن أخطأ.

قلت: فلماذا لا نقول لهذا: أخطأت؟

قال: ألم يمر رسول الله ﷺ بمواقف كثيرة كان يكتفي فيها بتصاريف الأقدار عن الإلحاح في الدعاء.

قلت: بلى.. ويكفي من ذلك أنه ﷺ كان يعصب الحجر على بطنه من الجوع.. ومع ذلك لم يسأل الله رغيفا واحدا.

قال: بل إن في القرآن الكريم ما قد يستدل به على هذا.

قلت: أين؟

قال: تأخر طلب أيوب تعالى وصبره تلك الفترة الطويلة، كما قال تعالى: ﴿، وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ((الانبياء:83)

قلت: لقد روي أنه مكث في البلاء مدة طويلة ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له، كان يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم واللّه لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين، فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه اللّه فيكشف ما به، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل، حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب عليه السلام: ما أدري ما تقول غير أن اللّه عزَّ وجلَّ يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران اللّه، فارجع إلى بيتي

فأكفّر عنهما كراهية أن يذكرا اللّه إلا في حق)[1]

قال: والأصرح من ذلك تأخر دعاء نوح تعالى على قومه كل تلك السنين الطويلة.

قلت: أجل، فقد ذكر الله تعالى مدة ذلك، فقال: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً ﴾ (العنكبوت:14)

قال: ومن ذلك تأخر دعاء إبراهيم وزكريا ــ عليهما السلام ـ في طلب الولد إلى أن بلغا من العمر عتيا.

قلت: أجل، فقد ذكر الله تعالى تعالى عن زكريا عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً ﴾ (مريم:4 ـ5)

قال: فزكريا عليه السلام مع علمه بأنه لم يكن بدعاء ربه شقيا، أي ولم يعهد من الله إلا الإجابة في الدعاء، إلا أنه لم يستعمل هذا السلاح إلا بعد أن اضطر إليه اضطرار.

قلت: فكيف نوفق بين هذا وذاك؟

قال: بأن يوضع كل شيء في محله.

قلت: كيف ذلك؟

قال: الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ دعوا الله في مواقف كثيرة، وتركوا الدعاء في مواضع أخرى اكتفاء بالله.. فالكمال في الجمع بين الأمرين.

قلت: ما ضوابط ذلك؟

قال: ليس لذلك ضوابط محددة، ولو كانت هناك ضوابط لما اختلف الناس في هذا الباب.

قلت: فالأمر يرجع إلام؟

قال: يرجع إلى الحالة الوجدانية.. أليس الدعاء علاقة وجدانية بين الله وعبده، فقد يدفع العبد أحيانا، وبدون شعور إلى أن يسأل الله أمرا معينا، فيسأل الله، وقد لا يشعر بذلك الدافع، فيكتفي بنظر الله.

وهم اليأس:

سرنا إلى القاعة التي يعالج فيها وهم اليأس، فقرأت على بابها مكتوبا: (هذا الوهم ناشئ عن علتين، إحداهما فطرية، والثانية مكتسبة)

العلة الفطرية:

---

1) ابن أبي حاتم.

قلت: فما الفطرية؟

قال: العجلة، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ (الانبياء:37)، وقوله تعالى: ﴿ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولاً ﴾ (الاسراء: 11)

قلت: بلى.. فالاستعجال صفة فطرية في الإنسان باعتبار عمره القصير، وبسببها آثر العاجلة على الآجلة، والنقد على النسيئة، كما قال تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً ﴾ (الاسراء: 18)

وبسببها طلب المشركون العذاب ليتأكدوا من صدق رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (العنكبوت:54)

قال: وقد أشار ﷺ إلى هذه العلة، واعتبرها حجابا بين العبد واستجابة ربه له، فقال ﷺ: (يستجاب لأحدكم ما لم يَعجَل فيقول: قد دعوت ربي فلم يستجب لي) (1)، فالله عز وجل لا يعجل بعجلة ابن آدم، ولكن لكل قضاء عنده موعد.

قلت: فما علاج هذه العلة؟

قال: هنا أربعة رقاة مختصون في علاج هذه العلة.

قلت: أيدخل لهذا المستشفى الجن أيضا؟

قال: الجن خلق من خلق الله، وفيهم الصالحون، فما الذي يمنع دخولهم؟

قلت: ويسكنون بني آدم.

ضحك، وقال: ولم يسكنونهم؟.. أضاقت عليهم الأرض حتى يسكنوا الإنسان؟.. ما مناسبة هذه الأسئلة؟

قلت: لقد ذكرت الرقاة.

قال: الرقاة هم الأطباء الذين يعالجون هذه العلل.. انظر لقد بدأوا في العلاج، فهلم نستمع إليهم.

قال الراقي الأول: أول ما يجرك من هذا الوهم هو تسليمك الأمر لله في تحقيق المطلوب أو عدم تحقيقه، لأن الله أعلم بمصالح العباد منهم بمصالح أنفسهم.

ويكون الإنسان في هذه الحالة كصبي صغير بين يدي والديه، يطلب منهما كل ما يلوح لبصره، وقد يكون في بعض ما يطلبه داؤه وضرره، فيمنعانه لا بخلا وشحا، وإنما حرصا ورحمة.

---

1) البخاري ومسلم.

وهكذا، فقد يدعو الإنسان بما يتراءى له خيرا، غافلا عن الشر المنطوي في ذلك الخير، والذي أعمته العجلة عن تبصره، ولهذا قال تعالى: وَيَدْعُ الْأِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْأِنْسَانُ عَجُولاً (الإسراء:11)

زيادة على ذلك، فإن الإنسان في مواقف الغفلة قد يدعو دون نظر لعواقب ما يدعو، ومما دعا به المشركون كما نص القرآن الكريم: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (لأنفال: 32)

بل قد يدعو المؤمن في موقف من مواقف الغفلة أو الضجر، فيلعن نفسه وأهله وولده وماله، ولو استجيب له في الشر كما يستجاب له في الخير لهلك، ولهذا قال ﷺ: (لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها)(1)

وإلى هذا المعنى يشير العارفون ـ كما يعبر على لسانهم ابن عطاء الله ـ بقوله: (لا يكُنْ تَأَخُّرُ أَمَد العَطاء مَعَ الإلْحاح في الدّعَاءِ موجبَاً ليأسِك؛ فهو ضَمِنَ لَكَ الإجابَةَ فيما يختارُهُ لكَ، لا فيما تختاره لنَفْسكَ وفي الوقْتِ الذي يريدُ، لا في الوقْت الذي تُريدُ)

وإلى ذلك أشار في الحكمة الأخرى بقوله: (ربما منعك فأعطاك وربما أعطاك فمنعك)

بل ذلك ما يدل عليه قوله تعالى: وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (البقرة:216)

قال الراقي الثاني: أما الرقية الثانية، فهي أن الدعاء قد يكون مجابا، ولكنه ينتظر الحين الذي يبرز فيه، وتكون الرحمة في ذلك التأجيل.

وإلى هذا أشارت الحكمة السابقة: (لا يكُنْ تَأَخُّرُ أَمَد العَطاء مَعَ الإلْحاح في الدّعَاءِ موجبَاً ليأسِك؛ فهو ضَمِنَ لَكَ الإجابَةَ فيما يختارُهُ لكَ، لا فيما تختاره لنَفْسكَ وفي الوقْتِ الذي يريدُ، لا في الوقْت الذي تُريدُ)

وقد روي في الآثار أن موسى عليه السلام حين دعا على قوم فرعون فقال: رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (يونس:88)، وقال الله تعالى

1) أبو داود عن جابر.

له: قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا((يونس:89) أربعين سنة.

قال الراقي الثالث: أما الرقية الثالثة، فعبر عنها محمد بن علي حين مر على رجل رآه مغموما، فقال: ما لي أراك مغموماً ؟ فقال: لدين فدحني، قال محمد بن علي: أفتح لك في الدعاء؟ قال: نعم، قال: لقد بورك لعبد في حاجة أكثر فيها دعاء ربه، كانت ما كانت.

وعبر عنها النورسي بقوله: (ولهذا فان عدم القبول الظاهري لدعوتي بالشفاء من مرضي طوال ثلاثين سنة لم يصرفني أبداً من أن أفكر في يوم من الأيام بتركه والتخلي عنه، ذلك لأن المرض أوان الدعاء ووقته، والشفاء ليس نتيجة الدعاء بل إذا وهب الله سبحانه - وهو الحكيم الرحيم - الشفاء فإنه يهبه من فضله وكرمه، وان عدم قبول الدعاء بالشكل الذي نريده لا يقودنا إلى القول بأن الدعاء لم يُستَجب، فالخالق الحكيم يعلم أفضل منا ونحن نجهل، وأنه سبحانه يسوق إلينا ما هو خير لنا وانفع، وأنه يدّخر لنا الأدعية الخاصة بدنيانا أحياناً لتنفعنا في أخرانا، وهكذا يقبل الدعاء. ومهما يكن فان الدعاء الذي اكتسب الإخلاص والنابع من سرّ المرض والآتي من الضعف والعجز والتذلل والاحتياج، قريبٌ جداً من القبول. والمرض أساس لمثل هذا الدعاء الخالص ومداره. فالمريض والذين يقومون برعايته من المؤمنين ينبغي أن يستفيدوا من هذا الدعاء)(1)

قال الراقي الرابع: أما الرقية الرابعة، فهي أن تعلم ــ أيها اليائس الحزين ـ أنك في كل الأحوال لن ترجع صفر اليدين، بل الغنائم التي تنالها من عند ربك لا تعد ولا تحصى، بل هي أبلغ بكثير مما طلبته.

وقد قال ﷺ يعبر عن هذا العلاج: (ما على الأرض مسلم يدعو الله تعالى بدعوة إلا آتاه الله إياها.. أو صرف عنه من السوء مثلها.. ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم)، فقال رجل: إذاً نُكثر قال: (الله أكثر)(2)

العلة المكتسبة:

قلت: عرفنا العلة الفطرية وعلاجها، فما العلة المكتسبة؟

قال: هي سوء المعرفة بالله، والتي ينتج عنها سوء الظن به.

قلت: فما سبب ذلك؟

---

1) اللمعة الخامسة والعشرون: 331.

2) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

قال: سببان قد يجتمعان، وقد يفترقان.

قلت: فما الأول منهما؟

قال: الغفلة التي ترين على القلوب، فتجعلها محجوبة عن الله يائسة من فضله..

قلت: وما الثاني؟

قال: ما سبق من الإنسان من المعاصي، فيتصورها جدارا يحول بينه وبين دعوة ربه أو استجابة ربه لدعائه.

قلت: فأين الرقاة الذين اختصوا بعلاج كلا العلتين؟

قال: أما من كان سبب علته الغفلة، فإنه يرسل إلى قسم (حسن الظن بالله)، ليتعرف على الأسماء الحسنى الكثيرة التي تستدعي حسن الظن بالله، فتنزاح غفلته.

قلت: والسبب الثاني؟

قال: بتقوية الصلة بالله، ألم يقل الله تعالى بعد الأمر بالدعاء: ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: 186)

قلت: بلى..

قال: فمن أراد أن يستجيب الله له، فليستجب هو لله.

قلت: ألا يجيب الله إلا الصالحين.

قال: تعالى الله.. فهو أكرم من ذلك، إنما الدعاء الذي يخرج من فم الخطيئة غير معطر بمسك التذلل والتضرع لا يخرج طاهرا نقيا، فإذا نزلت الإجابة لا تجد المحل الملائم لها.

قلت: لم أفهم هذا.. اضرب لي مثالا يوضحه لي.

قال: لقد استبعد ﷺ أن يستجاب لمن هذا حاله، فقد ذكر ﷺ: (الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام، فأنّى يستجاب لذلك)(1)

قلت: لا أزال أحتاج إلى توضيح أكثر.

قال: لتمثيل حيلولة الجسم الذي نبت من حرام بين الداعي وبين الإجابة نستعير ما تسمونه بصحون الاستقبال الفضائي، فإن هذه الصحون إن حصل لها ما يشوش الصورة بانحنائها أو عدم توجيهها الوجهة المعينة، فإنها لا تستقبل البث الفضائي مع أن موجاته تملأ الأثير.

قلت: فالبخل ليس في الموجات، وإنما في المستقبل لها.

---

1) مسلم.

قال: فلذلك ورد في النصوص التنبيه إلى شروط الدعاء، وهي ترجع جميعها إلى الاستقامة والتأدب بين يدي الله ظاهرا وباطنا، قال تعالى مبينا أدب الدعاء: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (لأعراف:55)، أي بخشوع قلوبكم وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه، لا جهاراً مراءاة.

قلت: لقد ذكرتني بقول علي لنوف البكالي: (يا نوف، إن اللّه أوحى إلى داود أن مر بني إسرائيل ألا يدخلوا بيتا من بيوتي إلا بقلوب طاهرة، وأبصار خاشعة، وأيد نقية، فإني لا أستجيب لأحد منهم، ما دام لأحد من خلقي مظلمة)

وقد ذكر ابن عطاء شروط الدعاء ودعائمه التي يقوم عليها، فقال: (إن للدعاء أركانا وأجنحة وأسبابا وأوقاتا، فإن وافق أركانه قوي، وإن وافق أجنحته طار في السماء، وإن وافق مواقيته فاز، وإن وافق أسبابه أنجح. فأركانه حضور القلب والرأفة والاستكانة والخشوع، وأجنحته الصدق، ومواقيته الأسحار، وأسبابه الصلاة على محمد ﷺ)

وعندما سئل إبراهيم بن أدهم: ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ قال بقوة وصراحة: (لأنكم عرفتم اللّه فلم تطيعوه، وعرفتم الرسول فلم تتبعوا سنته، وعرفتم القرآن فلم تعملوا به، وأكلتم نعم اللّه فلم تؤدوا شكرها، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها، وعرفتم النار فلم تهربوا منها، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه ووافقتموه، وعرفتم الموت فلم تستعدوا له، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا، وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس)

قال: ولكن مع ذلك، لا ييأس المؤمن من رحمة الله مهما كثرت خطاياه أو حالت الحوائل بينه وبين الإجابة، فرحمة الله أشمل وأعم، وقد قال بعضهم: (لا يمنعن أحدا من الدعاء ما يعلمه من نفسه فإن اللّه قد أجاب دعاء شر الخلق إبليس، قال: ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (الحجر:36 ـ 37))

قلت: فهذا هو علاج هذه العلة إذن.

قال: هذه ناحية من العلاج.

قلت: أهناك ناحية أخرى؟

قال: أجل.. فإن الدعاء يقتضي اليقين في الله وفي فضله وقدرته، فلذلك إن دعا يائسا من الإجابة كان ذلك حائلا بينه وبين استجابة دعائه.

قلت: فاضرب لي مثالا يقرب لي هذا.

قال: إن أي أحد من الناس إن طلب منـك شـيئا، وهـو ينظـر إليك بعين الاحتقار، احتقار قدرتك أو كرمك، فإنك لا تعامله وفق ما قال بلسانه، بل وفق ما دل عليه حاله.

وكذلك الله تعالى فإنه لا يجـرب، فمن دعـا مجربـا اللـه ردت عليه دعوته.

قلت: ألهذا ـ إذن ـ ورد في النصوص النهي عن الاسـتثناء في الدعاء مع كونه مرغبا فيه في كل الأحـوال، كمـا قـال ﷺ (إذا دعـا أحدكم فليعزم المسألة ولا يقولن اللهم إن شئت فأعطني، فإنـه لا مستكره له)(1)

قال: أجل، وذلك لما قد ينشره في النفس من احتمـال عـدم الإجابـة، وذلـك لأن في قولـه (إن شـئت) نـوع من الاسـتغناء عن مغفرته وعطائه ورحمته، كقول القائل: إن شـئت أن تعطيـني كـذا فافعل، لا يستعمل هذا إلا مع الغني عنه، وأمـا المضـطر إليـه فإنـه يعزم في مسألته، ويسأل سؤال فقير مضطر إلى ما سأله.

***

خرجنا من هذا القسم، وفي طريقنا لقيت حلقـة يجتمـع فيهم قوم حول رجل، وكـأن على رؤوسـهم الطـير، فسـألت المعلم من هذا؟

قال: هذا القاص.

قلت: الذي يقص القصص.

قال: أجل..

قلت: هلم بنا إليه.. فإن في طبعي ولعا عظيما بالقصص.

قال: ذلك طبع جميـع بـني جنسـك.. فاسـتخدموه في طاعـة الله.

اقتربنا من القاص، فسمعناه يقول: أيهـا اليـائس الـذي ينظـر بعينه الكئيبـة إلى الكـون ورب الكـون، تخلص من قنوطـك وارفـع يديك بالدعاء، فإن رحمة الله الشاملة ستشملك ما دمت مادا يدك إلى الله.

قالت الجماعة المحيطـة بـه: حـدثنا عن تضـرعات الصـالحين لتكون نبراسا يطفئ نيران أوهامنا.

سكن القاصا قليلا، وقلب صفحات كتاب بجانبه، ثم قال: لقـد حدث بعضـهم، قـال: إني لفي الحجـر ذات ليلـة، إذ دخـل علي بن

---

1) البخاري ومسلم.

الحسين، فقلت: رجـل صـالح من أهـل بيت الخـير، لأسـتمعن إلى دعائه الليلة، فصلى، ثم سـجد، فأصـغيت بسـمعي إليـه، فسـمعته يقول: عبيـدك بفنائـك، مسـكينك بفنائـك، فقـيرك بفنائـك، سـائلك بفنائك. قال الراوي: فحفظتهن، فما دعوت بهن في كرب، إلا فرج الله عني.

قلت للمعلم: هذا لم يدعو.. بل وصف حاله.

قال المعلم: أعظم الدعاء هو الفقر والمسكنة.

قال القاص: ويروى عن عبـد اللـه بن جعفـر: أن رجلاً أصـابه مرض شديد، منعه من الطعام والشراب والنوم، فبينا هو ذات ليل ساهراً، إذ سمع وجبة شـديدة في حجرتـه، فـإذا هـو كلام، فوعـاه، فتكلم به، فـبرأ مكنـه، وهـو: اللهم أنـا عبـدك، وبـك أملي، فاجعـل الشفاء في جسدي، واليقين في قلبي، والنور في بصري، والشـكر في صدري، وذكرك بالليل والنهار- ما بقيت- على لساني، وارزقني منك، رزقاً غير محظور ولا ممنوع.

وحدث آخـر، قـال: أخـبرت أن رجلاً، أخـذ أسـيراً، فـألقي في جب، وألقي على رأس الجب صخرة، فتلقن فيه: قل: سبحان الله الحي القدوس، سـبحان اللـه وبحمـده، فـأخرج من غـير أن يكـون أخرجه إنسان.

وروي أن الحجاج بن يوسف أتي برجل كان جعل على نفسه، إن ظفر بـه، أن يقتلـه، قـال: فلمـا دخـل عليـه، تكلم بكلام، فخلى سبيله، فقيل له: أي شيء قلت ؟ فقال: قلت: يا عزيز، يا حميد، يا ذا العرش المجيد، اصرف عني مـا أطيـق، ومـا لا أطيـق، واكفـني شر كل جبار عنيد.

العمل الصالح

اقتربنا من الباب الثاني من أبواب الاستعانة، وقـد كتب عليـه بحروف من نور قوله تعالى: وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ((البقرة:45)

فقال لي المعلم: المفتاح الثاني من مفاتيح الاسـتعانة العمـل الصالح، فبه تطرق أبواب الجود، وتمد أيدي العون، وترسـل أمـداد الإغاثة.

قلت: ولكن الآيــة الــتي كتبت على البــاب لم تتحــدث عن المستعان عليـه، بـل اكتفت بـإطلاق الاسـتعانة، ومثـل ذلـك قولـه تعـالى: يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا اسْـتَعِينُوا بِالصَّـبْرِ وَالصَّـلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَـعَ

الصَّابِرِينَ (البقرة:153)

قال: لقد جاء لفظ الاستعانة مطلقا ليبين دور الصبر والصلاة في كل شيء، فهما عون في الدين كما أنهما عون في الدنيا، وعون في الأمراض النفسية كما أنهما عون في الأمراض الجسدية.

قلت: ولكن الله تعالى قد رتب على الأعمال أجورها المعلومة، كما ورد في الحديث القدسي: (إذا هم عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة، فإن عملها كتبتها له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه، فإن عملها كتبتها سيئة واحدة)(1)

قال: إن الله شكور حليم، فلذلك يمن على عباده بأجور الدنيا وأجور الآخرة.

قلت: كيف ذلك؟

قال: سنعرف تفاصيل هذا في محلها من: (أسواق التجارة الرابحة)(2).. ولكن ألم تسمع قوله ﷺ: (تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة)(3)

قلت: بلى.. وقد روي في أخبار الأنبياء أن يونس عليه السلام حين بدا له أن يدعو الله بالكلمات حين ناداه وهو في بطن الحوت، فقال: لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (الأنبياء:87)، فأقبلت الدعوة نحو العرش فقالت الملائكة: يا رب! هذا صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة، فقال: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا رب! من هو؟ قال: ذلك عبدي يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة، قالوا: يا رب! أفلا ترحم من كان يصنع في الرخاء فتجيبه في البلاء، قال: بلى! فأمر الحوت فطرحه بالعراء(4).

قال: فلذلك يكون العمل الصالح شفيعا لصاحبه عند الله.

قلت: ولهذا إذن توسل الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة إلى الله بأعمالهم الصالحة، فنجاهم الله، فقد قال ﷺ: (بينما ثلاثة رهط من بني إسرائيل يسيرون، إذ أخذهم المطر، فأووا إلى غار، فانطبقت عليهم صخرة، فسدت الغار، فقالوا: تعالوا فليسأل الله تعالى كل رجل منا بأفضل عمله.

---

1) البخاري ومسلم.
2) من رسائل المجموعة الثالثة.
3) الترمذي، وقال حسن صحيح.
4) ابن أبي الدنيا.

فقال أحدهم: اللهم إنه كانت لي ابنة عم جميلة، وكنت أهواها، فدفعت إليها مائة دينار، فلما جلست منها مجلس الرجل من المرأة، قالت: اتق الله يا ابن عم، ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقمت عنها، وتركت المائة دينار، اللهم إن كنت تعلم، أني فعلت هذا خشية منك، وابتغاء ما عندك، فأفرج عنا، فانفرج عنهم ثلث الصخرة.

وقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت أغدو عليهما بصبوحهما، وأروح عليهما بغبوقهما، فغدوت عليهما يوماً، فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما، وكرهت أن أنصرف عنهما، فيفقدا غداءهما، فوقفت حتى استيقظا، فدفعت إليهما غداءهما، اللهم إن كنت تعلم أني إنما فعلت ذلك ابتغاء ما عندك، وخشية منك، فأفرج عنا، فانفرج الثلث الثاني.

وقال الثالث: اللهم إن كنت تعلم، أني استأجرت أجيراً، فلما دفعت إليه أجره، قال: عملي بأكثر من هذا، فترك علي أجره، وقال: بيني وبينك يوم يؤخذ فيه للمظلوم من الظالم، ومضى، فابتعت له بأجره غنماً، ولم أزل أنميها وأرعاها، وهي تزيد وتكثر، فلما كان بعد مدة، أتاني، فقال لي: يا هذا إن لي عندك أجراً، عملت كذا وكذا في وقت كذا وكذا، فقلت: خذ هذه الغنم، فهي لك، فقال: تمنعني من أجري، وتهزأ بي، فقلت: خذها فهي لك، فأخذها ودعا لي، اللهم إن كنت تعلم أني فعلت هذا خشية منك، وابتغاء ما عندك، فأفرج عنا، فانفرج عنهم باقي الصخرة، وخرجوا يمشون)[1]

قال: هذا الحديث لا يدل فقط على جواز التوسل لله بالأعمال الصالحة، وإنما يدل على أن الأعمال الصالحة شافعة لصاحبها، سأل أو لم يسأل.

***

رأيت بابين مفتوحين، وكأنهما يطلبان منا الدخول منهما، فقلت للمعلم: ما هذان البابان اللذان ينفتحان لنا طالبين منا الدخول؟

قال: هذان البابان يشيران إلى أركان العمل الصالح الذي يرضي الله تعالى، ويمد صاحبه بالعون.

قلت: الأعمال الصالحة كثيرة، فكيف يشير إليهما هذان

---

1) البخاري ومسلم.

البابان؟

قال: هذان البابان يجمعان شتاتهما.

قلت: فما الأول منهما؟

قال: هو النوع الذي يجعل العبد متصلا بالله، ذاكرا له، متوجها إليه، مناجيا له، جالسا معه.

قلت: فما دليل تأثيره في الاستعانة؟

قال: لقد كان ﷺ إذا اشتدت به الأمور هرع إلى الصلاة، فعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى(1).

وعن أبى هريرة قال: رآنى رسولُ الله ﷺ وأنا نائم أشكو مِن وجع بطنى، فقال لى: (يا أبا هُرَيْرَةِ؛ أشِكَمَتْ دَرْدْ(2)؟)، قال: قلتُ: نعم يا رسولَ الله، قال: (قُمْ فَصَلِّ، فإنَّ فى الصَّلاةِ شِفَاءً)(3)

قلت: وما الباب الثاني؟

قال: هو باب إغاثة الملهوف، ورحمة الخلق، وقضاء حوائجهم.

قلت: فما دليل تأثير هذا النوع من الأعمال الصالحة؟

قال: وردت النصوص الكثيرة في تأثير ذلك في رفع البلاء، فقد قال ﷺ: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء).. فمن رحم الخلق استعد لرحمة الله، ومن أغاثهم استعد لغوثه، فالله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

قلت: فهل هما بابان على الخيار أم يجبر على الدخول من كليهما؟

قال: ألا تعلم أن السلام يتنافى مع الجبر؟

قلت: أقصد أن كلا الركنين أساسيان بحيث لا يغني أحدهما عن الآخر.

قال: أجل، فمن قصر في أحدهما كان له تأثيره في قضاء حاجته.. ولهذا يجمع الله كلا الوصفين للمؤمنين الصالحين، كما قال تعالى: إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (المائدة:55)، فقد وصفهم بإقامة الصلاة التي تدعم صلة العبد بربه، ووصفهم بإيتاء الزكاة، وهي التي تنمي علاقتهم بربهم.

---

1) أبو داود، وقد رُوى هذا الحديثُ موقوفاً على أبى هُرَيرةَ، وأنه هو الذى قال ذلك لمجاهد، وهو أشبهُ.

2) معنى هذه اللفظةِ بالفارسى: أيوجعُكَ بطنُكَ؟

3) ابن ماجه.

قلت: ألهذا إذن اقترنت الصلاة بالزكاة في مواضع كثـيرة من القرآن الكريم.

قال: أجل.. فلا يمكن أن يصل القلب إلى اللـه بالصـلاة، وفي قلبه قسوة على الخلق.

قلت: لقد ذكرتـني بقولـه ﷺ في المـرأة الـتي قيـل لـه: إنهـا تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها، فقال: (هي في النار)

قال: وأذكرك بقوله ﷺ في المرأة التي قيـل لـه: إنهـا تصـلي المكتوبـة وتصـدق بـالأثوار من الأقـط ولا تـؤذي جيرانهـا: (هي في الجنة)(1)

قلت: فهل ندخل لكلا البابين.. فقد عرفنا ما فيهما؟

قال: لا مناص لنا من ذلك.. ألا ترى انفتاحهمـا لنـا، وترحيبهمـا بنا؟

الصلة بالله:

دخلنا قاعة الصلة بالله، وكانت أشـبه بمحـراب للعبـادة، وقـد فوجئت بوجود مرضى في هـذه القاعـة، ولكن لا كالمرضـى، فـإن كل واحد منهم يفترش سجادته، ثم يختلفون.. منهم من يمـد يديـه بالدعاء والمناجاة، ومنهم من هو قائم أو راكع أو ساجد.

قلت للمعلم: ما يفعل هؤلاء في هذا المستشـفى؟.. أأخطـأوا الطريق، أم تصوروا المستشفى مسجدا؟

قال: لا.. هؤلاء يتدربون على تقوية الصلة بالله.

قلت: يتدربون!؟.. أراهم يصلون ويدعون.

قال: هناك من يدربهم على الصلاة الموصلة والدعاء المجاب.

قلت: أليس كل صلاة موصلة؟

قال: لا.. ألم تسمع قوله ﷺ: (إن العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها، وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقـل منهـا)(2).. ألم يتفـق الصـالحون على عـدم اعتبـار الصـلاة الخاليـة من الحضور مع الله؟

قلت: أجل.. فقد قال بعضهم: (من لم يخشع فسدت صلاته)، وقال آخر: (كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع)

قال: بل قال آخر: (من عرف من على يمينه وشماله متعمـدا وهو في الصلاة فلا صلاة له)

قلت: فكيف يدربونه على الخشوع؟

---

1) ابن النجار في حقوق الراكب والمركوب.
2) أبو داود والنسائي وابن حبان.

قال: ألستم تدربون المرضى على أشياء معينة لينسجموا مع حياتهم؟

قلت: أجل.. لدينا أقسام كثيرة خاصة بالتدريب في مستشفياتنا.

قال: وقد لاحظ هذا المستشفى أهمية الصلاة في العلاج.. ولاحظوا في نفس الوقت التقصير في القيام بها.. حيث صارت مجرد حركات، وصار الدعاء مجرد تمتمات، فلذلك قررت إدارة المستشفى وضع هذا القسم لتدريب المرضى على الصلاة النافعة المؤثرة.

قلت: لقد ظفرت ببغيتي.. كم أشتاق لأتعلم صلاة الخاشعين.

قال: لا.. لن نبحث ذلك هنا.. لذلك محله الخاص من دروس السلام.

بينما أنا كذلك إذ أخذ بيدي أحدهم، وقال: إن أرادت دوام الصحة والعافية، فعليك بقيام الليل، فقد جربت فوائده العلاجية.

قلت: وما أدلة اعتبار قيام الليل دواء، والمريض مرخص له في النوم والراحة، فكيف يطالب بقيام الليل؟

فقال: أما الدليل، فقد قال ﷺ وهو يعدد فضائل قيام الليل: (عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، ومقربة لكم إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم، ومطردة للداء عن الجسد)(1)، فقد أخبر ﷺ أنه مطردة للداء عن الجسد.

قلت: ولكن المريض يعجز عن صلاة الفرض، فكيف تطلب منه القيام؟

قال: القيام يتحقق بأي صورة، فإن كان المريض لا يستطيع أن يصلي التهجد قائماً يتهجد قاعداً أو مضجعاً والأجر يكتب له كاملاً.

زيادة على ذلك، فإنه لو طلب الطبيب من المريض أن ينهض ساعة في جوف الليل ليتحرك حركات معينة، ألا يؤخذ قول الطبيب الخبير بثقة ويقين بدون أن يجادله أحد؟

قلت: بلى، وكيف يجادل الخبير؟

فقال: فقد أخبر المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى بهذا، فخذ بما يقول وسلم.

تدخل رجل عليه سيما الخبراء، وقال:دعه لي، فإني أعرف

---

1) الإمام أحمد والترمذي والبيهقي والحاكم في المستدرك عن بلال وابن عساكر.

اللغة التي يفهم بها.

قلت: فحدثني بلساني.

قال: لقد جاء في كتاب (الوصفات المنزلية المجربة وأسرار الشفاء الطبيعية)، وهو كتاب بالإنكليزية لمجموعة من المؤلفين الأمريكيين(1) أن القيام من الفراش أثناء الليل، والحركة البسيطة داخل المنزل والقيام ببعض التمرينات الرياضية الخفيفة، وتدليك الأطراف بالماء، والتنفس بعمق له فوائد صحية عديدة، وهذه النصائح تماثل تماماً حركات الوضوء والصلاة عند قيام الليل.

وسر علاقة هذه الأمور بالصحة أنها تؤدي إلى تقليل إفراز هرمون الكورتيزون(2)خصوصاً قبل الاستيقاظ بعدة ساعات، وهو ما يتوافق زمنياً مع وقت السحر، مما يقي من الزيادة المفاجئة في مستوي سكر الدم، والذي يشكل خطورة علي مرضي السكر، ويقلل كذلك من الارتفاع المفاجئ في ضغط الدم، ويقي من السكتة المخية والأزمات القلبية في المرضى المعرضين لذلك، كما يقلل من مخاطر تخثر الدم في وريد العين الشبكي، الذي يحدث نتيجة لبطء سريان الدم في أثناء النوم، وزيادة لزوجة الدم بسبب قلة تناول السوائل، أو زيادة فقدانها. أو بسبب السمنة المفرطة وصعوبة التنفس مما يعوق ارتجاع الدم الوريدي من الرأس.

ويؤدي قيام الليل إلى تحسن وليونة عند مرضى التهاب المفاصل المختلفة، سواء كانت روماتيزمية أو غيرها نتيجة الحركة الخفيفة والتدليك بالماء عند الوضوء.

كما أن قيام الليل علاج ناجح لما يعرف باسم (مرض الإجهاد الزمني) لما يوفره من انتظام في الحركة ما بين الجهد البسيط والمتوسط، الذي ثبتت فاعليته في علاج هذا المرض.

ويؤدي قيام الليل إلى تخلص الجسد من ما يسمي بالجليسيرات الثلاثية (نوع من الدهون) التي تتراكم في الدم خصوصاً بعد تناول العشاء المحتوي علي نسبه عالية من الدهون والتي تزيد من مخاطر الإصابة بأمراض شرايين القلب التاجية بنسبة 32 بالمائة في هؤلاء المرضي مقارنة بغيرهم.

ويقلل قيام الليل من خطر الوفيات بجميع الأسباب، خصوصاً الناتج عن السكتة القلبية والدماغية وبعض أنواع السرطان.

---

1) انظر: مقالة لـ د. صلاح أحمد حسين أستاذ بطب أسيوط،جريدة الأهرام 27/7/2004 بتصرف.

2) وهو الكورتيزون الطبيعي للجسد.

ويقلل قيام الليل من مخاطر الموت المفاجئ بسبب اضطراب ضربات القلب لما يصاحبه من تنفس هواء نقي خال من ملوثات النهار، وأهمها عوادم السيارات ومسببات الحساسية.

وقيام الليل ينشط الذاكرة وينبه وظائف المخ الذهنية المختلفة لما فيه من قراءه وتدبر للقرآن وذكر للأدعية واسترجاع لأذكار الصباح والمساء. فيقي من أمراض الزهايمر وخرف الشيخوخة والاكتئاب وغيرها.

***

جاء آخر، وقال: عليك بالاستغفار، فقد جربت التداوي به، فوجدته علاجا ناجعا لا تقف أمامه الأدواء.

قلت: فكيف وصلت إلى هذا النوع من العلاج؟

قال: لقد قرأت قوله ﷺ: (من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب)(1)، فدلني هذا على البحث في سر هذه الوصفة، فوجدت نصوصا كثيرة تدل عليها، فقد قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ﴾ (نوح:10 ـ 11)، وقال على لسان هود عليه السلام: ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً(2) وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ (هود:52)، فقد ذكر الله تعالى في هذه الآية جوامع النعم(3)، واعتبر الاستغفار سببا لها.

قلت: فما السر الذي وجدته لذلك؟

قال: لقد اتفق العقلاء على أن المعاصى والفساد توجب الهم والغم، والخوف والحزن، وضيق الصدر، وأمراض القلب، حتى إن أهلها إذا قضوا منها أوطارهم، وسئمتها نفوسهم، ارتكبوها دفعا لما يجدونه فى صدورهم من الضيق والهم والغم، كما قال شاعرهم:

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

---

1) أحمد والحاكم.

2) متتابعا مرة بعد أخرى.

3) وقد فصل الفخر الرازي سر اجتماع النعم في هذه الآية، فقال:(ثم إنه عليه السلام قال: (إنكم متى فعلتم ذلك فالله تعالى يكثر النعم عندكم ويقويكم على الانتفاع بتلك النعم) وهذا غاية ما يراد من السعادات، فإن النعم إن لم تكن حاصلة تعذر الانتفاع وإن كانت حاصلة، إلا أن الحيوان قام به المنع من الانتفاع بها لم يحصل المقصود أيضا، أما إذا كثرت النعمة وحصلت القوة الكاملة على الإنتفاع بها، فههنا تحصل غاية السعادة والبهجة فقوله تعالى:﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ﴾ إشارة إلى تكثير النعم لأن مادة حصول النعم هي الأمطار الموافقة، وقوله:﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ إشارة إلى كمال حال القوى التي بها يمكن الانتفاع بتلك النعمة، ولا شك أن هذه الكلمة جامعة في البشارة بتحصيل السعادات، وأن الزيادة عليها ممتنعة في صريح العقل)

وإذا كان هذا تأثير الذنوب والآثام في القلوب، فلا دواءَ لهـا إلا التوبةُ والاستغفار.

قلت: ففصل لنا علل ذلك وأسبابه.

قال المعلم: لذلك قسم خـاص في هـذا المستشـفى، سـنمر عليه في حصن الاستعاذة.

***

بينمـا كنت مـع المعلم في هـذه القاعـة نتأمـل الصـلوات الخاشعة، ونسـتمع إلى الأدعيـة الرقيقـة مـر رجـل بنـا هـو يقـول: (صلوا على رسول الله.. صلوا على رسول الله)

قلت: من هذا؟

قال: هذا ممرض بهذا القسـم يسـقي المرضـى دواء الصـلاة على رسول الله ﷺ.

قلت: أعلم أن الصلاة على رسول اللـه ﷺ عبـادة.. ولكـني لا أعلم أنها دواء.

قال: كل عبادة دواء.. والصلاة على رسـول اللـه ﷺ خصوصـا أعظم دواء.. ألم تقرأ ما ورد في الحديث أن رسـول اللـه ﷺ كـان إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: (يا أيها الناس اذكروا الله اذكروا اللـه جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه)، فقال له رجل: يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليـك، فكم أجعـل لـك من صـلاتي، قال: ما شئت، قال الرجل: الربع؟ قال: ما شئت، فـإن زدت فهـو خير، قال الرجل: فالنصف؟ قال: مـا شـئت، فـإن زدت فهـو خـير، قال الرجل: فالثلثين؟ قال: مـا شـئت، فـإن زدت فهـو خـير، قـال الرجل: أجعل لك صلاتي كلها، فقـال ﷺ: (إذا تكفى همـك، ويغفـر لك ذنبك)(1)، فقد أخبره ﷺ بأنه يكفى كل ما أهمه.

قلت: وقـد روي حـديث آخـر يقـارب هـذا، فقـد روي أن رجلا قال: يا رسول الله أجعل ثلث صـلاتي عليـك؟ قـال نعم إن شـئت، قال: الثلثين؟ قال: نعم إن شئت، قـال فصـلاتي كلهـا؟، فقـال ﷺ: (إذا يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك)(2)

قال: فقد وصف رسـول اللـه ﷺ الصـلاة عليـه علاجـا لهمـوم الدنيا والآخرة.

قلت: فهمت هذا.. ولكن ما سر ذلك؟

قال: سـر ذلـك يسـير، فالصـلاة على رسـول اللـه ﷺ تربـط

---

1) أحمد وعبد بن حميد وابن منيع والروياني والحاكم والبيهقي.
2) الطبراني في الكبير وأبو النعيم.

المؤمن برسول الله ﷺ وتملأ قلبه محبة له وشوقا إليه.

قلت: وما في ذلك من العلاج؟

قال: المحبة تحرق كل من عداها.. فتحرق الهم والغم.. وتملأ صاحبها بالبشر والسرور.

قلت: لقد ورد في النصوص الإخبار أن الصلاة على رسول الله ﷺ تجعل صاحبها أهلا لصلاة الله عليه، كما ورد في الحديث: أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والسرور يرى في وجهه، فقالوا: يا رسول الله إنا لنرى السرور في وجهك، فقال: (إنه أتاني الملك فقال: يا محمد أما يرضيك ربك عزَّ وجلَّ يقول: إنه لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراً) قلت: (بلى)(1)..

لكن ما سر ذلك؟ وهل له علاقة بالاستشفاء بالصلاة على رسول الله ﷺ؟

قال: أجل.. له علاقة عظيمة، فقد ورد في القرآن الكريم الإخبار بالتأثير العظيم الذي تحدثه صلاة الله على عبده، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ﴾ (الأحزاب:43)

قلت: لقد أخبر الله تعالى بأن صلاة الله على عباده تخرجهم من الظلمات إلى النور.

قال: وهل الهموم والأحزان والمصائب إلا ظلمات، وهل النور إلا الفرج والعافية وانشراح الصدر.. ألم تسمع قوله ﷺ: (إن النور إذا دخل الصدر انفسح)(2)

***

دخل ممرض آخر على المرضى، وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً ﴾ (الأحزاب: 41).. اذكروا الله يشرح الله صدوركم، وينور قلوبكم)

قلت للمعلم: أهذا الممرض مكلف بدواء الذكر؟

قال: أجل.. فهو يحضهم في كل حين، لا على الذكر فقط.. بل على كثرة الذكر.. فالذكر لا يؤتي أكله إلا بكثرته، ألم تسمع الحق تعالى وهو يقول: ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ (الأحزاب:35)

قلت: بلى إن الله تعالى لم يقرن أي عمل صالح بالكثرة ما

---

1) أحمد ورواه النسائي بنحوه.

2) الحاكم، وتعقب، عن ابن مسعود.

عدا الذكر، وفي هذه الآية قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ (الأحزاب: 35)، فجعل الذكر وحده مخصوصا بالكثرة.

قال: أتدري علة ذلك؟

قلت: لطرد الغفلة.. فالغفلة تعتري الإنسان كل لحظة، فيحتاج إلى مقاومتها بالذكر.

قال: أجل.. والغفلة عن الله هي التي تجر إلى اليأس، وتملأ القلب ظلمة، فلا يعرف الله ولا يشاهد أفضاله، فإن سمع باسمه كان كسماعه أي اسم لا علاقة له به، ولا صلة بينه وبينه.

قلت: ألهذا كان من أسباب انشراح الصدر وطمأنينته الإكثار من ذكر الله؟

قال: أجل.. فإن له تأثيراً عجيباً في انشراح الصدر وطمأنينته، وزوال همه وغمه، وامتلائه أملا وثقة بالله، ألم تسمع الحق تعالى، وهو يقول: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ ((الرعد:28)،ـ أي تطيب وتركن إلى جانب اللّه وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً.

قلت: بلى، فما سر ذلك؟

قال: لقد جعل الله تعالى القلب محلا لمعرفته، ولا يكون كذلك إلا إذا كان طاهرا نظيفا منورا بنور الإيمان، وإلا أثرت فيه الأنجاس التي يحملها، فتجعله معرفته بالله معرفة مشوهة تؤدي إلى إساءة الظن بالله، كما قال تعالى: ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (فصلت:23)

قلت: فما دور الذكر في هذا؟

قال: دور الذكر هو أنه جلاء القلوب وصقالتها، كما قال ﷺ: (لكل شئ صقالة، وان صقالة القلوب ذكر الله عز وجل وما من شئ انجى من عذاب الله عز وجل من ذكر الله عز وجل) قالوا: (ولا الجهاد في سبيل الله عز وجل)، قال: (ولو أن يضرب بسيفه حتى ينقطع)[1]

قلت: ألهذا نهي عن مصاحبة أهل الغفلة، كما قال تعالى:

---

1) البيهقي.

 وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَـوَاهُ وَكَـانَ أَمْـرُهُ فُرُطـاً (الكهف:28)؟

قال: أجل، لما يملأون به القلوب من وساوس.

قلت: ولهــذا إذن وردت النصــوص الكثــيرة تصــف الأذكــار الرافعــة للهم والحــزن، كقولــه ﷺ: (من قــال في كــل يــوم أربــع مــرات: أشــهد أن اللــه هــو الحــق المــبين، وأنــه يحي ويميت، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، صرف الله عنه السوء)(1)

وقوله ﷺ: (كلمات الفرج: لا إله إلا الله الحليم الكـريم، لا إلـه إلا اللــه العلي العظيم، لا إلــه إلا اللــه رب الســموات الســبع، ورب العرش الكريم)(2)

وقوله ﷺ: (من قال لا إله إلا الله، قبل كـل شـيء، ولا إلـه إلا الله بعد كل شيء ولا إله إلا الله يبقى، ويفـنى كـل شـيء، عـوفي من الهم والحزن)(3)

وقوله ﷺ: (لا حول ولا قوة إلا بالله دواء من تسـعة وتسـعين داء أيسرها الهم)(4)

قال: أجل، وكلهـا تضـمنت المعـارف الإلهيـة الـتي تـنزع الهم والغم، وتبشر بالفرج، ومن أيقن بالفرج حصل لـه، فاللــه لا يخلـف ظن عبده.

***

دخل ممرض آخر على المرضى، وهو يقـرأ قولـه تعـالى: يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ قَـدْ جَـاءَتْكُمْ مَوْعِظَـةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِـفَاءٌ لِمَـا فِي الصُّـدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (يونس:57)، وقولـه تعـالى: وَنُنَـزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (الإسراء:82)

قلت: هذا الممرض يرشد المرضـى إلى الاستشـفاء بـالقرآن الكريم.

قال: نعم، فهو الكتاب الوحيـد في العـالم الـذي يعـرف باللــه المعرفة الصحيحة، لأنه كلام الله.. ولا يعرف الله إلا الله.

قلت: إن قومي خبراء بـالعلاج بـالقرآن الكـريم ولهم تجـارب كثيرة في هذا تمتلئ بها كتب الرقية.

قال: أولئك يتاجرون بالقرآن الكريم، ولا يعالجون به.. القـرآن

1) الحاكم في تاريخه.
2) ابن أبي الدنيا.
3) الطبراني في الكبير.
4) ابن أبي الدنيا في الفرج.

الكريم يعالج بالحقائق لا بالدجل.

قلت: كيف؟.. هم يستخدمون القرآن الكريم في العلاج.

قال: سنعرف دجلهم في محله من أقسام هذا المستشفى..

قلت: فكيف يعالج القرآن الكريم المرضى؟

قال: يعالجهم بالتعريف بالله، وإحسان الظن بـه، ولهـذا كـان شفاء لما في الصدور.

قلت: ألهـذا كـان ﷺ يرشـد من أصـابه الهم والحـزن بهـذا الـدعاء، قـال ﷺ: (مـا أصـاب عبـدا هم ولا حـزن، فقـال اللهم إني عبدك، وابن عبدك، ابن أمتـك، ناصـيتي بيـدك، مـاض فيّ حكمـك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هم لـك سـمّت بـه نفسـك، أو أنزلته في كتابك أو علّمته أحدا من خلقك، أن تجعـل القـرآن ربيـع قلبي، ونـور صـدري، وجلاء حـزني، وذهـاب همّي وغمّي، إلا أذهب الله همّه وغمّـه، وأبدلـه مكانـه فرحـا)، قـالوا: يـا رسـول اللـه أفلا نتعلّمهن؟ قال: (بلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلّمهن)(1)..؟

قال: أجل.. فالقرآن ربيـع القلـوب، وفي الربيـع يكـون الأنس والفرحة والسرور والابتسامة، ولهذا كـان بعض الصـالحين يقـول: (مـا زرع القـرآن في قلـوبكم يـا أهـل القـرآن، إن القـرآن ربــيع المؤمن كما أن الغيث ربـيع الأرض)

الإحسان إلى الخلق:

دخلنا قاعة الإحسان إلى الخلق، وقد كتب على بابها قوله ﷺ: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحمـوا من في الأرض يـرحمكم من في السماء)(2)

قلت للمعلم: لم كان الإحسان إلى الخلق قرينا للصلة بالله؟

قال: لأنه ثمرة أساسية من ثمار الصلة بالله، فيسـتحيل على القلب المنور بنور الذكر، المؤدب بتأديب القـرآن الكـريم أن يقعـد عن إغاثة الملهوف أو إجابة المحتاج أو الإحسان إلى الضعفاء.

ويستحيل على القلب المنور بنـور الإيمـان أن يـؤذي إخوانـه، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ صعد المنـبر، فنـادى بصـوت رفيـع فقال: (يا معشر من أسـلم بلسـانه ولم يفض الإيمـان إلى قلبـه لا تـؤذوا المسـلمين ولا تتبعـوا عـوراتهم فإنـه من تتبـع عـورة أخيـه المسلم تتبع اللـه عورتـه، ومن تتبـع اللـه عورتـه يفضـحه ولـو في جوف رحله)(3)

---

1) أحمد والبيهقي في الشعب، والحاكم، والطبراني في الكبير.
2) الترمذي.
3) الترمذي، وقال: حسن صحيح.

وقال ﷺ: (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمـان قلبـه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عـوراتهم تتبـع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه في بيته)(1)

قلت: عرفت صـلة الصـلة باللـه بالاسـتعانة باللـه، فمـا صـلة الإحسان إلى الخلق بالاستعانة؟

قال: الله تعالى يعامل عبـاده بحسـب مـا يعامـل بـه بعضـهم بعضا، ألم تقرأ ما كتب على لافتة الباب؟

قلت: بلى.

قال: فقد أخبر ﷺ عن معاملة الله لعباده بجنس ما يعامل بـه بعضهم بعضا، وقد أخبر في الحديث القدسي عن صلته لمن وصل رحمـه وقطعـه لمن قطعهـا، فقـال: (أنـا الـرحمن خلقتُ الـرحم وشققت لها اسـماً من اسـمي، فمن وصـلها وصـلته، ومن قطعهـا قطعته)(2)

وأخـبر ﷺ أن (من نفس عن مسـلم كربـة من كـرب الـدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن سـتر على مسـلم ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عـون العبـد مـا كـان العبـد في عون أخيه)(3)

وأخبر ﷺ أن (المسلم أخو المسـلم لا يظلمـه ولا يسـلمه من كان في حاجة أخيـه كـان اللـه في حاجتـه، ومن فـرج عن مسـلم كربة فرج اللـه عنـه بهـا كربـة من كـرب يـوم القيـام،ة ومن سـتر مسلما ستره الله يوم القيامة)(4)

وأخـبر ﷺ أنـه (لا يسـتر عبـد عبـدا في الـدنيا إلا سـتره يـوم القيامة)(5)

قلت: أمن هذا الباب ما ورد من علاج المرضى بالصدقة، فقد قـال ﷺ: (حصـنوا أمـوالكم بالزكـاة، وداووا مرضـاكم بالصـدقة، واستقبلوا أمواج البلاء بالدعاء والتضرع)(6)

قال: هذا الحديث يؤخذ على ظاهره، ويسلم لقائله.

قلت: فما السر في ذلك؟

قال: إن لم يدع لك لسان الفقير دعا لك قلبه، فإن جحد قلبه دعت لك الملائكة، فإن لم يدع لك أحد، فالله شاكر حليم، يعطيـك

1) أبو داود.
2) الترمذي وصححه.
3) مسلم وأبو داود واللفظ له والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه.
4) أبو داود واللفظ له والترمذي وقال حديث حسن صحيح غريب.
5) مسلم.
6) أبو داود في المراسيل ورواه الطبراني والبيهقي وغيرهما.

ما عجز الكل عن إعطائه لـك، فسـلم لقـول نبيـك، ولا تسـأل عن الكيفية.

قلت: ليطمئن قلبي.

قال: سأورد لك ما يطمئن به قلبك، لقـد جـاء بعضـهم لبعض الصالحين، وشكا له عن قرحة خرجت في ركبته منذ سـبع سـنين، وقد عالجها بأنواع العلاج، وسأل الأطباء فلم ينتفع به، فقال الرجـل الصالح: (اذهب فاحفر بئراً في مكان الناس بحاجة إلى الماء، فإني أرجوا أن ينبع هناك عينً ويمسك عنك الدم) ، ففعل الرجل فبرأ.

فهكذا يفعل الصالحون والربانيون، فأنبئني لو أن هـذا الرجـل جاء لقومك من الرقاة، بماذا سيشيرون عليه؟

قلت: يخبرونه ـ بعد رقية التشخيص ــ بـأن الشـيطان ركضـه ركضة يحتاج معها إلى التجول على الرقاة جميعـا ليجـد من يحـرق له شيطانه، وقد يموت قبل ذلك.

قـال: وسـأزيدك أخـرى لـترى منهج الصـالحين في التسـليم للنصوص المقدسـة، حـدث بعضـهم قـال: مرضـت مرضـا خطـرا، فرآني جار لي صالح، فقال اسـتعمل قـول رسـول اللـه ﷺ: (داووا مرضاكم بالصدقة)، وكان الـوقت ضـيقا، فاشـتريت بطيخـا كثـيرا، واجتمع جماعة من الفقـراء والصـبيان، فـأكلوا ورفعـوا أيـديهم إلى الله عز وجل، ودعوا لي بالشفاء، فوالله ما أصبحت إلا وأنا في كل عافية من الله تبارك وتعالى.

قلت: تلك أزمنة الصالحين.

فقال: كل الأزمة أزمنة الصالحين ، ولا زمـان للصـالحين، وإن شئت أن أزيدك، فانشر إعلانا في الصـحف، تطلب فيـه اسـتعمال هذا الدواء بيقين وتسليم، لترى آلاف الرسائل تنهال عليـك تخـبرك بمدى جدواه، فمن وصفه لا ينطق عن الهوى.

رابعا ـ حصن الاستعاذة

دخلنا الحصن الرابع من حصون الروح.. كان مهيبا مخيفا.. لست أدري كيف شعرت بقشعريرة تسري في أوصالي.. كنت أتشبث بمعلم السلام، وكأني لا أتشبث بشيء.. خالطني رعب لست أدري ما سببه.. قف شعري.. اختلطت في خيالي صور كثيرة مرعبة.. وزاد من رعبي انطفاء الأضواء وامتلاء القاعة بظلمة شديدة.. فازداد رعبي.

فجأة لاحت أنوار عظيمة بددت مخاوفي، كانت الأنوار تكتب بحروف من نور سورة الفلق.

ضحكت مع نفسي، وقلت: عجبا لك يا نفس.. كيف تخافين.. وسورة الفلق موجودة !؟

قال: لقد عرفت سر هذا الحصن.

قلت: ما عرفت.. لم أر شيئا بعد.. إن هو إلا رعب بسيط سرى في أوصالي.. ولكني بحمد الله وجدت الحصن الذي أتحصن به.

قال: ما وجدت؟

قلت: الله.. فالله رب كل شيء.. وما دام كذلك فلم أخاف؟.. ومن أخاف؟.. ألم يقل الله تعالى وهو يعلمنا التحصن به: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ (الفلق:2)؟

قال: ما دمت قد علمت هذا.. فاعلم أن هذا الحصن الذي تمثله سورة الفلق يحفظك من كل الأعداء ما يختفون، وما يبرزون.

قلت: عرفت الأعداء الظاهرين، فمن الأعداء المتسترين بستار الغيب؟

قال: كثيرون.. وهم يتربصون بك.. وما وجدته من وحشة كان نوعا من تلك الأنواع المتسترة.

قلت: فاذكر لي ما ورد في النصوص من هؤلاء الأعداء لأتقيهم.

قال: سأذكر لك ثلاثة.. ورد في النصوص ذكرهم.. وورد في النصوص الحث على الاستعاذة منهم.

قلت: من هم؟

قال: الشياطين، والسحرة، والحسدة.

قلت: لا أكتمك ـــ يا معلم ـــ فإن النصوص، وإن وردت

بالاستعاذة من هذه الأمور.. وضمنت تحصين الله لمن التجأ إليه منها إلا أن من قومي من يفتت قلوبهم الخوف منها، وكأن ما وعدهم الله به لغو من القول أو مواعيد عرقوب.

قال: فابتدعوا لذلك بدعا كثيرة.

قلت: لست أدري هل يصح إطلاق هذا اللفظ في هذا المحل، أم لا؟

قال: بل لا يصلح هذا اللفظ إلا في هذا المحل.. فإنهم هجروا كلام الله الذي أمرنا بالاستعاذة به، وهجروا سنة رسول الله ﷺ، وملأوا الكتب والمصنفات بخرافاتهم.. فرموا دين الله بالخرافة، وملأوه بالشعوذة.

قلت: يا معلم.. أنت تشتد في النكير عليهم.

قال: غيرة على دين الله.. فلم أر قوما يحرفون الكلم عن مواضعه كما رأيت هؤلاء.

قلت: فهل قامت إدارة المستشفى بعلاج هذه الظاهرة؟

قال: ليست إدارة المستشفى وحدها.. بل إدارة المستشفى، ووزارة الحياة.. ووزارة الحزم.

قلت: أكل هذه الجنود المجندة من أجل هذا؟

قال: ألم أقل لك: إن مدائن السلام تهتم بسلام الإنسان كاهتمامكم بسلام العمران؟

قلت: بلى..

قال: فوزارات الحرب عندكم تشهر دباباتها من أجل مصالح بسيطة، ولكنها لا تقف وقفة حزم واحدة للإنسان، وهو يخرب، ويحارب، ويكذب عليه.

قلت: أهؤلاء يكذبون؟

قال: أبشع الكذب.. ألم تسمع الحق تعالى وهو يقول: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (الأنعام:21)

قلت: أهؤلاء يفترون على الله كذبا؟

قال: ويكذبون بآياته.

قلت: لا.. إنهم مؤمنون.

قال: يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض.

كان الغضب باديا على معلم السلام، وهو يتحدث.. لست أدري هل يصيب جنسه من الخطأ حين الغضب مثلما يصيب جنسنا.. أم أنه معصوم الغضب، معصوم الرضا؟

قال لي، وكأنه قرأ ما في عيني: لقد عجبت لغضبي.

قلت: كنت أراك هادئا كصفحة الماء التي لم تعكر.

قال: الغضب لله سنة رسول الله ﷺ.. ولا ينبغي أن نميت سنة رسول الله ﷺ، فقد كان ﷺ إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه كأنه منذر جيش يقول: صبحكم مساكم(1).

قلت: أجل.. وقد غضب ﷺ في مواضع.. ولم يكن غضبه إلا لله.. ففي الحديث الصحيح أن رسول اللّه ﷺ قال لأسامة لما علا ذلك الرجل بالسيف، فقال لا إله إلا اللّه فضربه فقتله، فذكر ذلك لرسول اللّه ﷺ، فقال لأسامة: (أقتلته بعدما قال لا إله إلا اللّه؟ وكيف تصنع بلا إله إلا اللّه يوم القيامة؟)، فقال: يا رسول اللّه إنما قالها تعوذاً، قال: (هلاّ شققت عن قلبه) وجعل يقول ويكرر عليه: (من لك بلا إله إلا اللّه يوم القيامة؟) قال أسامة: حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ(2).

رأيت جماعة من المرضى تبدو عليهم الكآبة يدخلون من أربعة أبواب في ذلك الحصن، سألت المعلم عنهم، فقال: هؤلاء مساكين.. أصابهم رقاتكم بأنواع من الكآبة.. ولكن الله هداهم، فجاءوا إلى هذا المستشفى ليغسلوا ما أصابهم من سوء الفهم.. وما ملأ قلوبهم من العلل.

قلت: فهل ندخل معهم؟

قال: لا مناص لنا من ذلك.. فلا ينبغي أن تعود إلى قومك بعلم لا تعرف تفاصيله.

الاستعاذة من الشياطين

دخلنا الباب الأول من أبواب هذا الحصن، وقد كتب على بابه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً ﴾ (فاطر: 6)

قلت للمعلم: ما سر تحذير النصوص من الشياطين؟

قال: الشيطان هو العدو الأول للإنسان، ألم يأب السجود لأبيكم آدم عليه السلام؟

قلت: ليس الشيطان وحده.. بل من معه من ذريته.. فإن قومي يحذرون منه ويحذرون.. ولذلك تمتلئ بيوتهم بالمعوذات، ويكثرون بين الحين والحين من زيارة الرقاة.

قال: أخطأتم.. أنتم تخافون الشيطان على دنياكم لا على دينكم.. تخافون منه أن يصيبكم بالأمراض، أو يصيب أموالكم

1) ابن ماجة، وابن حبان والحاكم.
2) البخاري ومسلم.

بـالمحق.. أو يصـيب ذراريكم بـالفقر.. وكأنـه إلـه يـوزع الأرزاق، لا شيطان يعلم المروق.

قلت: أصدقك.. فإن قومي لا يقصدون الرقاة إلا لأجل هذا.

قـال: هـذا كيـد من كيـد الشـيطان، وأحبولـة من أحابيلـه.. الشيطان لا يهمه غناكم، أو فقركم، بل إنـه قـد يحب غنـاكم الـذي يصرفكم عن الله أكثر من حبه لفقركم الذي يقربكم إلى الله.

قلت: فلماذا نستعيذ من الشيطان؟

قال: لما قاله تعالى في الآية المعلقة على لافتة البـاب، فقـد قال: إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَـهُ لِيَكُونُـوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (فاطر:6)، فقد ذكر علة واحدة لاتخاذه عدوا، وهي كونه يدعو إلى السعير.

قلت: قومي لا ينكرون هذا..

قـال: ولكنهم يـتيهون عنـه.. يجعلونـه أمـرا هينـا بجـانب مـا يتصورونه من أباطيل.

قلت: لا أفهم قصدك.

قال: في أي موضع يستدل قومك بقولـه ﷺ: (إن الشـيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)(1)؟

قلت: يستدلون به على قدرة الشيطان على اسـتعمار جسـد الإنسان، واضطراره إلى الرقاة ليخلصوه.

قال: وهل هذا الحديث الشريف ورد في هذا الموضع؟

قلت: لا.. لقـد ورد في مواضـع مختلفـة، منهـا قولـه ﷺ: (لا تـدخلوا على هـؤلاء المغيبـات، فـإن الشـيطان يجـري من ابن آدم مجرى الدم)، قيل: يا رسول اللـه ومنـك؟ قـال: ومـني إلا أن اللـه أعانني عليه فأسلم(2).

قـال: فهم يحرفـون الحـديث إن فهمـوا منـه مـا فهمـوا.. فلا ينبغي صرف ألفاظ النصوص عن السياق الذي وردت فيه.

قلت: ولكنهم يسـتدلون بهـذا من بـاب العمـوم، لا من بـاب الخصوص.

قال: أي عموم، وأي خصوص.. لم يكن رسول الله ﷺ ليغفل عن هذا حتى نذكره.. ولم يكن ليجهل حتى نعلمه.. ولم يكن ليترك دينه ناقصا حتى نكمله.

***

1) النسائي.
2) النسائي.

ينما نحن كذلك إذ دخل شيخ مهيب ممتلئا وقارا، فرنت عيون المرضى إليه، فقلت للمعلم: من هذا المهيب الذي امتلأ قلبي هيبة له.

قال: هذا ولي صالح.. وعالم جليل.. وهو خبير بعالم الشياطين.

قلت: إذن هو راق ناجح.. ولكني لا أرى الغنى يبدو عليه!؟..

قال: هو راق للقلوب، وبالحقائق.. لا ما يفعله قومك من الدجل.

قلت: ولكنهم يستندون للقرآن الكريم والسنة المطهرة.

قال: فهذا الرجل المهيب لم يكتسب هيبته إلا من القرآن الكريم، فاستمع إليه ليبين لك موقف القرآن الكريم من هذا العالم.. فهو الكتاب الوحيد الذي يمدنا بالحقائق.

قلت: وما شأن هؤلاء المساكين بهذا الرجل؟

قال: هؤلاء المساكين أقنعهم رقاتكم أنهم مستعمرون بعوالم من الجن والشياطين.. ثم استلوا كل ما في جيوبهم.. يحرقون كل يوم جنا بمال من مالهم وعرق من عرقهم.. فلما فرغت جيوبهم لجأوا إلى الله.. فدلهم على هذا المستشفى.. فأرسلتهم إدارة هذا المستشفى لهذا القسم ليصححوا ما أوقعهم فيه قومك من أخطاء ومن كآبة.

القرآن الكريم:

عم القاعة سكون مهيب، بعده تكلم الرجل المهيب بصوت يكاد يكون من السماء، قال، وكأنه يواصل كلاما قديما: لتقرير هذه الحقائق ـ الغائبة للأسف ــ نسوق هنا أكثر ما ورد في القرآن الكريم من ذكر الشيطان وعلاقته بالإنس، باختصار، لنفهم المسألة على ضوء القرآن الكريم، لا على ضوء ما يشرعه الرقاة المشعوذون:

فالله تعالى يقرر أن المس الذي يمس به الشيطان لا يعدو هذه الوساوس التي يلقيها، فتملأ القلوب هما وحزنا، وقد يمتد تأثيرها إلى الجوارح مرضا وأنينا، وقد يكون محل الوسوسة مريضا مستعدا لحصول الصرع، فيصرع ويتخبط، لتأثير تلك الوساوس على نفسه، بل هو يتخبط لأي وساوس من الجن أو من الإنس.

وهذا التأثير الذي يحدثه الشيطان في القلوب والنفوس، وقد يمتد إلى الجوارح والأعضاء، لا يكون إلا لأوليائه المقترنين به، قال تعالى: إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ

كُنْتُمْ مُـــؤْمِنِينَ (آل عمـــران:175)، وقـــال تعـــالى: وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً((النساء:38)، وقال تعالى: وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً((النساء: 119)، وقال تعالى: وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (لأعراف:175)، وقال تعالى: تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (النحل:63)

أما المؤمنون، فلا يضرهم الشيطان، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (لأعراف:201)، وقال تعالى: إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (المجادلة:10)

وذلك لأن معهم أسلحة مقاومته، قال تعالى: إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (صّ:83)، وقال تعالى: وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (لأعراف:200)

وذلك لأن كيده ضعيف مثل ضعفه، قال تعالى: إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً (النساء: 76)، وقال تعالى: وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (لأنفال:48)

والشيطان يخوف معتنقي وساوسه من الفقر، ويأمرهم لذلك بالفحشاء، قال تعالى: الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (البقرة: 268)

والغاية الكبرى من وساوس الشيطان هي الإضلال وتوابعه، قال تعالى: وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً (النساء:60)، وقال تعالى: وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (الزخرف: 62)، وقال تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (لقمان:21)، وقال تعالى: إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (فاطر:6)

قلت للمعلم: صدق الرجل، فضحايا هذه الحروب كما يصورها هؤلاء الرقاة ليست كما ورد في القرآن الكريم من تزيين المنكر والغواية وأصناف الوساوس الصارفة عن الله، وإنما هي حروب

متصلة بالحياة المادية التي تلتصق التصاقا شـديدا بمصـالح النـاس ورغباتهم.

قال: أتدري ما الدافع إلى اختصار هـؤلاء الرقـاة علاقـة الجن بـالإنس في هـذه الناحيـة، أو تضـخيمها على حسـاب غيرهـا من النواحي؟

قلت: ما سر ذلك؟

قال: لأنهم رأوا ذلك هو الاهتمام الوحيد للمجتمع، فهو لا يهمه أن يعرف مسالك الغواية أو مداخل الشيطان أو ضروب الوسوسة مادام ذلك لا يصـيبه بصـرع أو تخبـط أو فقـر أو حاجـة، ولا يصـيب مصالحه بـأي نـوع من الأذى سـحرا أو مسـا أو عينـا أو غيرهـا من مصادر البلاء التي وكل بها الجن وتسلطوا على بني آدم في تصـور هؤلاء.

واصل الشيخ يقول: وهو لذلك يبهرج لهم الوساوس ليتبعـوه، قـال تعـالى: ﴿ يَعِـدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَـا يَعِـدُهُمُ الشَّـيْطَانُ إِلَّا غُـرُوراً﴾ (النساء:120)، وقال تعالى: ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَـاءَهُمْ بَأْسُـنَا تَضَـرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَـا كَـانُوا يَعْمَلُـونَ﴾ (الأنعـام:43) وقال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْـدِيَ لَهُمَـا مَـا وُورِيَ عَنْهُمَـا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَـا نَهَاكُمَـا رَبُّكُمَـا عَنْ هَـذِهِ الشَّـجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَـا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَـا مِنَ الْخَالِـدِينَ﴾ (لأعـراف:20)، وقـال تعـالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَـالَ يَـا آدَمُ هَـلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَـجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾ (طـه:120)، وقال تعـالى: ﴿ وَمَـا أَرْسَـلْنَا مِنْ قَبْلِـكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَـخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّـيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِـهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الحج:52)

وهو يبحث عن كل الوسائل المؤدية إلى الإضـلال، قـال تعـالى: ﴿إِنَّمَـا يُرِيـدُ الشَّـيْطَانُ أَنْ يُوقِـعَ بَيْنَكُمُ الْعَـدَاوَةَ وَالْبَغْضَـاءَ فِي الْخَمْـرِ وَالْمَيْسِـرِ وَيَصُـدَّكُمْ عَنْ ذِكْـرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّـلاةِ فَهَـلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُـونَ﴾ (المائدة:91)، وقال تعالى: ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّـيْطَانَ يَنْـزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّـيْطَانَ كَـانَ لِلْإِنْسَـانِ عَـدُوّاً مُبِينـاً﴾ (الإسراء:53)، وقال تعالى: ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَـوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَـارِكْهُمْ فِي الْأَمْـوَالِ وَالْأَوْلادِ وَعِـدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾ (الاسراء: 64)، وقال تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّـيْطَانُ كَمَـا أَخْـرَجَ أَبَـوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْـزِعُ عَنْهُمَـا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُـهُ مِنْ حَيْثُ لا تَـرَوْنَهُمْ إِنَّا

جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (لأعراف:27)، وقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (النور:21)

وبعد هذا كله، فإن الشيطان يخون من اتبعه، ويتركه في أهم مواضع الحاجة، قال تعالى: وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً (الفرقان:29)، وقال تعالى: كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (الحشر: 16)

قال: أسمعت هذا العرض لكثير مما ورد في القرآن الكريم من ذكر الشيطان.

قلت: أجل..

قال: الأمر أخطر من هذا.. فهؤلاء الرقاة لا يقصرون خطر الجني أو الشيطان على الصرع، بل يتعدونه إلى أشياء كثيرة تدل النصوص القطعية على أنها من خصوصيات الله.

قلت: أوصل بهم الأمر إلى هذه الدرجة؟

قال: أجل.. ماذا يقول الله تعالى في الأولاد؟

قلت: يعتبرهم نعمة من الله تعالى على عباده يجب شكرها، فالله تعالى يقول: يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (الشورى:49)

قال: إلا أن التفسيرات التي يتولاها رقاتكم تجعل الأولاد هبة من الشياطين، لا هبة من الله.

قلت: لم أسمع هذا.

قال: هم يجعلون العقم وليدا لتصرف جني يستقر في الرحم ليحول بين البويضة وحصول التلقيح، أو (ينفث في الجنين بعد تخلقه فيموت وتسقط المرأة حملها)(1)

أو أن الجن (يترك الإخصاب يتم ويكتمل الحمل، ولكن بعد عدة شهور من الحمل يركض الشيطان عرقا في رحم المرأة، فينزل الدم فيحدث الإجهاض)(2)

قلت: نعم.. هم يقولون هذا، ويتفقون عليه، ويبرقون من به عقم على هذا الأساس.. أو على أسس أخرى قريبة.

---

1) الحاج خليفة معامرة،تجربتي الواقعية في الرقية الشرعية،عنابة:مطبعة الريام، 1997،ص45.

2) وحيد عبد السلام البالي، الصارم البتار في التصدي للسحرة الأشرار، ص112.

قال: هذا التفسير الغريب الذي يكاد يجمع عليه الرقاة وبه يجتذبون كل من لديهم مشاكل في العقم أو حنين للأولاد يحمل ظلالا كثيرة من الشرك.

قلت: الشرك!؟ هذه تهمة خطيرة.

قال: ولكنها واقع.. فإن قولهم ذلك يؤدي إلى اعتبار الجني هو الواهب للأولاد بكف أذاه عنهم، وبتركهم يخرجون من أرحام أمهاتهم بسلام، وكأن الملك الموكل بالرحم والوارد في الأحاديث الصحيحة الإخبار عنه، وهو يؤمر بنفخ الروح فيه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقي وسعيد يقف عاجزا أمام تسلط الجني المارد الذي وصلت قوته وجبروته إلى أن يتحدى وجود كائن أذن الله له بالتخلق.

قلت: هذا صحيح.. ولقد لاحظت هذا.

قال: وهذا التفسير وما يحمله من خرافة وشرك هو الذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (لأعراف: 189 ـ 190)

فالقرآن الكريم يذكر في هاتين الآيتين حالة حمل خاف الزوجان خلالها أن يسقط الحمل أو يولد على غير الخلقة البشرية، ويمكن أن يكونا قد التجآ إلى أي وسيلة من والوسائل لحفظ الحمل، ولكن بعد أن من الله عليهما بالولد السوي نسباه لغير الله، وقصراه على تلك الوسائل.

قلت: لم أفهم علاقة الآيات الكريمة بواقع الرقاة عندنا.

قال: إن الشبه بين الشرك المنصوص عليه في تينك الآيتين والشرك الذي تعيشونه قريب، فالراقي وزبناؤه يعتقدون أن تلك الرقية التي خلص بها الرحم من الجن المارد هي السبب المباشر لحصول نعمة الولد مع أنه هبة ربانية لا ارتباط لها بالراقي ولا بالجن، وكان يجب أن يولد ذلك الولد مادام مقدرا له أن يولد، ولو ذهبت أمه لساحر أو كاهن أو مشعوذ.

وبهذه التصورات الشركية تمكن كل مشعوذ ودجال من السيطرة على عقول الناس وقلوبهم وجيوبهم، لأن الله تعالى شاء أن يبسط عليهم من فضله وهم في صحبة ذلك المشعوذ، فيعتقد العامي الساذج أن تلك الصحبة هي السبب والواسطة والمحل

والمؤثر.

قلت: نعم.. هـذا شـرك واضـح.. وكثـيرا مـا أراهم ينسـبون حصول الولد لراق معين.

قال: وهم لا يكتفون بهذا.. بل يضيفون لهذا تحريفـات أخـرى للقرآن الكريم.

قلت: فماذا يقولون؟

قـال: هم يسـتندون إلى تفاسـير عجيبـة للقـرآن تتنـافى مـع المسـلمات الشـرعية، فهم مثلا يفسـرون قولـه تعـالى: ﴿ وَيَـوْمَ يَحْشُـرُهُمْ جَمِيعـاً يَـا مَعْشَـرَ الْجِنِّ قَـدِ اسْـتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْأِنْسِ وَقَـالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْأِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَـا أَجَلَنَـا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَـاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام:128) بالاستمتاع بين الجن والإنس(1).

قلت: سـمعت هـذا.. وهـو من المسـلمات عنـد العامـة والخاصة.. بل لعلهم ينقلون عليه الإجماع.

قال: مع أنه لم يدل أي دليل نصي على ذلك، وإنما هي أخبـار تتلقى عادة من المرضى النفسـيين والمجـانين لتبـنى منهـا قضـايا عقدية يحتاج التسليم لها إلى نصوص صريحة قطعية.

قلت: نعم.. هذه حقيقة عشتها.. فهم يصدقون كل ما يقـال.. المهم أن يصب فيما يرونه.

قـال: ليس هـذا فقـط.. بـل إنهم يتنـازلون كـذلك عن كـل مواقفهم من البدعة، فيضعون الأوراد الطويلة الـتي يبحث بهـا عن الجن أو التي يحرق بها، أو التي يعاهد على أساسها الجني، أو التي يفك بها السحر.

قلت: من العجيب ــ يـا معلم ــ أن توظـف الآيـات الكريمـة بواسطة هذه الفهوم توظيفا لا يليق بقدسيتها، فبعضـهم مثلا يـذكر من أوراد فـك الربـط قولـه تعـالى: ﴿ فَانْطَلَقَـا حَتَّى إِذَا رَكِبَـا فِي السَّـفِينَةِ خَرَقَهَـا قَـالَ أَخَرَقْتَهَـا لِتُغْـرِقَ أَهْلَهَـا لَقَـدْ جِئْتَ شَـيْئاً إِمْـراً﴾ (الكهف:71)

قال: الأمثلة عن ارتباط الخرافة بالعالم الغيبي واستغلالها في العبث بمشاعر الناس وصحتهم كثيرة، وخطرها لا يكمن في كونهـا خرافة أو شعوذة، ولكنه في استعمال القرآن الكـريم في إشـاعتها ونشرها واعتبارها علاجا شرعيا، وهو ما ينذر بخطـر عظيم، فهـؤلاء لا يكتفون بالقراءة، بل قد يلجئون إلى الضـرب المـبرح أو الكي أو

1) انظر:محمد الصايم،حوار مع الشياطين،ص61.

الكهرباء أو غيرها من وسائل التعذيب لأنهم في تصورهم لا يعذبون المريض وإنما يعذبون الجن الذي يتلبسه، وقد يأتي يوم يسقون فيه مرضاهم السم ليقتلوا الجن، وما ذلك منهم ببعيد(1).

قلت: ولكنهم ــ يا معلم ــ يستدلون لذلك بنص من القرآن الكريم لا ينبغي تجاوزه.

قال: قوله تعالى: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ (البقرة:275)

قلت: أجل.. ففي هذه الآية تصريح بأن الشيطان يتخبط الإنسان من المس.

قال: في أي سياق وردت الآية.. ألم تعلم أنه لا ينبغي فصل الآية عن سياقها؟

قلت: وردت في سياق تحريم الربا، تشبه المرابين بهذه الصورة، قال تعالى: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا

---

1) لم يعد الضرب هو الوسيلة الوحيدة التي يعامل بها الجن عند هؤلاء الرقاة، بل إنهم كل يوم يطورون المزيد من الطرق، ويستفتون العلماء الذين لا يجدون منهم إلا التشجيع، وقد أورد بعض الرقاة هذه الطرق من أنواع الأذى والتي عنونها بقوله: (لحاق الأذى بالجن المعتدي الساكن بالجسد)، ومن هذه الطرق:

1. استخدام الماء الساخن المقروء عليه في تعذيب الجن وابعاده عن مكان أذاه بالجسم بوضع الماء الساخن على العضو المراد

2. استخدام الموجات الصوتية بواسطة سماعات عالية التردد موصلة بجهاز تسجيل عليه آيات الرقية والحرق والحفظ وبعض السور والآيات ووضع السماعة على مكان وجود الجن أو مكان تأثيره في عضو من الأعضاء فيبدأ الجن في ترك العضو غير السليم.

3. استخدام الثلج المقروء عليه آيات معينة ووضعه على وجه الشخص المصاب وخاصة في حالة الجن المجوسي عابد النار.

4. استخدام جلسات الكهرباء على الدماغ أو على أي عضو من أعضاء الجسم لصرف الجني المسبب للألم أو المرض.

5. غمر الجسد أو جسم المصاب في حوض به ماء مقروء عليه (برميل ماء مثلا)مع تغطيس الجسم كله بالرأس صعودا وهبوطا لخنق الجن.

6. كتابة آيات قرآنية على جسم المصاب أو أماكن وجوده لحبس الجني العارض وتكتفيه.

7. صرفه من الرحم وخاصة في سحر النزيف بواسطة الأعشاب (شرب مغلي نبات البرداقوش والينسون والحرمل) وينفع كذلك شرب مغلي الشبت والبقدونس ويحلى المشروب بالعسل المقروء عليه 0

8. هناك مأكولات تضر بالجن اليهودي مثل ان يحرص المريض على أن يأكل لحم الأرانب لأن اليهود لا يأكلون الأرانب.

9. الحجامة أثناء القراءة وأثناء وضع حقنة الجلوكوز في وريد المريض

10. استخدام العطس، ويتم باستنشاق النشوق في الأنف عدة مرات وتحميد الله فإن ذلك يؤذي الجن وخاصة إذا كان النشوق مقروءا عليه.

11. إنزال الجن الساكن بالدماغ والمقارن للحالة (حاضر على الحالة طوال الوقت) بواسطة جلسات الكهرباء على الدماغ وعمل الحجامة اللازمة والضرب بقوة على أعلى الظهر ونقرة القفا.

وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عادَ فَأُولَئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (البقرة:275)

قال: فأنتم حرفتم هذه الآية تحريفا شنيعا.. انشغلتم بالتشبيه عن الحقيقة.. تركتم بنوككم وجيوبكم وحياتكم تمتلئ بالربا.. ورحتم للتشبيه تملؤون عيونكم وقلوبكم وحياة الناس به.

قلت: ولكن مع ذلك فهو قرآن كريم، وهو لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (فصلت:42)

قال: فما يقول قومك في هذه الآية؟

قلت: هم يتشددون في تفسيرها.. ويرون من خالف ما ذهبوا إليه مخالفا للسنة ولأهل السنة وشاذا عن جماعة المسلمين.. وهم ينقلون أقوال المفسرين في ذلك كدليل على هذا الإجماع.

قال: فأخبرني بما قالوا؟

قلت: نقلوا عن الطبري قوله: (فقال جلَّ ثناؤه للذين يأكلون الربا الذي وصفنا صفته في الدنيا لا يقومون في الآخرة من قبورهم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، يعني بذلك: يتخبطه فيصرعه من المس، يعني من الجنون، وبمثل ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل(1).

قال: صدق الطبري.. وهو لم يعدو ما ورد في الآية.

قلت: كيف هذا.. فأنت توافقهم إذن.

قال: لقد قال الطبري: (فيصرعه من المس) وهو لم يخالف نص الآية بذلك.

قلت: كيف هذا؟

قال: اذكر لي أولا ما قالوا.. ثم نشرح هذا.

قلت: نقلوا عن أبي إسحاق الزجاج قوله: (المعنى: الذين يأكلون الربا لا يقومون في الآخرة إلا كما يقوم المجنون من حالة جنونه، يقال بفلان مس، وهو أَلْمَسَ وأَوْلَقَ: إذا كان به جنون) (2)

قال: صدق أبو إسحاق.. بل وقف إلى جنب أهل الحق.

قلت: ونقلوا عن الماوردي قوله: (لا يقومون يوم القيامة من قبورهم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، يعني الذي يخنقه الشيطان في الدنيا من المس، يعني الجنون) (3).

قال: هو لم يعدو ما ذكر أصحابه.

---

1) الطبري: 3/101.
2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه:1/358.
3) الماوردي: النكت والعيون: 1/348.

قلت: ونقلوا عن عبد الرحمن بن الجوزي قوله: (قال ابن قتيبة: لا يقومون أي يوم البعث من القبور، والمس: الجنون، يقال رجل ممسوس: أي مجنون) (1).

قال: أراهم يكررون نفس الكلام.. فما الحاجة إلى كل هذه التطويلات؟

قلت: ليؤكدوا ما قالوا.. وليستدلوا على الإجماع بسبب ذلك.

قال: فليفهموا ـ أولا ـ ما يقولون قبل أن ينقلوه.. فإن كل ما قالوه صحيح لا يختلف فيه المسلمون جميعا سنتهم وشيعتهم سنيهم ومعتزليهم.

قلت: لا.. المعتزلة يختلفون اختلافا شنيعا مع أهل السنة في هذا، وقد جروا أنفسهم إلى سهام أهل السنة ورميهم لهم بالبدعة.

قال: فما يقولون؟

قلت: ذهبوا إلى القول بعدم قدرة الجن على التأثير في بدن الإنسان وصرعه له(2).

قال: أهذا ما ذهبوا إليه؟

قلت: لم يكتفوا بهذا، بل جروا إليهم نفرا من أهل السنة.

قال: ومن هؤلاء المغفلون من أهل السنة الذين تركوا أنفسهم في أيدي المعتزلة ليجروهم إلى البدعة!؟

قلت: كثيرون.. كثيرون جدا.

قال: مساكين.. فاذكر لي من هم لعلي أشفع لهم.

قلت: من الأقدمين: محمد بن علي القفال الشافعي المذهب، والبيضاوي وأبو السعود، وكلاهما من أصحاب التفاسير الذين اختصروا كتاب الكشاف للزمخشري المعتزلي، ومن المحدثين الشيخ محمود شلتوت، والشيخ طنطاوي جوهري، والشيخ أحمد مصطفى المراغي، والشيخ محمد الغزالي.

قال: هؤلاء من فحول العلماء، فكيف يتسلط المعتزلة على عقولهم!؟

قلت: اسمع ما قالوا لتدرك ذلك.. يقول القفال في تفسيره للآية السابقة: (إن الناس يضيفون الصرع إلى الشيطان وإلى الجن، فخوطبوا على ما تعارفوا من هذا، وأيضاً من عادة الناس إذا أرادوا تقبيح شيء أن يضيفوه إلى الشيطان كما في قوله تعالى: طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ (الصافات:65)) (3).

---

1) زاد المسير: 1/286.
2) انظر مقالات الإسلاميين: 1/133.
3) الرازي: 7/89.

قال: هذا رأي ذهبوا إليه.. ولهم في اللغة ما يـدل عليـه.. ولـو أني أرى أن القرآن الكريم أعظم من أن ينقل خرافة جاهلية..
قلت: فأنت مع المؤيدين إذن؟
قال: لأي شيء؟
قلت: لدخول الجني في الإنسي وصرعه له.
قال: وهل نص القرآن الكريم على ما ذكرت.. وهل قـال من قال من المفسرين الذي ذكرت أقوالهم ذلك؟
قلت: أجل.. وهو ما يستند إليـه الرقـاة في جهـادهم لتخليص الإنس من استعمار الجن.
قال: وهل ذكر القرآن الكريم الدخول.. أم ذكر المس؟
قلت: ذكر المس.
قال: فهل المس في لغة القـرآن الكـريم ولغـة العـرب الـتي نزل بها القرآن الكريم يعني الدخول.
قلت: لا.. ولكنه قد يعنيه على سبيل المجاز.
قال: والأصل في اللغة الظاهر لا المجاز.. هل ورد هذا اللفظ مرتبطا بالشيطان في غير هذا الموضع؟
قلت: بلى، فقد قال تعـالى عن حـال المتقين إذا تعرضـوا لمس الشياطين: إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّـهُمْ طَـائِفٌ مِنَ الشَّـيْطَانِ تَـذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (لأعراف:201)
قال: فلم لم يقل الله تعالى: (إذا مسهم طائف من الشيطان ذهبوا إلى الرقاة ليخرجوه منهم)
وهـل تتصـور أن هـؤلاء الأتقيـاء الـذين ذكـرهم اللـه تعـالى يتخبطون من المس الذي أصابهم به الشياطين.
قلت: لا.. بل أرى أنهم أعظم شأنا من ذلك.
قال: قل لي: أنتم تدرسون خصائص الأنبياء.
قلت: أجل.. فمن صفاتهم الأمانة والصدق والتبليغ والفطانة، ومن خصائصهم..
قاطعني، وقال: هل يمكن أن يكون النبي مجنونا؟
قلت: هـذا عظيم.. كيـف تقـول هـذا، فهـذا من المنفـرات.. والنبي أذكى الأذكياء وأعظم العباقرة، فكيف يكون مجنونا؟
قال: رقاتكم يقولونه.
قلت: كيف.. لم أسـمعهم يقولـون هـذا.. ولـو قـالوه لرمـاهم الناس بالحجارة.
قال: ألم يقل الله تعالى: وَاذْكُـرْ عَبْـدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَـادَى رَبَّهُ أَنِّي

مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (صّ:41).. فقد ذكر أن الشيطان مسه.. والمس عند رقاتكم يعني الدخول والصرع والتخبط.. وقد فسرتموه بالجنون.

قلت بيني وبين نفسي: هذا صحيح.. فكيف غاب عن بالهم هذا؟ ولكن كيف تفسر علاقة المس بالتخبط الذي ورد في القرآن الكريم؟

قال: ذلك شيء بسيط.. وسأضرب لك مثالا لتوضيحه.

قلت: هات.. فبالمثال يتضح المقال.

قال: سمعتكم تتحدثون عن مرض تسمونه (الحساسية)

قلت: أجل.. فبعض الناس لا يطيقون أشياء معينة، فتصيبهم لأجل ذلك علل قد لا تصيب سائر الناس.

قال: مثل ماذا؟

قلت: لعل أقرب مثال لذلك القطط.

قال: ما بها؟

قلت: فمع أنها من الطوافين علينا والطوافات(1)، إلا أن بعض الناس تصيبهم بالحساسية.

قال: أي أنهم يصيبهم التخبط كلما رأوا القطط.

قلت: ليست الرؤية وحدها.. هناك أشياء أخرى فقد أوردت وكالات الأنباء أن فريقا من الباحثين الفرنسيين نجح فى عزل الجين المسئول عن الحساسية التى تسببها القطط المنزلية لأصحابها..

قال: ألهذه الدرجة تهتمون بهذا؟

قلت: وأكثر من ذلك.. فلبعض الناس ولع شديد بالقطط قد لا تساعدهم عليه الحساسية التي تصيبهم جراء احتكاكهم بها.

قال: فما الرقية التي وضعتموها لهذا؟

قلت: لا.. هذا ليس ميدان الرقاة.. ولكن الباحثين في الولايات المتحدة يسعون أن ينجزوا في المستقبل مشروعا للتكييف الجيني يهدف إلى إنتاج قطط خالية مما يثير الحساسية عند البعض ممن يواجهون مشاكل باقترابهم من القطط.

وقد تدخلت الشركات في هذه البحوث، حيث أن شركة ترانسجينيك بيتس، وهي شركة للتكنولوجيا الحيوية تعتزم بيع هذا النوع الجديد من القطط بأسعار تصل إلى ألف دولار للقط.

---

1) نص الحديث:(إنها ليست بنجس إنها من الطوافين عليكم والطوافات) رواه مالك وأحمد وابن حبان والترمذي، وقال: حسن صحيح.

قـال: دعنـا من شـذوذكم.. قـل لي: كيـف تـؤثر القطـط في الحساسية التي تصيب هؤلاء.. هل تـدخل في هـؤلاء الممسوسـين بها؟

قلت: لا.. ـ يا معلم ـ بـل هي بمـا فيهـا من روائح تسـبب لهم تلك النوبات.

قال: فهل السبب منهم أم من القطط؟

قلت: منهم.. بـــدليل أن القطـــط من الطـــوافين علينـــا والطوافات، ومع ذلك لا يصيبنا منها شيء.

قال: فإذا أراد المريض أن يتجنب مـا تثـيره القطـط فيـه من حساسية ماذا يفعل؟

قلت: هناك حلان: إما أن يجتنبها تماما، وإمـا أن يسـتعمل من الأدوية ما يخفف أو يزيل تأثيرها عنه.

قال: فإذا صادف وأصيب أحد بنوبة حساسية جراء رؤيته لقط هل تستقدمون الرقاة ليقول له: (اخرج أيها القط)

قلت: نحن لا نفعـل هـذا.. بـل نعطيـه الأدويـة الـتي تعيـد لـه هدوءه.. ولكن ما علاقة هذا بما نحن فيه؟

قـال: نفس المثـال الـذي ذكرتـه عن القطـط ينطبـق على المس الشيطاني.

قلت: كيف؟

قال: في بعض الناس أمراض عضوية، سـنعرفها من الأطبـاء في هذا القسم.. وهذه الأمراض تجعل لهم حساسية تجاه وساوس معينة.

قلت: مثل ماذا؟

قال: كأن يخوفوا مثلا خوفا شديدا.. فإن ذلك الخوف يتسـبب لهم في حصول هذه النوبات.

قلت: فالخوف هو الجين المسؤول عن هذه الحالة؟

قلت: ليس وحده، فهناك جينـات أخـرى.. ولكنـا نقتصـر على مثال التخويف.. فهذا الذي يصرع لأجل الخوف لو لاقاه أي مخلوق وخوفه ألا تصيبه نوبة الصرع؟

قلت: أجـل.. فهـو لا يختلـف عن الحساسـية.. يظهـر بظهـور السبب، ويختفي باختفائه.. ولكن ما دور الشيطان في هذا؟

قال: الشيطان خبير ماهر بطبيعة من يوسوس له.. فـإذا علم من قرينه هـذا.. راح يوسـوس لـه بالمخـاوف إلى أن يتخبطـه من المس، كمـا قـال تعـالى: إِنَّمَـا ذَلِكُمُ الشَّـيْطَانُ يُخَـوِّفُ أَوْلِيَـاءَهُ فَلا

تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (آل عمران:175)

قلت: فأنت تفسر المس بالتخويف.

قال: التخويف بعض المس.. فمن الناس من لا يخاف.. ولكن يغضب، فيأتيه الشيطان.. وينفخ فيه من الوساوس ما يملؤه غضبا.. ألم تقرأ قوله ﷺ: (إنما الغضب من الشيطان، والشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ)(1)

قلت: بلى.. ولهذا سن لنا النبي ﷺ أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم في هذه الحال، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ رأى رجلين يستبان، وأحدهما قد احمر وجهه وانتفخت أوداجه فقال رَسُول اللَّهِ ﷺ: (إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عَنْه ما يجد، لو قال أعوذ باللَّه مِنْ الشيطان الرجيم ذهب عَنْه ما يجد)، فقالوا له إن النبي ﷺ قال: تعوذ باللَّه مِنْ الشيطان الرجيم(2).

قال: فالشيطان يوسوس لكل الناس، كما أن القطط تخالط جميع الناس، ولكن بعض الناس لهم استعدادات معينة كالحساسية والصرع، فيصيبهما ما يصيب.

قلت: فأنت تقر أن للشيطان دورا.

قال: صحيح.. وما كان لي أن أخالف القرآن الكريم.. ولكن: أجبني إن حصلت الوساوس من الإنسان بأن كان هو المتسبب في التخويف أو الغضب، فلماذا ننسب الصرع حينها للشيطان؟

قلت: ولكن القرآن الكريم ذكر الشيطان.

قال: ولكن القرآن الكريم لم يقصر الشيطان على إبليس، بل قال: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً (الأنعام:112)، وأمرنا بالاستعاذة منهم جميعا، فقال: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (الناس:1) إلى قوله تعالى: مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (الناس:6)

قلت: فما العلاج في رأيك؟

قال: علاجان: أحدهما لأهل الله يملؤون قلب الخائف طمأنينة، وغضبه سكينة، والآخر للأطباء يستأصلون مكامن الداء.. هو نفس علاجكم لوساوس القطط.. ألستم تعزلونها، أو تحاولون استنساخ السليم منها، أو تعالجون العليل بالمراهم، لا بأمر القطط بالخروج.

---

1) أحمد وأبو داود عن عطية السعدي.
2) البخاري ومسلم.

***

قلت: ولكن الأمر مخوف.

قال: لماذا؟

قلت: أخشى أن أخرج عن إجماع المفسرين، فهم يتفقون على أن المس يرتبط بالتخبط.

قال: هذا صحيح، وقد شرحنا ذلك.

قلت: والتخبط يكون عن دخول.. لا عن مجرد وسواس.. وهم يتشددون في المخالف لهذا ويرمونه بالبدعة، فقد قال القرطبي: (وفي هذه الآية دليل على فساد إنكار من أنكر الصرع من جهة الجن، وزعم أنه من فعل الطبائع، وأن الشيطان لا يسلك في الإنسان، ولا يكون منه مس)(1)

ويقول بن جزي الكلبي: (أجمع المفسرون أن المعنى لا يقومون من قبورهم في البعث إلا كالمجنون، ويتخبطه يتفعله من قولك: خبط يخبط، والمس: الجنون)(2)

ويقول محمد الطاهر بن عاشور: (والذي يتخبطه الشيطان هو المجنون الذي أصابه الصرع، فيضطرب به اضطرابات، ويسقط على الأرض إذا أراد القيام.. وإنما احتيج إلى زيادة قوله ﴿من المس﴾ ليظهر المراد من تخبط الشيطان، فلا يُظن أنه تخبط مجازي بمعنى الوسوسة)(3)

قال: فهل تترك ما فهمت إلى ما قالوا لمجرد خوفك أن تخرج عن قومك؟

قلت: صعب جدا أن يخالف المرء قومه.

قال: فمن قومك من ذهبوا إلى ما فهمت واقتنعت.. واسمع لهذا المتخصص في آراء الرجال يخبرك ويخبر هؤلاء المرضى المساكين الذين حرف لهم كلام ربهم بكلام الرجال.

دخل رجل القاعة، وبمجرد دخوله بادره المرضى يقولون: نخشى أن نخالف الإجماع.

قال لهم بنبرة الواثق: ومن قال بالإجماع حتى تخالفوه؟

قالوا: أقوامنا.

قال: أليس القفال، والبيضاوي وأبو السعود، ومحمود شلتوت، وطنطاوي جوهري وأحمد مصطفى المراغي، ومحمد الغزالي من أقوامكم؟

---

1) القرطبي:3/355، وانظر نفس القول في تفسير الشوكاني:1/295.
2) ابن جزي الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل: 1/94.
3) التحرير والتنوير: 3/82.

قالوا: بلى.. بل هم من خيارنا.. وبنو خيارنا.

قال: فهم، وغيرهم كثير يقولون بهذا.

فهذا محمود شلتوت يقـول: (ليس للجن مـع الإنسـان شـيء وراء الدعوة والوعد والوسوسة والإغـراء والـتزيين)[1].. وهـو ينفي أن تكون للجن مقدرة على أن يلبس جسم الإنسان، فينطــق على لسانه، ويتحـرك الإنسـان بحركتـه وقـال: (هـذا من أوهـام النـاس، ومصدره خارج عن المصادر الشرعية، ذات القطع واليقين)

وهـذا محمـد الغـزالي، فقـد ذهب إلى أن عـداوة الشـيطان للإنسان لا تعدو سوى الوسواس والخداع والاستغفال، وأنكر تلبس الجن بالإنسان، واعتبر هذا الاعتقـاد من الأوهـام والخرافـات الـتي شاعت بين الناس[2].

وغيرهم كثير..

قال أحد المرضى: ولكن أحمد بن حنبل ونعله.

قال: ما تقصد؟

قال المريض: لقد جاء في طبقات الحنابلة.. وآكام المرجـان في أحكام الجان.. ولقط المرجان في أحكام الجان.. و.... الجان

قال العالم: ووساوس الشيطان في أحكام الجان.. قل قولك ولا تبالغ في التوثيق.

قال المريض: هم يقولون لنا هذا.

قال: ليملأوا قلوبكم رعبا.

قال المريض: لقـد رووا أن أحمـد بن حنبـل كـان يجلس في مسجده، فأنفذ إليه الخليفة العباسي المتوكل صاحباً لـه يعلمـه أن جارية بها صرع، وسأله أن يدعو الله لها بالعافية، فأخرج لـه أحمـد نعلي خشب بشراك من خـوص للوضـوء فدفعـه إلى صـاحب لـه، وقال له: امض إلى دار أمير المؤمـنين وتجلس عنـد رأس الجاريـة وتقول له، يعني الجن: قال لـك أحمـد: أيمـا أحب إليـك تخـرج من هذه الجارية، أو تصفع بهذه النعل سبعين.

فمضى إليه، وقال له مثل ما قال أحمد، فقال له المـارد على لسان الجارية: السمع والطاعة، لو أمرنا أحمـد أن لا نقيم بـالعراق ما أقمنا به، إنه أطاع الله، ومن أطاع الله أطاعه كل شيء، وخـرج من الجارية وهدأت ورزقت أولاداً، فلما مات أحمد عاودهـا المـارد، فأنفذ المتوكل إلى صاحبه أبي بكر المروذي وعرفـه الحـال، فأخـذ

---

1) الفتاوى، دار الشروق، الطبعة العاشرة 1400هـ-1980م، ص 24.

2) انظـر كتابـه: السـنة النبويـة بين أهـل الفقـه والحـديث، دار الشـروق -القـاهرة، بيروت- الطبعة الرابعة 1989م ص93.

المروذي النعل ومضى إلى الجارية، فكلمه العفـريت على لسـانها: لا أخرج من هذه الجارية ولا أطيعك ولا أقبل منك، أحمـد بن حنبـل أطاع الله، فأمرنا بطاعته.

ضـحك العـالم وقـال: لا شـك أن هـذه الروايـة من اختلاق المتعصبين للإمام أحمد، فقد كان أورع من ذلك.

قال المريض: كيف هذا.. وقد رويت في تلك المصادر.

قـال العـالم: الإسـناد المظلم يبقى مظلمـا، ولـو طبعـوه في نسخة واحدة مع القرآن الكريم.

قال المريض: وكيف ترد هذا؟

قال: أما الأول، فمـا فائـدة النعـل؟.. ألم يكن في إمكانـه أن يدعو الله لها في مكانه؟

والثاني: هل كان أبو بكر المروذي من الغباء بحيث يحمل نعل ابن حنبل.. فهل كانت النعل هي الشافية!؟

ثم إن هؤلاء ينكرون التبرك بآثار الصـالحين، فكيـف يتـبركون بنعل ابن حنبل!؟

ثم ألم يكن في الدنيا جميعا من الصالحين إلا الحنابلة، بحيث لم يجد المتوكل إلا أبا بكر المروذي الذي هو تلميذ ابن حنبل؟

ومع ذلك.. فإني أرى أن للقصة أصلا صحيحا.

قال المريض: كيف هذا، وقد فندتها بهذه الوجوه؟

قال: لقد فطن ابن حنبل إلى أن الجاريـة ربمـا كـانت تتلاعب بذلك التصرف.. فلذلك اكتفى بإخافتها لترتدع..

ثم بعد هذا: من روى هذه القصة: هـل مالـك في الموطـأ، أم البخاري في الصحيح؟

قال المريض: لا هذا ولا ذاك، فهذه الرواية ليست حديثا.

قال: فهل ادعى أحمد في يوم من الأيام أنه رسول مشرع؟

قال المريض: لا ... كان أروع من ذلك.

قال: فهل تدعون له العصمة؟

قال المريض: نحن لا نقول بعصمة الأئمة.

قال: فهل كان أحمد أو من عاصره راقيـا يجلس النـاس إليـه كما يجلسون إلى رقاتكم؟

قال المريض: ما في مسـنده، ومـا رواه عنـه تلاميـذه لا يـدل على هذا.

قال: فلماذا تزجون بهذا الإمام في هذه المتاهات؟

تركنا الرجل يتحدث مع المرضى، وهم يـذكرون لـه مـا قيـل،

فـيرد أو يصـحح أو يـدافع.. قـال لي المعلم: دعنـا من الرجـال.. ولنذهب إلى سيد الرجال.

قلت: تقصد سيد الأولين والآخرين محمدا ﷺ.

قال: أجل.

قلت: أنخرج الآن من المستشفى لنزور المدينة المنورة.

قال: رسول الله ﷺ أعظم شـأنا من أن ينحصـر في المدينـة المنورة.

قلت: فأين نذهب إذن؟

قال: إلى سـنته.. ألم يـأمر اللـه بـالرد إلى رسـول اللـه عنـد التنازع؟

قلت: بلى.

قال: فلنترك آراء الرجال، ولنذهب إلى السنة.

السنة المطهرة:

قال المعلم: أقرأت الأصول الكبرى للسنة؟

قلت: وكيف لا أقرؤها، وفيها أحاديث رسول الله ﷺ.. ولكـني لا أكتمـك بـأني اكتفيت منهـا بالمصـادر الصـحيحة أو السـنن، أمـا المعاجم وغيرها، فقد اكتفيت منها بما كتب النقلة عنهم.

قال: ففي تلك المصادر توجد أبواب خاصة بالرقى.

قلت: أجل.. توجد أبواب خاصة بالطب والرقى.. وهي تختلف في تصنيفها باختلاف المصنفين.

قال: فهل تجد الرقية من العين؟

قلت: أجل.. العلماء ينقلون التفاصيل المرتبطة بذلك، فـالنبي ﷺ تحدث عن العين وبين خطرها، وعلمنا كيف نستعيذ منها.

قال: وقد أثبت المحدثون ذلك في تلك الأبواب؟

قلت: أجل.

قال: فهل فيها حديث واحد فيه الرقية من الجن، وكيفيتها؟

قلت: لا أذكر أني قرأت حديثا في هذا المعنى.

قال: بل لم تقرأ.. فلا يوجد نص فيما يمارسه قومك من أنواع الشعوذة.. ولم يرد نص صحيح واحـد يخـبر بمـا يدعيـه الرقـاة من استعمار الجني للإنسي.

قلت: ولكن العين تختلف عن المس؟

قـال: مـا الفـرق بين أذى العين، وأذى الجن؟ أليس كلاهمـا أذى؟..

قلت: أجـل.. هـذا صـحيح، بـل إن قـومي يزعمـون أن العين

بسبب الجن.. والمس على كل حال أخطر من العين.

قال: وأزيدك شيئا آخر.. ألم تسمع حديث المرأة التي تصرع؟

قلت: أجل.. لقد روي أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع وإني أتكشف فادع الله تعالى لي. قال: (إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك)، فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها(1).

قال: في هذا الحديث دليل على أن الصرع مرض من الأمراض التي يجازى الصابر عليها.. وليس مرضا شيطانيا كما يزعمون.

قلت: إنهم يستدلون به على عكس ذلك، فقد ذكر ابن حجر العسقلاني عدة طرق لهذا الحديث ثم قال: (وقد يؤخذ من الطرق التي أوردتها أن الذي كان بأم زفر كان من صرع الجن لا من صرع الخلط)(2)، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب وابن الأثير في أسد الغابة في ترجمة أم زفر أنها هي التي كان بها مس من الجن(3)، وقال ابن القيم: (ويجوز أن صرع هذه المرأة السوداء من جهة الأرواح الخبيثة)(4)

قال: لا.. هذا تحريف خطير للحديث.. فأين ذكر الشياطين هنا، لقد طلبت المرأة الدعاء، ولم تطلب الرقية، وقد كان التفريق بينهما مشهورا لا شك في ذلك بدليل ما سنعرفه من نصوص، فقد ذكرت فيها الرقية بكونها مرخص فيها بخلاف الدعاء الذي هو عبادة من العبادات.

ثم إن الرسول ﷺ أرشدها إلى الصبر، ولا نرى أن رسول الله ﷺ يتركها للشيطان يسيمها سوء العذاب.

***

بينما نحن كذلك إذ دخل رجل مهيب، فقلت للمعلم: من هذا الشيخ الممتلئ هيبة ووقارا؟

قال: هذا عالم من علماء الحديث..

قلت: فلم جاء هنا؟

قال: ليجيب عن الشبهات التي امتلأت بها نفوس هؤلاء المرضى.

سأل بعض الحاضرين هذا العالم، فقال: ولكنهم يروون في

---

1) البخاري.
2) فتح الباري: 10/115.
3) انظر ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب: 6/333.
4) زاد المعاد:3/181.

هذا أحاديث، وقد عرفناك معظما لها.

قال المحدث: وما يروون؟ إني أتحدى أي واحد منهم محدثا كان أو فقيها أن يأتيني بحديث واحد يبرهن على ما يأتونه من الدجل.

ارتعد القلم في يدي، وأنا أسمع تحديه، فتوقفت عن الكتابة، فقال لي: (ما بالك؟، ألم نتفق على كتابة كل ما يقال؟

قلت: ولكن التحدي صعب.

قال: ولكنا لا نتحدى لنظهر عجز غيرنا، وإنما نتحدى لطلب الحق ونصرة الحق، وقد قال تعالى متحديا بني إسرئيل: كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (آل عمران:93)

قال أحد الحاضرين: لا.. يا شيخ، فقد رووا في الباب أحاديث.

قال المحدث: فما رووا؟

الحديث الأول:

قال: ما رواه البخاري ومسلم وأبو داود عن صفية بنت حيي زوج النبي ﷺ قالت: كان النبي ﷺ معتكفاً، فأتيته أزوره ليلاً، فحدثته، ثم قمت لأنقلب، فقام ليقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: (على رسلكما، إنها صفية بنت حيي)، فقالا: (سبحان الله يا رسول الله!) فقال ﷺ: (إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً، أو شيئاً)

فقد استدل بهذا الحديث على قدرة الجن سلوك بدن الإنسان جماعة من العلماء منهم القرطبي في تفسيره(1)، وابن تيمية في فتاواه(2)،وابن حجر الهيثمي وردَّ به على المعتزلة منكري ذلك(3)، والبقاعي في تفسيره(4)، وابن حجر العسقلاني في بذل الماعون(5)، والعلامة موفق الدين بن عبد اللطيف البغدادي(6)، والقاسمي في تفسيره(7) و....

---

1) انظر تفسير القرطبي 2/50.
2) انظر مجموع الفتاوى 24/277
3) انظر الفتاوى الحديثية: 72.
4) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:1/531.
5) بذل الماعون في فضل الطاعون: 83.
6) الطب من الكتاب والسنة: 231.
7) محاسن التأويل 3/360.

قال المحدث: هذا حديث صحيح لا شك فيه.. ولا علاقة له بهذا.

قال: كيف؟.. وكل هؤلاء استدلوا به.

قال المحدث: أليس معك عقلك.. وهو لا يختلف عن عقول الذين استدلوا به؟

قال: بلى..

قال المحدث: لقد ذكر النبي ﷺ أن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم.. فهل الإنسان إنسان مخصوص، أم كل الناس؟

قال: بل كل الناس.

قال المحدث: وهل ذلك خاص بوقت من الأوقات؟

قال: نص الحديث يدل على عدم الخصوص.. أي أنه يجري دائما.

قال المحدث: وهل يجوز التخصيص بدون مخصص؟

قال: لا..

قال المحدث: فلم يخصصون المصروع بدخول الشيطان إليه وحده من دون سائر الناس.

قال: فما تقول في هذا الحديث؟

قال المحدث: هذا الحديث يذكر قرب الشيطان من الإنسان وسرعة تأثيره فيه بدليل قوله: (وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً، أو شيئاً)

قال: فأنت تؤول الحديث إذن، أو تنفيه، أو تقول بما قال من استدل بقول الشاعر:

وقد كنت أجري في حشاهن مرة كجري معين الماء في قصب الآس

قال المحدث: أنا لا أقول بكل هذا.. بل إن لي نزعة ظاهرية مع النصوص، ولكني أرفض أن يحمل القائل غير ما أراده، فكيف إذا كان القائل هو المعصوم ﷺ.. ثم لماذا لم يهرع ﷺ لهؤلاء الذي خشي عليهم من الشيطان يرقيهم.. بل اكتفى بما يبعد الوساوس عنهم!؟

الحديث الثاني:

قال آخر: فقد روى ابن ماجه وابن أبي عاصم وغيرهما عن عثمان بن أبي العاص قال: لما استعملني رسول الله ﷺ على الطائف جعل يعرض لي شيء في صلاتي حتى ما أدري ما أصلي،

فلمـا رأيت ذلـك رحلت إلى رسـول اللـه ﷺ، فقـال: ابن العـاص؟ قلت نعم يا رسول الله، قـال: مـا جـاء بـك؟ قلت: يـا رسـول اللـه عرض لي شيء في صـلاتي حـتى مـا أدري مـا أصـلي، قـال: ذاك الشيطان، أدنه، قال: فـدنوت منـه، فجلسـت على صـدور قـدمي، قال: فضرب صدري بيده وتفل في فمي، وقال: اخـرج عـدو اللـه، ففعـل ذلـك ثلاث مـرات، ثم قـال: الحـق بعملـك، فقـال عثمـان: فلعمري ما أحسبه خالطني.

فالحديث صحيح الإسناد، فرجاله ثقات وإسـناده صـحيح، كمـا قال البوصيري(1)، وصححه الحاكم في المسـتدرك، ومحمـد ناصـر الــدين الألبــاني(2)، ودلالــة الحــديث على تلبس الجن بالإنســان ظـاهرة، فقوله ﷺ: (اخـرج عـدو اللـه) تـدل على وجـود الشـيطان داخل بدن الإنسان، فلذا أَمَرَه ﷺ بالخروج منه.

قال المحدث: مع أن الحديث فيه مقال من جهة السند.

قال: لا.. ليس فيه أي مقال.

قال المحدث: انفراد ابن ماجة به يجعل فيـه ألـف مقـال.. ثم إن صحة السند وحدها لا تكفي.. فقد يكون الحـديث معلـولا.. ومـا فيه من العلل هو الذي صرف كبار المحدثين ممن الـتزموا الصـحة أو الحسن عن قبوله.

قال:.. !؟

قاطعه، وقال: لا.. لن أناقشك في هذا الباب، ولكني أسـألك: لقد مات رسول الله ﷺ كما قـال تعـالى: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (الزمر:30).. ولا يزال يعترينا ما اعترى هذا الرجل من الوسـاوس في الصلاة.. فلمن نلجأ؟ وهل ترضون أن يتفـل هـؤلاء الرقـاة في أفـواهكم ليبعـدوا عنكم وسـاوس الشـياطين؟.. ومن من الرقـاة يفعل هذا مع أنـه هـو الـوارد عن رسـول اللـه ﷺ على حسـب مـا تذكرون؟.. وهل انتفت الوساوس عن هذا الرجل بهـذا، وصـار من الخاشعين.. وبذلك يصير الخشوع شيئا سهلا، لن نحتاج فيه إلى أي مجاهدة، بل يكفي أن يبصق في أفواهنا الصالحون والرقاة لنصـير ربـانيين خاشـعين.. وبـذلك نضـمن الفـردوس الأعلى من غـير أ ي مجاهدة.

قال: فما تقول؟

قال المحـدث: لقـد أخـبر القـرآن الكـريم بـأن المحـل الـذي

---

1) مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجة:4/36.
2) انظر سلسة الأحاديث الصحيحة:2/273.

يوسوس فيه الشيطان هو صدور الناس، كما قال تعالى عنه: ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ (الناس:5)، وكما ورد في الحديث: (إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نسي التقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس)(1)

فلذلك ـ إن صح الحديث ـ فقد زجر رسول الله ﷺ الشيطان عن صدره ليكف عن وسوسته.. ولكن ذلك مرتبط بحالة معينة، وفي وقت معين.. لأن الشيطان لا ييأس من ابن آدم.. وإلا فأجبني: هل صار عثمان بن أبي العاص معصوما بما فعل معه رسول الله ﷺ؟

قال: لم يكن معصوما.. بل إنه وفد على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف.

قال المحدث: فقد أجبتني.. لقد كان ـ كما يقول المؤرخون ـ حدثا، وأسلم عام أسلمت ثقيف، أي في آخر حياة رسول الله ﷺ.. أي أنه ـ بموقفه هذا ولجوئه إلى رسول الله ﷺ لأجل هذا ـ لم يكن يعلم بما حض عليه الشرع في هذا الباب من الاكتفاء بالاستعاذة وذكر الله، كما قال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (لأعراف:201).. وإلا، فكيف لم يصدر هذا من الصحابة الكبار.. بل والصغار !؟

قال: فما تقول في ضرب رسول الله ﷺ يده على صدره.. أليس ذلك من السنة؟

قال المحدث: لا.. لقد نبع الماء من بين أصابعه ﷺ، فهل كان ذلك من السنة.

قال: تلك معجزة له ﷺ.

قال المحدث: فقد وضع رسول الله ﷺ يده على الجذع لما حن فسكن، وأمسك بلسان بعض المنافقين، ودعا له فأصبح مؤمنا، كما في حديث حرملة بن زيد الأنصاري حين جلس بين يديه، وقال: يا رسول الله، الإيمان هاهنا، وأشار بيده إلى لسانه، والنفاق هاهنا، ووضع يده على صدره، ولا نذكر الله إلا قليلاً، فسكت رسول الله ﷺ، وردد ذلك حرملة، فأخذ رسول الله ﷺ لسان حرملة، وقال: (اللهم اجعل له لساناً صادقاً وقلباً شاكراً وارزقه حبي وحب من أحبني، وصير أمره إلى خير)، فقال له حرملة: يا رسول الله، إن لي إخواناً منافقين، وكنت رأساً فيهم، أفلا أدلك عليهم، فقال رسول الله: (من جاءنا كما جئتنا استغفرنا

1) أخرجه الموصلي.

له كما استغفرنا لك، ومن أصر على ذلك فالله أولى به، ولا تخرف على أحد ستر)[1]

الحديث الثالث:

قال آخر: فقد روى أحمد وأبو داود والنسائي والطبراني والحاكم أن رسول الله ﷺ كان يقول: (اللهم إني أعوذ بك من التردي والهدم، والغرق والحريق، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبراً وأعوذ بك أن أموت لديغاً)

والحديث صحيح الإسناد، صححه الحاكم ووافقه الذهبي[2]، والألباني[3] وقال الشيخ عبد القادر الأرناؤوط: وإسناده حسن[4]

قال المحدث: فما موضع الاستدلال في هذا الحديث؟

قال: قوله ﷺ: (أن يتخبطني الشيطان عند الموت)، ففيه دلالة واضحة على المس الحقيقي.. وقد استدل بهذا الحديث على إثبات صرع الشيطان للإنسان غير واحد من أهل العلم[5].

قال المحدث: فهل كان ﷺ يخاف أن يصيبه الصرع عند الموت، فلهذا استعاذ بالله من ذلك؟

قال: معاذ الله.. فرسول الله ﷺ أعظم شأنا من أن يتسلط عليه الشيطان.

قال المحدث: فما وجه استدلالهم بالحديث؟

قال: هم يستدلون بقوله: (يتخبط)

قال المحدث: ولكن رسول الله ﷺ قال: (يتخبطني)، ولم يقل: (يتخبط)، فلم يحرفون الكلم عن مواضعه؟

قال: لقد ذكر رسول الله ﷺ ذلك لنذكره نحن.. ومنه استغفاره ﷺ مع عصمته، ومع أن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

قال المحدث: فلم خص رسول الله ﷺ الموت بالاستعاذة من تخبطه.. وهل يخاف الإنسان على صحته وهو مقبل على الموت؟

قال: فما تقول أنت؟

قال المحدث: التخبط الذي يريده ﷺ في هذا الحديث هو

---

1) ابن منده وأبو نعيم.
2) المستدرك 1/713.
3) صحيح الجامع الصغير وزياداته: 1/275.
4) هامش جامع الأصول 4/361.
5) انظر تفسير القرطبي 3/355، فتح القدير للشوكاني 1/295، برهان الشرع ص 129، وحيد الدين بالي: وقاية الإنسان من الجن والشيطان، دار البشير -القاهرة- ص 61.

الوساوس التي يلقيها في قلب الإنسان..
قاطعه، وقال: فلماذا لم يستعذ من الوسـاوس مطلقـا.. ولم خص ذلك بالموت؟
قال المحـدث: لأن الشـيطان يـدخر أعظم وساوسـه للحظـة الموت، ولهذا كان ﷺ يسأل الله حسن الخاتمة..
وقد ورد في الحديث أن رسول اللّه ﷺ كان يقول عند النـوم: (باسم اللّه، أعوذ بكلمات اللّه التامـة من غضـبه وعقابـه ومن شـر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون)(1)
قال:..!؟
قال المحدث: وأزيدك شيئا آخر: إن هذا الحديث الذي ذكـرت تصحيحه يفسر معنى التخبط في الآية من غير أن نضطر لتأويلها.
قال: كيف؟
قال المحدث: التخبط لا يعني فقط ما نراه من المصروع من حركات.. بل قد يكون الإنسان هادئا سليم الجسم.. ومع ذلك فإنـه يتخبط من داخله بالوساوس.. وهذا الحديث يشير إلى هذا المعنى.
قال: كيف؟
قال المحدث: لقد ذكر ﷺ التخبـط وربطـه بـالموت، ولا نـرى في العادة المحتضر ـ سواء كـان صـالحا أو غـير صـالح ــ إلا هادئـا سـاكنا لضـعفه الشـديد عن أي حركـة.. فالتخبـط في ذلـك الحين ليس تخبط الحركات، وإنما تخبط الوساوس.

الحديث الرابع:

قال آخر: فقد روى أحمـد والترمـذي وأبـو داود والنسـائي أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل كبَّر، ثم قال: (سـبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك، وتعالى جـدك، ولا إلـه غـيرك)، ثم يقـول: الله أكبر كبيراً ثم يقول: (أعوذ باللـه السـميع العليم من الشـيطان الرجيم، من همزه، ونفخه ونفثه)
قال المحدث: فما محل الشاهد من الحديث؟
قال: استعاذته ﷺ من همز الشيطان، فقد قـال أهـل اللغـة: نفثـه: الشـعر، ونفخـه: الكِبـر، وهمـزه: الموتـة، قـال ابن الأثـير: والموتة: الجنون، لأن المجنون ينخسه الشـيطان، والهمـز والنخس أخوان(2)، وقال ابن كثير: (فهمـزه الموتـة، وهـو الخنـق الـذي هـو الصرع)(3)

1) أبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي: حسن غريب.
2) النهاية في غريب الحديث والأثر 5/273، جامع الأصول 4/186.
3) البداية والنهاية: 1/61.

قال المحدث: إن أصل الهمز في اللغة هو الغَمْزُ، والضَّغْطُ، والنَّحْسُ، والدَّفْعُ، والضَّرْبُ، وهذه جميعا فسرت في النصوص بالوساوس، ولا حرج عليها بعد ذلك إذا فعلت ما فعلت في صاحبها المستعد لتقبلها.

ثم هل تتصورون أن رسول الله ﷺ ـ وهو يقوم الليل خاشعا منيبا ـ يلتفت إلى ما تلتفتون إليه من المخاوف؟

الحديث الخامس:

قال الخامس: لقد روى أحمد والطبراني وابن عبد البر وغيرهم عن يعلى بن مرة قال: (لقد رأيت من رسول الله ﷺ ثلاثاً ما رآها أحد قبلي ولا يراها أحد بعدي، لقد خرجت معه في سفر حتى إذا كنا ببعض الطريق مررنا بامرأة جالسة معها صبي لها، فقالت يا رسول الله هذا صبي أصابه بلاء وأصابنا منه بلاء، يؤخذ في اليوم ما أدري كم مرة، قال: ناولينه، فرفعته إليه، فجعلته بينه وبين واسطة الرَّحل ثم فغر فاه فنفث فيه ثلاثاً، وقال: بسم الله، أنا عبد الله، اخسأ عدو الله، ثم ناولها إياه، فقال: ألقينا في الرجعة في هذا المكان فأخبرينا ما فعل، قال: فذهبنا، ورجعنا، فوجدناها في ذلك المكان معها شياه ثلاث، فقال ﷺ: ما فعل صبيك؟ فقالت: والذي بعثك بالحق ما حسسنا منه شيئاً حتى الساعة، فاجترر هذه الغنم، قال: انزل فخذ منها واحدة ورُدَّ البقية)

والحديث صحيح الإسناد، وقد ذكر الحافظ ابن كثير عدة طرق لهذا الحديث، ثم قال: (فهذه طرق جيدة متعددة، تفيد غلبة الظن أو القطع عند المتبحرين أن يعلى بن مرة حدّث بهذه القصة في الجملة)(1)

قال المحدث: فما وجه الاستدلال بالحديث؟

قال: هذا الحديث هو الحجة الكبرى في هذا الباب، بل هو حديث هذا الباب، ووجه الدلالة في الحديث واضحة، فقول الراوي: (ثم فغر فاه، فنفث فيه ثلاثاً)، ثم قوله ﷺ: (بسم الله، أنا عبد الله، اخسأ عدو الله) دليل على أن الصبي كان يعاني المسّ الشيطاني الذي سبب له بلاء وغماً.

قال المحدث: سنبدأ مناقشة الحديث من مبدئه.. لقد ذكر يعلى بن مرة ثلاثة أمور اختص برؤيتها.. أتستطيع ذكرها لي؟

قال: لقد وردت في الحديث.. أما الأولى، فهي ما ذكره، وأما الثانية، فقال: وخرجت ذات يوم إلى الجنان، حتى إذا أبرز قال:

---

1) البداية والنهاية: 6/139-140.

(انظر ويحك هل ترى شيئا يواريني؟) قلت: (ما أرى إلا شجرة، ما أراها تواريك)، قال: (فما قربها؟) قلت: (شجرة مثلها أو قريب منها) قال: (اذهب إليهما، فقل أن رسول الله ﷺ يأمركما أن تجتمعا بإذن الله)، قال: فاجتمعتا، فبرز لحاجته، ثم رجع، قال: اذهب إليهما فقل: إن رسول الله ﷺ يأمركما أن ترجع كل واحدة منكما إلى مكانها، فرجعت.

قال المحدث: وما الثالثة؟

قال: ما ذكره بقوله: وكنت معه جالسا ذات يوم، إذ جاء جمل يخبب حتى ضرب بجرانه بين يديه، ثم ذرفت عيناه، فقال: (ويحك انظر لمن هذا الجمل، إن له لشأنا)، فخرجت ألتمس صاحبه، فوجدته لرجل من الأنصار، فدعوته إليه، فقال: (ما شأن جملك هذا؟) قال: (وما شأنه؟) قال: (لا أدري والله ما شأنه، عملنا عليه ونضحنا عليه حتى عجز عن السقاية فأتمرنا البارحة أن ننحره ونقسم لحمه) قال: (لا تفعل، هبه لي، أو بعنيه) قال: (بل هو لك يا رسول الله) قال: فوسمه بميسم الصدقة، ثم بعث به.

وفي رواية أنه قال لصاحب البعير: (البعير يشكوك زعم أنك سناته حتى كبر تريد أن تنحره) قال: (صدقت والذي بعثك بالحق قد أردت ذلك والذي بعثك بالحق لا أفعل)

وفي رواية: (ثم سرنا ونزلنا منزلا فنام النبي ﷺ فجاءت شجرة تشق الأرض حتى غشيته، ثم رجعت إلى مكانها، فلما استيقظ ذكرت له، فقال: (هي شجرة استأذنت ربها عز وجل أن تسلم على رسول الله ﷺ فأذن لها)

قال المحدث: أترى كل هذه المعجزات التي ذكرها تمر على أصحاب رسول الله ﷺ ولا أحد يهتم بها أو يرويها ما عدا يعلى بن مرة، ثم يرويها ولا يهتم لها التابعون، ولا من بعدهم.. ولا أئمة الحديث الذين التقطوا أقل شيء مما يتعلق بدلائل النبوة..

قال: ولكن السند صحيح؟

قال المحدث: ليس كل سند صحيح يقبل، فلولا أن في الحديث عللا لذكره الذين اهتموا بالصحيح.. ألا تعلم عدد الذين رووا نبع الماء بين أصابعه الشريفة؟

قال: بلغوا مبلغ التواتر.

قال المحدث: وأحاديث انشقاق القمر؟

قلت: كذلك.. هي أحاديث متواترة.

قال المحدث: حتى حنين الجذع ــ مع كونه أقل بكثير مما

ذكرت ـ إلا أنه روي بالتواتر.
قال: لا يشترط التواتر لصحة الأحاديث.
قال المحدث: أنا لا أشترط التـواتر لصـحة الأحـاديث، ولكـني أعجب أن يمر هذا الحديث على الصـيارفة، ثم لا يروونـه مـع كـون الحاجة إليه ماسة..
قال: ولكن مع ذلك..
قال المحدث: نحن في مدائن السلام نكـره الجـدل.. فلـذلك سأسلم لك جدلا بأن الحديث صحيح ومقبول، بل ومتـواتر.. في أي محل يـورد هـذا الحـديث: هـل في بـاب دلائـل النبـوة أم في بـاب الرقى؟
قال: هم يوردونه في باب الدلائل.
قال المحـدث: ولمـاذا يطبقونـه في بـاب الـرقى.. أيزعمـون لأنفسهم ما كان لرسول الله ﷺ من النبوة؟
قال: حاشا لله.
قال المحدث: فهل قال رسول الله ﷺ: (إذا رأيتم صبيا حصل له ما حصل لهذا، فافعلوا مثلما فعلت)؟
قال: لا يشترط أن يقول هذا.
قال المحدث: ولكنه قال مثله في الصلاة والحج.. طلب منهم أن يقلدوه في أفعاله.
قال:....!؟
قال المحدث: لا بأس.. سأسلم جدلا بأن هذا من السنة الـتي يمكن العمل بها.. ما فعل رسول الله ﷺ مع الصبي؟
قال: فغر فاه فنفث فيه ثلاثاً، وقال: بسم الله، أنـا عبـد اللـه، اخسأ عدو الله، ثم ناولها إياه.
قال المحدث: أهذا كل ما فعله؟
قال: هذا ما ورد به النص.
قـال المحـدث: فكيـف عـرف رسـول اللـه ﷺ أن مـا بـه من الشيطان؟
قال: هو رسول الله، فكيف لا يعرف؟
قال المحدث: فهل رقاتكم رسل لله يمـيزون بين الشـياطين وغيرهم؟
قال:....!؟
قال المحدث: فهل حـاور رسـول اللـه ﷺ هـذا الشـيطان!؟.. وهل دعاه إلى الإسلام!؟.. وهل أجرى مسامرة معه كالمسـامرات

التي تجرونها!؟
قال: هم يستدلون بهذا على جواز استعمار الشيطان للإنسان.
قال المحدث: لقد قال ﷺ في الحديث: اخسأ عدو الله.. فمن قال بأن هذا العدو هو الشيطان، ومن قال بأن (اخسأ) تدل على الدخول.
قال: يمكن أن يقال ذلك.
قال المحدث: لا بأس.. سأسلم جدلا بصحة ذلك.. لقد تفل رسول الله ﷺ في عيون بعض الصحابة فبرئت، فلماذا لا تفتحون عيادات للعيون يعالج بها رقاتكم العيون المريضة بالبصاق؟
قال: ولكن ذلك من دلائل النبوة.. لا من الرقية.
قال المحدث: ولكن كلا الحديثين يوضعان في دلائل النبوة.. فكيف جوزتم العمل بأحدهما وخصصتم الآخر؟
قال:....!؟
قال المحدث: الصحابة المنتجبون أحيوا سنة رسول الله ﷺ.. فمن من الصحابة فتح عيادة يخرج فيها الجان؟
قال: لا يشترط أن يذكر هذا.
قال المحدث: أنتم تشترطونه، فمع أنه ﷺ قال: (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده)(1)، وظاهر الحديث يدل على جواز القراءة جماعة إلا أنكم تنكرون العمل بذلك، بل وتعتبرونه بدعة بحجة أنه لم يؤثر عن السلف العمل به.
سكت قليلا، ثم قال: فماذا تقول أنت في هذا الحديث؟
قال المحدث: أنا يراودني شك كبير في مدى صحة الحديث.. بل إن فيه من الغرابة ما يحيل صحته، فرسول الله ﷺ الذي لم ترو عنه الخوارق إلا في مواضع محددة، وللمصلحة العامة تتحرك له الأشجار لأجل ستره في قضاء الحاجة.. ثم لا يكون هو الآمر، بل يكلف صاحبه بأن يأمر الأشجار بالتقدم والتأخر!؟
ورسول الله ﷺ الذي قال له ربه: ﴿ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام:90)، وقال له: ﴿ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ (الشورى:23) كيف يقبل من المرأة عرضها عليه ما عرضت.

---

1) أبو داود.

وما لم أستطع فهمه هو البعير الذي لا يشكو المجاعــة، ولكن يشكو هم أهلـه بذبحـه، ونهيـه لهم ﷺ عن ذبحـه.. أذبح البعـير بعـد انتهاء العمل به جريمة؟.. أو من السنة أن لا يذبح، ومـاذا يفعـل بـه في ذلك الحين؟

قال:....!؟

قال المحدث: أتدري ما الذي رغب رواتكم في هذا الحـديث.. فحفظوه عن ظهر قلب؟

قال: ما هو؟

قال: قول المـرأة، وهي تشـير إلى غنمهـا: (انـزل فخـذ منهـا واحدة، ورُدَّ البقية)(1).. فلولا هذا الكلمة ما عبئوا بالحـديث كمـا لم يعبأوا بغيره.

العلم:

تركنا المحدث مع المرضى يناقشهم ويناقشونه.. وسرت مـع المعلم إلى محـل آخـر لعلاج هـؤلاء المرضـى الـذين تلاعب بهم الرقاة، قلت للمعلم: إلى أين نذهب الآن؟

قـال: إلى الخـبراء.. ألم يـدعنا رسـول اللـه ﷺ إلى مراجعـة الأطباء في حال المرض؟

قلت: بلى..

قال: فهؤلاء الأطباء والخبراء الـذين شـرحوا الإنسـان عضـوا، وعرفوا وظائف أعضائه عضوا عضوا لا يصح أن نعزلهم.

قلت: ولكن هؤلاء الرقاة يعزلونهم.

قال: لولا جهلهم ما عزلوهم.. فلا يعرف أهل الفضـل إلا أهـل الفضل.

قلت: ولكني أرى أنهم في بعض الأحيان قد يتعاونون.

قال: كيف!؟

قلت: الأطباء يرسلون المرضى إلى الرقاة، والرقاة يرسـلون بعض من يأتيهم للأطباء.

قال: تلك تجارة محرمة.. فلا تحل التجارة في بني آدم.

دخلنا القاعة، رأينا فيها مرضـى وأطبـاء، والمرضـى يسـألون، والأطباء يجيبون، اقتربنا من بعض الأطباء(2)، فسمعنا هذا الحديث:

قال بعض المرضى: هل يسبب الشيطان المرض النفسي؟

---

1) وفي رواية:: فبرأ، فأهدت له كبشين وشيئا من إقط وسمن، فقال رسـول اللـه ﷺ:(يا يعلى خذ الإقط والسمن، وخذ أحد الكبشين ورد عليها الآخر)

2) انظر: أضـواء على بعض الجـوانب الخفيـة للأمـراض النفسـية: المـرض النفسـي وأعمال الشيطان، د0لطفي الشربيني، استشاري الطب النفسي.

قال الطبيب: بحكم عملي في الطب النفسي فإن نسبة لا تقل عن 70 بالمائة من المرضى يذهبون في البداية إلى المعالجين الشعبين أو المشعوذين قبل أن يفكروا في زيارة الطبيب النفسي.

ورغم أنه لا يوجد دليل واحد على علاقة الشيطان بالأمراض النفسية فإن بعضا من المتعلمين إلى جانب البسطاء لا يستطيع فهم الحقائق العلمية التي تؤكد أن غالبية الأمراض النفسية الرئيسية قد تم التوصل إلى معرفة أسبابها، وأنها نتيجة تغييرات كيميائية في الجهاز العصبي يمكن علاجها عن طريق تعديل الخلل الذي يعاني منه المريض باستخدام الأدوية النفسية الحديثة.

قال مريض آخر: إن سلوك الجن في بدن الإنسان وصرعه له ونطقه على لسان المصروع أمر مشاهد محسوس، تكاد حوادثه تقع في كل عصر ومصر، ويعد منكره معانداً مكابراً للمشاهدة والمحسوس، وأخبار ذلك كثيرة جداً، شاهدها ورواها العلماء الثقات المشهورون بعلمهم وتقواهم، مما يوجب معه القطع بهذا الاعتقاد.

قال الطبيب، وكأنه لم يلتفت لما قال، أو لم يفهم ما قال: من الحالات الغريبة التي يتناقل الناس الحديث حولها في المجتمعات العربية حالات لمرضى يغيبون عن الوعي ويبدأ الشيطان أو الجن في الحديث من داخلهم !!! فالكلام يصدر عنهم لكنه بنبرات وأسلوب يختلف عن طريقتهم المعتادة في الحديث، والكل هنا يؤكد أن المتحدث هو المخلوق الغريب بداخلهم، وربما يذكر هذا المتحدث اسمه وديانته والمكان الذي حضر منه، فهناك الجن الكافر، وهناك الشيطان الصغير، والفتاة المثقفة، والمرأة التي تبدي رغبتها في الزواج من المريض، أو الرجل الذي يؤكد أن يحب ضحيته ولن يتركها، وكل هذه نماذج من الشياطين الذين يتحاورون مع المحيطين بالمريض، وكثيرا ما يقدم الواحد منهم بعض المطالب حتى يتخلى عن المهمة التي يقوم بها مع هذا المريض ويتركه وشأنه.

قال آخر: هذا صحيح. وقد روى عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: قلت لأبي: إن قوماً يقولون: إن الجن لا يدخل في بدن المصروع من الإنس، فقال: يا بني يكذبون، وهو ذا يتكلم على لسانه)(1)

1) مجموع الفتاوى: 19/12، 24/277.

وقال ابن تيمية: (إن دخول الجني بدن الإنس، وتكلمه على لسانه بأنواع الكلام وغير ذلك أمر قد علمه كثير من الناس بالضرورة)(1)

قال آخر: بل قد عالج ابن تيمية الإنسان المصروع بسبب الجني مرات كثيرة، وحدَّث عن نفسه في ذلك فقال: (كما قد فعلنا نحن هذا، وجربناه مرات كثيرة يطول وصفها بحضرة خلق كثيرين)(2)

وقد ذكر مقالة أحمد في الرد على استفسار ابنه، ثم قال: (وهذا الذي قاله أمر مشهود، فإنه يصرع الرجل، فيتكلم بلسان لا يُعرف معناه، ويُضرب على بدنه ضرباً عظيماً لو ضُرب به جمل لأثر به أثراً عظيماً، والمصروع مع هذا لا يحس بالضرب ولا بالكلام الذي يقوله)(3)

قال آخر: ومن أدلة الحس والمشاهدة على دخول الجن بدن الإنسان وتسببه له بالصرع ونحوه من الأمراض أن كثيراً من العلماء والمشايخ المعاصرين المشهورين قاموا بمعالجة مرضى المس الشيطاني بالطرق الشرعية، ومنها قراءة القرآن على المصروع، ومن هؤلاء الشيخ أحمد القطان(4)، والشيخ عبد العزيز بن باز مفتي السعودية(5)، والشيخ محمد الصايم(6)، والشيخ وحيد الدين بالي(7).. وغيرهم كثير.

واصل الطبيب حديثه دون أن يلتفت لهم: هذا الكلام مؤكد وتسمعه من مصادر كثيرة لدرجة أن بعض الناس يقول لك: إن لديه تسجيلات لهذه الوقائع بصوت الشيطان نفسه حتى يصدق الجميع ذلك.

خشيت أن يتدخل المرضى ليغيروا مجرى الحديث، فصحت: فما تفسير هذا من وجهة نظر الطب النفسي؟

التفت إلي، وقال: الواقع أنني شخصيا قد استمعت إلى مثل هذه الأشياء في حياتي العملية عدة مرات، لكن هذه الحالة أيضا لا

---

1) الرد على المنطقيين ص 407.
2) مجموع الفتاوى: 19/60.
3) مجموع الفتاوى: 24/277.
4) انظر تجاربه حكاية عنه: مجدي محمد الشهاوي: العلاج الرباني للسحر والمس الشيطاني، مكتبة القرآن -مصر- ص 63-66.
5) انظر مجموع فتاوى ومقالات متنوعة 3/299.
6) انظر تجاربه في كتابيه: المنقذ القرآني لإبطال السحر وعلاج المس الشيطاني، حوار مع الشياطين وتجربتي العملية في إخراج الجان وإبطال السحر.
7) انظر تجاربه في كتابه: وقاية الإنسان من الجن والشيطان.

علاقة لها بالشيطان نهائيا، والمتحدث هنا هو المريض النفسي.

قلت: كيف هذا؟

قال: هي في حالة نطلق عليها التحول الهستيري يغيب فيها عن الوعي مؤقتا، وتظهر بعض محتويات عقله الباطن، فيقوم بالتنفيس عن بعض رغباته المكبوتة، ويهرب من الواقع والضغوط التي لا يحتملها، فيتصور الجميع أن بداخله شيطان يتكلم، وهذه الحالات لا تحتاج إلى الذهاب إلى الدجالين، أو ضرب المريض بقسوة لإخراج الجن، كل ما في الأمر هو تهدئة المريض وبحث حالته النفسية والتعامل مع الضغوط التي يتعرض لها، وهنا تتحسن الحالة دون تعامل مع الشيطان.

قال أحد المرضى، وكأنه يصف حالته: والأصوات، والخيالات والوساوس أأمراض هي أم مس شياطني!؟

قال: مرض الوسواس القهري هو أحد الأمراض النفسية الشائعة بصورة لم نكن نحيط بها من قبل، حيث اعتقد الأطباء النفسيون أنه من الحالات النادرة لكن الدراسات الحديثة تؤكد أنه يصيب 3 بالمائة من الناس.. وقد ارتبط هذا المرض في الأذهان بوساوس الشياطين بسبب التشابه بين مسمى (الوسواس القهري) ووصف الشيطان بالوسواس الخناس الذي ورد في القرآن الكريم، لكن إذا علمنا أن الوسواس القهري قد أصبح من الأمراض التي تم كشف النقاب عن الكثير من أسرارها، وأن هذه الحالات لها علاقة ببعض المواد الكيميائية في المخ مثل مادة (السروتونين) التي يتسبب اختلالها في أعراض الوسواس القهري، وهي تشمل أعراضا كثيرة.

قلت: مثل ماذا؟

قال: مثل أعمال وسواسية في صورة تكرار أفعال وطقوس لا معني لها، مثل غسل الأيدي أو الطهارة عند ملامسة أي شيء، أو التمتمة بكلمات، أو أعداد معينة قبل بدء أي عمل، أو إعادة الوضوء عدة مرات قبل الصلاة.

قال أحد المرضى: أنا مريض بهذه الحالة، وقد اكتشف الراقي أن سبب ما أصابني جن خطير لم يكشف عن اسمه.

قال الطبيب مازحا: قل لراقيك لقد عرفته إنه (السروتونين)، فغيابه هو الذي سبب لك ما سبب.

قلت: اذكر لنا أمثلة أخرى على هذا؟

قال: من أمثلتها الأفكار الوسواسية، كالانشغال والاستغراق

في التفكير في موضوعات تافهة وقضايا لا حل لها مثل مسألة البيضة والدجاجة ومن الذي أتى أولا؟ أو البحث في شكل الشيطان وماذا يأكل وكيف يعيش؟ أو أفكار دينية لا معني لها تشغل التفكير وتعوق الشخص عن مزاولة حياته..

ومن أمثلتها: مخاوف وسواسية لا أساس لها من أشياء ليست مصدر خوف على الإطلاق.

قلت: فكيف يتعامل الطب النفسي مع هذه الحالات؟

قال: الطب النفسي بتعامل حاليا مع هذه الحالات بالعلاج الدوائي الذي يعيد الاتزان النفسي ونسبة الشفاء عالية حاليا باستخدام أجيال الأدوية الحديثة، ولا علاقة للشيطان بكل هذه الوساوس المرضية.

قال بعض المرضى: ولكني أرى أشباحا، وأسمع أصواتا تتحاور معي، بل وتهددني أو تأمر بأن يفعل أشياء معينة.

قلت: فماذا قال لك الرقاة؟

قال: وهل هناك غير المردة من العفاريت؟

قلت: فما فعلوا؟

قال: ظلوا يرقونني إلى أن نفذ ما في جيبي، فطردوني، وقالوا: جنك طيار، لا نقدر على إمساكه.

قلت للطبيب: بم تفسر هذا؟

قال الطبيب: من جهة نظر الطب النفسي هذا يرجع إلى وجود خلل في جهاز الاستقبال لدى المريض، يجعله يستقبل صورا وأصواتا لا وجود لها، وهذه الحالات أيضا تتحسن بالعلاج بالأدوية الحديثة، ولا دخل للشيطان في هذه الأعراض النفسية المرضية التي تحدث في مرضى الفصام والأمراض العقلية الذهنية.

***

انتقلنا إلى محل آخر من القاعة، اجتمع فيه مجموعة مرضى مع طبيب، يتحدثون عن مرض الصرع وعلاقته بمس الشيطان.

قال الطبيب: يعتبر الصرع من أكثر الأمراض العصبية انتشارا حيث يصيب 1 بالمائة من الصغار والكبار، ومن أعراضه حدوث نوبات غياب عن الوعي قد تكون شديدة أو خفيفة، وفي حالة النوبة الكبرى يسقط المريض على الأرض في حالة تشنج يهتز لها كل جسده ويغيب عن الوعي نهائيا ولا يفيق الا بعد مرور وقت طويل، وتتكرر هذه النوبات في أي وقت وأي مكان.

قلت: نعرف هذا، فما تفسيره من وجهة نظركم؟

قال: لقد ظل مرض الصـرع موضـوعا للكثـير من الخرافـات والأوهام وتعرض المرضى لكثير من الممارسات غـير الطبيـة ظنـا من الناس أن الأرواح والشياطين وراء حدوثـه حـتى كشـف الطب الحديث حقيقة هذا المرض.. فقـد تـبين من خلال الأبحـاث الطبيـة أنه نتيجة لخلل في موجات المخ الكهربائيـة نتيجـة شـحنات زائـدة من بؤرة نشطة تسبب إثارة الخلايا العصبية وتحـدث النوبـة نتيجـة لذلك.

قلت: أهـذا افـتراض افترضـه الأطبـاء ليهربـوا من التفسـير الغيبي، أم هو حقيقة علمية دلت عليها التجارب؟

قال: إن العلم الحديث يؤكد هـذا المعـنى الـذي ذكرتـه، فقـد ذكر أن كلمة صرع لا تعـني شـيئا سـوى القابليـة للتعـرض لنوبـات تشنّج متكرّرة، وهو يتم على مستوى الدماغ الـذي يتحكم بحركاتنـا وأحاسيسنا وأفكارنا وعواطفنا، فهو مقر الذاكرة، وهو الـذي يقـوم بتنظيم الأعمـال الداخليـة اللاإراديـة في الجسـم كوظـائف القلب والرئتين.. وتعمل خلايا الدماغ معا وتتصل ببعض من خلال إشارات كهربائية.. وفي بعض الأحيان يكون هناك تفريغ كهربائي غير عـادي في مجموعة من الخلايا وتكون نتيجة ذلك حدوث النوبـة، ويتوقـف نوع النوبة على جزء الدماغ الـذي حصـل فيـه التفريـغ الكهربـائي، الجزئي غير العادي.

قلت: لا أقصد هذا.. أقصد هل يمكن كشف هذا بالأجهزة كمـا تكشفون الأمراض بالأشعة وغيرها؟

قال: أجل.. ويمكن كشف ذلك ببساطة حاليا عن طريق جهاز رسم المخ EEG الذي يلتقط هذه الإشارات، ويحدد شدتها ومكانها.

قلت: لقد عرفتم الحقيقة.. ولكن العلاج بقي غائبا.

قال: إن الأبحاث جاريـة في هـذا الموضـوع.. والعلم الحـديث يقترب يوما بعد يوم من علاج هذا النوع من الأمراض، وقد ورد في بعض الدراسات العلمية تحت عنوان: (دور الغـذاء الكيتـونى(1) فى علاج الصرع المستعصى) بأن دراسات عديدة سريريه أظهـرت أن من 41 بالمائة - 95 بالمائة من الأطفال الذين عولجوا بهذا الغذاء تحسنت نسبة الصرع لديهم بنسبة أكـثر من 50 بالمائـة هـذا فيمـا

1) هذا الغذاء محسوب بدقة ومصمم بطريقة معينة وموزونة وهو يتكون من: أربعة أجزاء من الدهون (زبدة ، قشطة، زيوت نباتية)، جزء واحد بروتين وكربوهـيرات (لحم أو فول +أرز أو بطاطس). سعرات حرارية محددة حسب حاجة المريض ووزنه ويقصد بها زيادة أو نقص الوزن حتى يصل المريض إلى الوزن النمـوذجى لعمـره. فيتامينـات وأملاح معدنيـة مضـافة حـتى يتجنب المـريض فقـدان هـذه العناصـر الهامـة والإصـابة بنقص الفيتامينات أو الملاح.

بين عامي 1920 و1930 م، ولكن بعد ظهور دواء الفينوتوين قـل وغيره استعمال الغذاء واعتمد الأطباء على أدوية الصرع.

ثم عاد الاهتمام بهذا النوع من العلاج - أى (الغذاء الكيتونى) - في السـنوات الأخـيرة ففي عـام 1998م أجـريت دراسـة على مراكز متعددة لمئة وخمسين طفلاً يعانون من الصرع المستعصـي وعولجوا بالغذاء الكيتونى وقلت لديهم التشنجات، وثبت أن الغـذاء الكيتونى عندما يستعمل بطريقة صحيحة فـإن لـه تـأثير جيـدا على نسبة تحسن التشنجات)

التفت إلي المعلم ضاحكا، وقال: لعـل هـذا النـوع من الغـذاء رشوة جيدة للجن تكف شره عن الصبيان.

قلت: هـو على كـل حـال أفضـل من الملح أو الضـرب الـذي يقدمه الرقاة لهم.

قال الطـبيب: يجتهـد العلم الحـديث الآن في السـيطرة على نوبات الصـرع، فمعظم النوبـات الصـرعية تخـف نتيجـة اسـتعمال الأدوية المقاومة للصرع، فحوالي (50) بالمائة من الذين يتنـاولون هذه الأدوية تنتهي النوبات لديهم وحـوالي (30) بالمائـة منهم تقـلّ درجة تكرارها لـديهم لدرجـة يمكنهم معهـا العيش والعمـل بشـكل اعتيادي، أما الـ (20) بالمائة المتبقيـة فهي إمـا حـالات مستعصـية للعلاج، أو أنها بحاجة إلى جرعات أكبر للسيطرة على النوبات.

بالإضافة إلى أن هناك الحل الجراحي، ويتم اللجوء إليه عندما يفشـل العلاج الـدوائي، وفي نسـبة قليلـة جـدا من الحـالات الـتي يتحدد فيهـا الجـزء الـدماغي المصـاب والمسـبب للنوبـات وتكـون إزالته مأمونة، وبدون أن تترك خللاً أو ضرراً بوظائف المخ.

العلاج البديل:

خرجنـا من تلـك القاعـة، وقـد تركنـا المرضـى مـع الأطبـاء يفسرون لهم، ويحاولون إقناعهم، وهم يجهدون أنفسـهم في ذلـك جهدا عظيما، فالمسألة قد تغلغلت في قلوب وعقول المرضى، بل ربطت في أذهـانهم بقضـايا الإيمـان والكفـر، والسـنة والبدعة(1)،

---

1) أول ما يفاجئك به من يتحدث عن هذه المسألة هو ربطها بالسـنة وربـط خلافهـا بالبدعة، فهذا أحدهم يقول في الموقع الذي خصصه لذلك:(فعلى من يُنكر دخـول الجـني بدن الإنسي أن يلجم فاه عن الإنكار والاستنكار ومخالفة أئمة أهل السنة والجماعـة، وأن لا يشوش أفكار المسلمين بأفكاره الملوثـة بأفكار أهل البدع والفلسفة، فإن قـال: هـذا رأي، فإن الرأي يحتمل الخطـــأ والصواب، فما تراه صوابا فإنه يحتمـل الخطـأ ومـا تـراه خطأ فإنه يحتمل الصواب، ولعله يأتي اليوم الذي يتحول فيه رأيك إلى رأي غـيرك... وإن العاقل إذا سمع أمرا عجبا جائزا لا دليل من الشـرع ينفيـه، استحسـنه ولم يكـذب قائلـه، والجاهل إذا سمع ما لم يشاهده قطع بتكذيب قائله، وتزييف ناقله.

فكان من الصعب اقتلاعها.

قلت: يا معلم.. قدرت هذا الجهد الذي يبذله هذا الحصــن في وقاية الناس من هذه الشعوذة.. ولكنهـا على أي حـال خففت على النـاس كثـيرا ممـا يعانونـه.. أليس من الأجـدى ألا نـترك المرضـى أسارى مرضهم؟

قال: بالصدق لا بالكذب.. وبالشـرع لا بالـدجل.. وبالحقـائق لا بالأباطيل.

قلت: فهل يضع هذا المستشفى هـذا الحـق الـذي يواجـه بـه الباطل.. وهل يضع البديل الذي يقي الناس شرور هؤلاء الرقاة؟

قال: أجل.. فلا ينبغي لمن نهاك عن شـيء أن يتركـك تعـاني الحـيرة.. بـل إنـه يعطيـك من الحلـول والبـدائل مـا يريحـك، ويملأ الفراغ الذي تركه نهيه.

قلت: فأين هذا البديل؟

قال: هيا إلى القاعة المخصصة لذلك، فهي آخـر قاعـات هـذا الحصن.

قلت: ولم لم يبدأ المرضى بها؟

قال: لا.. ألم يكن رسول الله ﷺ يفرغ أصـحابه من تصـورات الجاهلية، ثم يملؤهم بحقائق الإسلام؟

قلت: أجل.

قال: أتدري لماذا؟

قلت: حتى لا يختلط الإسلام بالجاهلية.

قال: فلهـذا لا يصـفون العلاج البـديل إلا بعـد أن يملأوا قلـوب المرضى وعقولهم بالقناعات الصحيحة.

اقتربنا من قاعـة مهيبـة كـانت تمتلئ بـأنوار الإيمـان، سـألت المعلم عنها، فقال: هذه القاعة هي التي يعطى فيه المصـل الـذي يحمي من وسـاوس الشـياطين، ومن آثـار الـدجل الـذي يزرعـه الرقاة.

رأيت شخصا مهيبـا.. يبـدو كأولئـك الأوليـاء الصـالحين الـذين غمروا الكون بعطرهم.

قلت: من هذا؟

جَهلتَ ولا تدري بأنك جاهلٌ ومن لي بأن تدري بأنك لا تدري

ثم يقول:(ولعل السبب في إنكار البعض لدخول الجان بدن الإنسان هو إتباع الهـوى، والجهل وقلة العلم في أحوال الجن والشياطين، وتحجر العقول وإتباع منهج مَـا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَـادِ [غـافر: 29] ، وكـذلك إبـراز الشخصـية وإتبـاع منهج خالف تعرف، وأيضا حسد طلبة العلم والأطباء الرقاة على ما آتاهم الله من فضله)

قال: هذا نموذج الراقي البـديل، وقـد دربـه هـذا المستشـفى ليميت هذه البدعة.

قلت: راق بديل.

قال: نعم.. من باب المشاكلة سميناه كذلك.

قلت: فما دوره؟

قال: يبدأ دوره بنفسه.. يربيها ويطهرهـا ويعمـق فيهـا حقـائق الإيمان.. ولا يكتفى بذلك، بل يضيف إليه من العلم ما يجعلـه فطنـا يعرف كيف يواجه الأمور وكيف يتحدى الصعاب.. فـإذا آنسـت منـه إدارة المستشـفى القـدرة على ممارسـة هـذه الوظيفـة أعطتـه الإجازة بذلك.

قلت: وما هو دوره؟

قـال: بسـيط جـدا، وعميـق جـدا.. أمـا الأمـراض الجسـدية، فيرشد أهلها إلى الأطباء، أما الوساوس الشيطانية، فيضـع لهـا من برامج التربية ما يقهر كل وسواس.

قلت: إذن هو لا يعالج في جلسة واحدة؟

قال: لا.. هو يقنع مرضـاه بالبرنـامج المعطى لهم.. ولا يكتفي بذلك، بل يتابعهم إلى أن يرى مدى جدوى استفادتهم.

قلت: إذن هو يحصل على أجور لا بأس بها.

قال: تشترط إدارة مستشفى السلام فيمن يتولى هذا الزهـد والعفاف.

قلت: لم؟.. هو ينفع الناس ويقدم لهم خدمات.

قال: لأن المال يجر المغرضين.. أما الزهد والعفاف، فلا يبقي غير المخلصين.

قلت: ولكن رسول اللـه ﷺ قـال: (إن أحـق مـا أخـذتم عليـه أجرا كتاب الله)(1)

قال: ذلك في موضع مخصوص، لا يصح القياس عليه.

قلت: فبم يبدأ البرنامج التربوي الذي يمارسه هذا الراقي؟

قال: بربطهم بالله.. واسـمع إلى هـذا الـراقي، وهـو يخـاطب مرضاه.

اجتمع المرضى حول ذلك الـراقي، فـراح يخـاطبهم بقولـه:.. أول ما يطهرنا به القرآن الكريم من الانحرافات العقدية المرتبطـة بالعوالم الغيبية حصر تدبير الكون في الله تعـالى إجمـالا وتفصـيلا، فالله تعالى هو المتصرف الواحد في الكون لا ينـازع في تصـريفه،

---

1) البخاري.

فهـو الـذي يرسـل الريـاح ويـنزل المطـر ويحـيي ويميت ويخفض ويرفع ويبسط ويقبض ويعطي ويمنع وكل مـا حـدث في الكـون أو يحدث فبإذنه وتقديره وتصريفه وفعلـه، فاللـه في القـرآن الكـريم ليس منعزلا كإله أرسطو المنشغل بكماله عن غيره، وليس كآلهــة اليونان المنعزلة في جبال الألب، بل هو متصرف حاضر ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المجادلة:7)

قلت: يشير إلى كل هذه المعاني اسـمه تعـالى[القيـوم]،فهـو القائم بنفسه المقيم لغيره، فلا قيام لشيء إلا بإقامته تعالى.

قال: ولأجل هذا كانت آية الكرسـي من الآيـات الـتي ورد في الأحـاديث اعتبارهـا من الاسـتعاذات النافعـة لمـا تحتـوي عليـه من التنبيه لقيومية الله تعالى لكل شيء فهـو ﴿ اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْـفَعُ عِنْـدَهُ إِلَّا بِإِذْنِـهِ يَعْلَمُ مَـا بَيْنَ أَيْـدِيهِمْ وَمَـا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُـونَ بِشَـيْءٍ مِنْ عِلْمِـهِ إِلَّا بِمَـا شَـاءَ وَسِـعَ كُرْسِـيُّهُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة:255)

قال الراقي، وكأنه كان يسمعنا: فالتالي لهذه الآية المستغرق في معانيها يرى كل شيء من العـرش إلى الفـرش لا يملـك شـيئا ولا يقد ر على شيء ويحتاج إلى الله في كل شيء، وهو ما يشــعر الضعيف بالقوة والذليل بالعزة والمريض بالشفاء، لأن الله تعالى لا يغفل عن حاله، فهو لا تأخذه سنة ولا نوم، وهو تعالى الـذي حفـظ السـماوات والأرض ولم يـؤده حفظهمـا لن يعجـزه من شـيء في الأرض ولا في السـماء، ثم تنفي عن الاتصـال باللـه كـل الوسـائط والشفعاء الذين كانوا في جميع الديانات الحجب بين اللــه وعبـاده، ولذلك لن يحتاج المستغرق في هذه الآيــة إلى السـعي للبحث عن أي وسيط لأن الله تعالى أقرب إليه من الوسيط.

قلت: ما شاء الله.. أظن هذا وحده يكفي علاجا لكل داء.

صاح أحد المرضى: والجن.. والعفاريت.. والشـياطين.. أليس لهم تأثير؟

قال الراقي: الجن والشياطين أضعف شـأنا من أن يتسـلطوا على حياة النـاس ويوجهوهـا حيث شـاءوا، فليس لهم أي سـلطان على الإنســان، وليس لهم إلا بعض الطاقــات المحــدودة بحــدود طبيعتهم وجبلتهم، فلكل شيء في الكون طبيعته وطاقاته الخاصـة

به.

ولهذا ورد في أكثر آيات القرآن الكريم الإخبار عن عجز الجن وعدم تسلطهم على بـني آدم إلا لمن تعـرض لهم،كمـا أن الطاقـة الكهربائية لا سلطان لها إلا على من مد يده إليها.

ويبرز ذلك واضحا فيما يسمى بخطبـة الشـيطان الـتي يلقيهـا على أهل النار يوم القيامـة لينفي عن نفسـه اللـوم ويـبين علاقتـه بالبشر والسلطات الوحيـدة الـتي مكن منهـا، قـال تعـالى: وَقَـالَ الشَّـيْطَانُ لَمَّا قُضِـيَ الْأَمْـرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَـدَكُمْ وَعْـدَ الْحَـقِّ وَوَعَـدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُـلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَـوْتُكُمْ فَاسْـتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْـرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَـا أَشْـرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْـلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ (ابراهيم:22)

فالشـيطان يتجلى في هـذه الآيـة بمظهـره الحقيقي مظهـر الضعيف العاجز الذي نفخ فيه البشـر وألبسـوه من ثيـاب العظمـة والكبرياء ووهبوه من أسباب التسلط ما يزاحم به الألوهية.

صحت: ما سبب هذه النظرة التي جعلت للشيطان كـل تلـك السلطات؟

قال: التصور الوثني..

قلت: التصور الوثني!؟

قال: أجل.. فهو الذي يجعـل من الشـيطان إلهـا قائمـا بذاتـه يتحدى الله سبحانه وتعالى مع أنه ليس إلا جنديا بسيطا ومتواضـعا من جنود الله خلقه الله ليقوم بعكس الدور الذي تقوم به الملائكة، فهـو لا يتحـدى الألوهيـة وإنمـا يطبـق إرادتهـا وينفـذ مشـيئتها ليتم الاختبار.

قلت: ما هذا القول الخطير؟

قال: كونه جنديا لله لا يحمـل أي صـفة مـدح، لأن كـل شـيء جندي لله يفعـل مـا يـراد منـه وقـد يـذم على فعلـه أو يحمـد وقـد يعاقب أو يجازى وَلِلَّهِ جُنُـودُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَـانَ اللَّهُ عَزِيـزاً حَكِيماً (الفتح: 7) وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ (المدثر:31)

قلت: فتعظيم الشيطان نوع من الشرك إذن؟

قال: أجل.. ولهذا اعتبر القـرآن الكـريم من أعطـوا الجن من السلطات ما ليس لهم أو وضعوهم كمدبرين ومؤثرين بذواتهم في الكون مشـركين بـذلك التعظيم، قـال تعـالى: وَجَعَلُـوا لِلَّهِ شُـرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَـاتٍ بِغَيْـرِ عِلْمٍ سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى عَمَّا

يَصِفُونَ (الأنعام:100)

وقد أخبرت الملائكة ـ عليهم السلام ــ أن أكثر البشر كانوا يعبدون الجن ويشركونهم بالله، ومن أساليب العبودية التعظيم والخوف والذي لا يقتصر على المشركين من عرب الجاهلية فقط، قال تعالى: قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (سبأ:41)

صاح مريض آخر: يا حكيم.. فهمنا ما قلت.. ولكن لم سلط الله علينا الشياطين يسوموننا الخسف.. ويضطرونا إلى هؤلاء المشعوذين؟

قال الراقي: إن تأثير الجن على الإنسان بحسب قابليته واستعداده، وتلك القابلية تتجلى في الشعور بالضعف والقصور أمامه، ولهذا كان الرهق وهو كل معاناة وأذى بسبب الخوف من الجن أو الإلتجاء إليه أو الشعور بقوة تأثيره، قال تعالى على لسان الجن: وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً (الجن: 6)

ولهذا جاءت الآيات الكثيرة تخبر عن عدم تسلط الجن أو الشياطين على المؤمنين الذين يتوكلون على ربهم ويلوذون بحفظه، قال تعالى: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (الحجر:42)، وقال تعالى: إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (النحل:99)، وقال تعالى: وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (سبأ:21)

وقد حكي عن بعض الصالحين أنه قال لتلميذه: ما تصنع بالشيطان إذا سول لك الخطايا؟ قال: أجاهده. قال: فإن عاد؟ قال:أجاهده. قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده. قال: هذا يطول، أرأيت لو مررت بغنم فنبحك كلبها ومنع من العبور ما تصنع؟ قال: أكابده وأرده جهدي. قال: هذا يطول عليك، ولكن استغث بصاحب الغنم يكفه عنك.

قلت: ألهذا ورد النهي عن تعظيم الشيطان والجن بنسبة المصائب والنكبات إليها؟

قال الراقي: أجل.. لأن ذلك مما يعظمها في نفس الإنسان، وكلما عظم الإنسان شيئا كلما أزال من نفسه من الشعور بعظمة الله بحسبه فنهى النبي ﷺ عن كل مظهر ينم عن هذا التعظيم ولو كان في صيغة سب، قال بعض الصحابة : (كنت رديف النبي ﷺ

فعثرت دابة فقلت: تعس الشيطان، فقال: لا تقل تعس الشيطان، فإنك إذا قلت ذلك تعاظم حتى يكون مثل البيت ويقول: بقوتي ولكن، قل: بسم الله، فإنك إذا قلت ذلك تصاغر حتى يكون مثل الذباب)(1)

فالنبي ﷺ نهاه أن يعظم الشيطان ولو بنسبة تعثر الدابة إليه، فكيف بمن يجعله متصرفا كليا وحيدا في حياة الناس؟

***

تركنا ذلك الحصن بعد طول مكثنا فيه، وقد رأيت على المرضى في قاعة العلاج البديل ارتياحا عظيما، وأنوارا تسري في وجوههم تحطم تلك الكآبة والسوداوية التي ملأهم بها الرقاة.

سألت أحد المرضى: ما حالك؟.. كيف تجد نفسك؟

قال: بحمد الله.. لقد كانت الوساوس تطاردني.. كانت العفاريت التي ملأ الرقاة عقلي بها تزاحمني وجودي.. تحطم حياتي.. أما اليوم فقد عرفت الله.

قلت: فماذا أفادتك معرفته؟

قال: نسخت كل تلك الظلمات.. وحطمت كل تلك الأساطير.. وأنا الآن أعيش في سعادة عميقة.

قلت: ما هو وردك؟

قال: ما حض عليه رسول الله ﷺ من أذكار، فأنا أسبح الله وأحمده وأكبره..

قلت: فما كان وردك؟

قال: الاستعاذة من الجن والعفاريت والمردة.. حتى أني كنت إذا قرأت القرآن الكريم لا أقرؤه لوجه الله، وإنما أقرؤه لأطرد العفاريت.

ثم تركني، وانصرف، وهو يسبح الله.. أما الشيطان.. فقد سلك فجا غير فجه، وقد عض أصابعه من الندم.. أما الرقاة.. فقد ضاع زبون من زبائنهم، ويوشك أن يضيع جميع زبائنهم.. وما ذلك على الله بعزيز.

الاستعاذة من السحر

قصدنا القاعة الثانية من قاعات حصن الاستعاذة، فرأيت لافتة مكتوبا عليها قوله تعالى: ﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ (يونس:81)

---

1) أبو داود وغيره.

قلت: لا شك أن هذه القاعة قاعة علاج السحر.
قال: السحر.. وأوهام السحر..
قلت: وما علاقة أوهام السحر بهذا؟
قال: أوهام السحر أخطر من السحر.. بل هي نوع من أنــواع السحر.
قلت: كيف؟
قال: لأن السحرة محدودون.. وأفعـالهم محـدودة.. وتأثيراتهـا أضيق من ذلك كله.. ولكن مع ذلك لا ترى أحدا إلا وهـو يشـكو أنـه سحر في يوم من الأيام.. أو سـحرت سـيارته أو محلـه أو شـواربه التي اشتعل فيها الشيب.
قلت: صدقت.. وأنا أعرف من لا يأكـل أي طعـام خـارج بيتـه خشية أن يكون قد ملئ سحرا.
قـال: وبسـببه فـرق الشـيطان بين المـرء وزوجـه، وبين الأخ وأخيه.
قلت: هذا واقع نشكو منه.
قال: فمن ساهم فيه؟
قلت: لا شك في ضلوع الرقـاة في هـذه الجريمـة.. فإنـه مـا يأتيهم أحد إلا ويصفون لـه أحـد أقـانيم هـذا الثـالوث: الجن والعين والسحر.
رأيت بابين داخـل القاعـة المخصصـة للتحصـين من السـحر، ورأيت المرضى يدخلون منهما، فسألت المعلم عنهمـا، فقـال: أمـا الباب الأول، فيؤدي إلى القاعة المخصصة لتشخيص السـحر، وأمـا الباب الثاني، فيؤدي إلى القاعة التي يتم فيها العلاج.
قلت: فلم لا يذهبون مباشرة للقاعة الثانية للمعالجة؟
قال: إن أكثر من تراهم يتهمـون السـحر والسـحرة مصـابون بأوهام السحر.. لا بالسحر.. أو بأعراض لأمراض جسدية أو نفسية، ولكن الدجالين أوهموهم بأنهم مسحورون، فلـذلك كـان تخليصـهم من الأوهام مقدما على علاجهم.
قلت: أمستشفى السلام يعالج المرضى في هـاتين القـاعتين فقط؟
قـال: لا.. جميـع الـوزارات الـتي لهـا علاقـة بالإنسـان تخـدم المرضى أو تقيهم من جهتها.
قلت: وما انشغال الوزارات بهذا؟
قال: إن لم تنشغل الوزارات بالإنسان، فبمن تنشغل؟

تشخيص السحر:

دخلنا القاعة الأولى، فوجدنا رجلا على منصة، والدموع تنهمر من عينيه، وهو يتكلم بصوت ضعيف تظهر عليه علامات الحزن، والمرضى مقبلون عليه يسألونه، سألت المعلم عنه، فقال: هذا عيسى بن شقفى(1).

قلت: ومن عيسى بن شقفى؟

قال: كان ساحرا.. ثم تاب الله عليه.. وقد دعته إدارة هذا المستشفى ليبين للمرضى قدرات الساحر.

قلت: ولم ذلك؟ ألأجل اتقائها؟

قال: لا.. ليس ذلك فقط.. بل الغرض الأصلي هو أن يفسر لهم قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (البقرة:102)

قلت: لم؟

قال: لأن الخوف من السحر، وتعظيم السحر، والاعتقاد بقدرات الساحر العجيبة جعلت الخلق يخافون من الساحر أكثر من خوفهم من الله.

قلت: وهذا غرض مقصود للساحر؟

قال: كما أنه غرض مقصود للشيطان.. فكما أن الشيطان يحب أن يراه الخلق مدبرا مصرفا للأمور.. فكذلك السحرة الذين اتبعوا الشيطان ومنهج الشيطان، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ (البقرة:102)؟

قلت: فالسحر من تعليم الشياطين؟

قال: هذا ما نص عليه القرآن الكريم.

قلت: فما هي الأشياء التي يطيقها الساحر.. فإني أسمع أن له قدرات هائلة.

قال: هي ـ بحسب ما ينص عليه القرآن الكريم ـ قدرتان.

قلت: ما هما؟

قال: التخييل، والتأثير.. وكلا القدرتين محدودتان، لا يستطيع الساحر مهما أوتي من علم أن يتجاوزحدودهما.

قلت: فما الحدود التي تحدهما.

قال: سنعرف ذلك من عيسى.

قلت: أي عيسى !؟

---

1) كان عيسى بن شقفى ساحرا يأتيه الناس ويأخذ على ذلك أجرا، فجاء إلى الامام جعفر الصادق ، وتاب على يديه.

قال: ذاك التائب الذي يجتمع عليه الناس.

السحر التخييلي:

اقتربنا منه، فسمعنا سائلا يسأله، قائلا: عرفنا أن الشياطين يعتمدون على استعداد الإنسان للوسوسة، فلذلك يأتونه من هذا الجانب، فعلام يعتمد السحرة؟

قال عيسى: على التخييل.. على مخيلة الإنسان(1).. فإن كان الشيطان يضع خرطومه على صدر الإنسان، فإن هؤلاء السحرة يضعون خراطيمهم على مخيلته.

قال السائل: لم؟

قال عيسى: ليرى الأشياء على غير ما هي عليه.. ألم ير الناس حبال السحرة وعصيهم حيات تسعى؟

قال السائل: بلى، فقد قال تعالى: ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ (طه:66)

قال عيسى: فهكذا الساحر يلجأ إلى المخيلة ليتلاعب بها..

قاطعه سائل، وهو يقول:.. نعم.. لقد سمعت بعض العلماء يروي عن بعض العامة أن ساحراً أتى إلى صاحب غنم ومعه شاة يقودها بأذنها، وطلب من صاحب الغنم أن يعطيه بدلها كبشاً ليذبحه لرفقته، ففعل ذلك صاحب الغنم، فبعد أن ذهب بالكبش تبين أن تلك الشاة التي جاء يقودها كانت حشرة من دواب الأرض قد لبس بها على عين الراعي الذي ذهب في أثره حتى أدركه مع رفقته وقد ذبحوا الكبش، فسألهم عن صاحب الكبش الذي لبس عليه، فدلوه على الساحر فجعل يوبخه، ثم مد يده إليه ليبطش به، وقبض على رأسه فانقلع رأسه في يده وتعلق بحنجرته، فذهل الراعي وهرب معتقداً أنهم من الشياطين(2).

قال عيسى: لا.. هذه حكاية ظاهرة التزوير.. وما كان للعلماء أن يقبلوا مثل هذا من العامة، ولو كان هذا في طاقة السحرة لاستولوا على أملاك الدنيا جميعا، ولكانوا أغنى الناس.

قال السائل: ولكن العامة يؤكدون مثل هذا.

قال عيسى: لا تؤخذ الحقائق من العامة، بل تؤخذ من أصحابها، وأنا أدرى بقدرات السحرة، إنهم أضعف بكثير.. أضعف

---

1) يقول ابن خلدون:(سحر التخيل هو أن يعمد الساحر إلى القوى المتخيلة فيتصرف فيها بنوع من التصرف، ويلقي فيها أنواعا من الخيالات والمحاكاة وصوراً مما يقصده من ذلك، ثم ينزلها إلى الحس من الرائين بقوة نفسه المؤثرة فيه، فينظر الراؤن كأنها في الخارج وليس هناك شيء من ذلك) مقدمة ابن خلدون: 498.

2) الحكاية حكاها الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين، انظر: الصواعق المرسلة في التصدي للمشعوذين والسحرة، ص 113، 114.

مما تتصورون.
قال سائل آخر: لقد علمونا أن لسحر التخييل أنواعا.. فنرجوا أن تبين لنا مدى وقعيتها؟
قال: سل.. فستجد عندي ـ إن شاء الله ـ ما يشفي غليلك.
قال السائل: من الأمثلة التي ذكروها لما يسمى (سحر التخييلات) قلب الحقائق المتعلقة بالأفراد في نظر المسحور، فيرى الشخص على غير شاكلته كأن يرى الصغير كبيرا والكبير صغيرا، والطويل قصيرا والقصير طويلا، وهكذا في كثير من الصفات البشرية الأخرى.
قال: يمكن للساحر أن يفعل هذا.. ولكنه لفترة محدودة، وببعض التلاعبات.. هو تماما مثلما يتلاعب السحرة في نواديكم.. فإن طاقاتهم محدودة بزمن محدد لا تتجاوزه.
قال السائل: ومن الأمثلة التي ذكروها لهذا النوع قلب الحقائق المتعلقة بالحيوانات في نظر المسحور فيرى الحيوان على غير شاكلته، كأن يرى القط فأرا، أو أن يرى القط الهزيل بشكل ضخم مرعب، وقس على ذلك الكثير من الصفات الحيوانية الأخرى.
قال: هذا ممكن بحدود ضيقة جدا.. ولكنها لا تصل أبدا لما حكى عنه ذلك العامي.. وإلا لأقلع تجار الماشية عن إرهاق أنفسهم بعلف الحيوانات، واكتفوا بسحر أعين المشترين.
قال السائل: إنهم يتورعون عن ذلك..
قال: لا.. لو تورعوا عن هذا لتورعوا عن غيره.
قال السائل: من الأمثلة التي ذكروها: سحر التخييل للانتقال من صفة بشرية أو حيوانية أو عينية لصفة مضادة أخرى، فيرى المسحور من خلال هذا النوع من أنواع السحر الإنسان حيوانا، كأن يرى الزوج بشكل حمار أو قرد أو أن يرى كأحد أعمدة المنزل، وقس على ذلك الكثير للانتقال من صفة إلى صفة مضادة أخرى.
قال: من أين عرفتم أن هذا من السحر؟
قال السائل: من يصابون بمثل هذا يذهبون إلى الرقاة فيقرؤون عليهم رقية التشخيص، فيعرفون أنه سحر.
قال: وما رقية التشخيص؟
قال السائل: هي أوراد معينة يتم من خلالها كشف نوع العلة التي يعاني منها المسترقي.
قال: في أي مصادر الحديث وردت هذه الأوراد؟

قال السائل: لا.. لم ترد هذه الأوراد في السنة.
قال: ما لم يرد في السنة فهو بدعة؟
قال السائل: أما الخلف المتقـدمون، فلم يبتـدعها أحـد منهم، بل ابتدعها الخلف المتأخرون؟
قال: أهي وحي أوحي إليهم، أم علم لدني نالوه؟
قـال السـائل: لا هـذا.. ولا ذاك.. ولكنهم مـع ذلـك مجمعـون عليه.
قال: أي إجماع هذا.. هذا إجماع لا يختلـف عن إجمـاع اليهـود والنصارى..
قال: فكيف يعرفون أن المسـترقي مسـحور بهـذا النـوع من السحر؟
قال السائل: يذكرون لذلك علامات.. منها قلب الحقائق دائما في نظر المسحور، مما يـؤدي في بعض الأحيـان لاعتقـاد الآخـرين بإصابة الشخص بالجنون.
ومنها الشرود والنظرات غير الطبيعية، ومنهـا مـا يلاحـظ في نظرات المسحور من الدهشة والاستغراب، وذلك نتيجـة لمـا يـراه المسحور من قلب للحقائق والأمور.
ومنها محاولة الصدود عن الآخرين والعزلـة عن النـاس خوفـا من قذفه بالجنون ونحو ذلك من أمور أخرى.
قال: فأكثر الناس قد يصاب بهذا لأي سـبب من الأسـباب!؟.. ومن لم يتعلم الشرود لم يتعلم التركيز..
ثم انصرف.. وهـو يقـول: حسـبتنا ــ معشـر السـحرة ــ شـر الناس، ولم أدر أن في الخلق من يجرؤ على كل هذه الدعاوى.
قلت للمعلم: ما بال عيسى ينصرف غاضبا؟
قال: هذا حال عيسى منذ تاب الله عليه، فهو لا يحب الكــذب ولا الدجل.
قلت: لم؟
قــال: لأن السـحر يعتمـد على الكــذب والــدجل.. ألا يصــور الساحر الحقائق على خلاف ما هي عليه؟
قلت: بلى..
قال: فكل من فعل هذا تشبه بالساحر.
قلت: فالسحرة كثيرون إذن؟
قال: بهـذا الاعتبـار أكـثر ممـا تتصـور.. فالنمـام الـذي يفسـد العلاقات شر من الساحر..

قلت: كيف هذا؟

قال: لأن الساحر ترد كيده بالمعوذتين، أما شر هذا فإنك لا ترده، ولو قرأت القرآن الكريم جميعا إلا أن تغلق أذنيك عن سماع نميمته.

قلت: يا معلم.. ما سر قدرة الساحر على التلاعب بالخيال(1)؟

قال: لن تعرف هذا حتى تعرف حقيقة بناء الإنسان.

قلت: والآن..

قال: لو أن أحدهم وضع نظاره محدبة أو مقعرة على عينيك.. كيف ترى الأشياء؟

قلت: أراها كما توحيها لي النظارة.. بل أستطيع أن أرى العالم كله يشع احمرارا أو يونع اخضرارا.

قال: فالسحر بما تعلمه من الشياطين يضع مثل هذه النظارة على العيون ليقلب بها الحقائق، وتظهر الأشياء على غير ما هي عليه.

قلت: ولكني لا أرى على عيون المسحورين نظارة.

قال: الساحر يتعامل مع البصيرة لا البصر(2).. والبصيرة هي التي توحي للبصر بما يراه.

قلت: صحيح هذا.. فإني قد أكون جائعا، فأرى كل ما حولي خبزا يدعوني لأكله.. وأكون عطشانا فأجري خلف السراب لأبل به ريقي.

قال: ولهذا اعتبر البيان سحرا، فالساحر لا يقدر على ما يقدر عليه من آتاه الله لسانا.

قلت: فكل دعاة جهنم بهذا سحرة.

قال: أجل.. وليت الرقاة من قومك ينتبهون لصد أباطيلهم، فهي أشد فتكا في الخلق من السحرة المشعوذين.

---

1) قال الدكتور محمد محمود عبدالله:(سحر التخييل: هو أن ترى الثابت متحركاً، والمتحرك ثابتاً، والكبير صغيراً، والعكس، والمريض صحيحاً، وعكسه، والقبيح حسناً... وخلاصته: أن الأشياء ترى على غير حقيقتها على سبيل المثال: ما رآه الناس من سحرة الزمان: الحجر طفلاً ؛ والعصا ثعباناً 0 فكل زمان له سحرة، لكنهم يختلفون في منهجية السحر التنفيذية: يقوم الساحر بإحضار شيء يعرفه الناس، ثم يتلو عزيمته وطلاسمه الشيطانية ؛ فيرى الناس الشيء على غير حقيقته) انظر: إعجاز القرآن في علاج السحر والحسد ومسّ الشيطان: 85.

2) وقد يتعامل مع البصر، فمن ألوان السحر ما كان يمارس عن طريق الاستفادة من خواص المواد الكيميائية والفيزيائية لخداع الناس، وقد ذكر أن سحرة فرعون وضعوا داخل حبالهم وعصيهم مادة كيميائية خاصة لعلها الزئبق ، كانت تتحرك بتأثير حرارة الشمس أو أية حرارة أخرى، توحي للمشاهد أنها حية.

قلت: ولكنهم لن يبطلوا سحرهم إلا بتعلم السحر.
قال: فليتعلموه.. فذلك خير لهم من السحر الذي يمارسونه.
قلت: أهم يمارسون سحرا؟
قال: هم بتخليطهم على من يـأتيهم وكـذبهم عليـه وتفـريقهم بين المرء وزوجه بسببه أعظم خطرا من السحرة.

السحر التأثيري:

قلت للمعلم: هذا هو سحر التخييل، فما سحر التأثير؟
قال: سحر التأثير هو أثر لسحر التخييل.
قلت: ما تقصد؟
قال: تأثير السحر لا يعدو التخييل.
قلت: أتقصد أن الساحر لا يستطيع أن يؤثر في الأشياء؟
قال: كما أن الشيطان لا يستطيع، فالساحر أكثر عجزا منه.
قلت: إن من قــومي.. ومن الرقــاة خصوصــا من يــذكرون للساحر قدرات عجيبة.
قال: فما يقولون؟
قلت: اصبر علي معلم.. فإنهم يقولون أشياء كثيرة.
قال: اذكرها.. فلا يمكن أن نسكت عن ذكر عيوب الباطل.
قلت: من السحر ما يسمونه: (سحر المرض)، وقد ذكروا بأن الغرض منه إصابة الشخص بالآلام والأسقام، فتراه طريح الفـراش عليل البـدن، وقـد تكـون العلـة في موضـع واحـد، وقـد تنتقـل من موضع إلى موضع، وكل ذلك بناء على ما يمليه ويفعله الساحر.
قال: أللساحر كل هذه القدرة؟
قلت: لقد قال بعض المشايخ في هذا: (وأمـا سـحر المـرض، فقد قيل إن أغلب الأمـراض المستعصـية هي بسـبب الجن الـذين يسخرهم الساحر فيلابسون الإنسـان، ويحـدث ذلـك تعطيـل بعض الأعضاء عن منافعهـا فينهـك البـدن، ويعظم الضـرر، ولا يوجـد في الطب لـه علاج سـوى الأدويـة المهدئـة، والأولى اسـتعمال الـرقى النافعــة المــؤثرة، فلهــا تــأثير كبــير في تخفيــف ذلــك المــرض كالسرطان والجلطة والشلل ونحوها)(1)
قال: وما ذكروا من أعراض هذا النوع من السحر؟
قلت: أعـراض كثـيرة جـدا، فمنهـا مثلا مـا يسـمى: (سـحر التشنجات العصبية)، ويقسمونه إلى قسمين:

---

1) الصواعق المرسلة في التصـدي للمشـعوذين والسـحرة – 158،ـ 159، والكلام للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين.

قسم التشنجات العصبية قصيرة الأمد: وفيه يتعرض المسحور لتشنجات عصبية من فترة لأخرى دون أن تحدد بزمان أو مكان، وتستمر تلك التشنجات لفترات قصيرة الأمد نسبيا، وقد ترتبط تلك التشنجات أحيانا مع المؤثرات الاجتماعية للمريض، وتعتمد تلك التشنجات في قوتها على قوة السحر والساحر.

وقسم التشنجات العصبية طويلة الأمد: وفيه يتعرض المسحور لتشنجات عصبية من فترة لأخرى دون أن تحدد بزمان أو مكان، وتستمر تلك التشنجات لفترات طويلة نسبيا، وقد ترتبط تلك التشنجات أحيانا مع المؤثرات الخارجية للمريض، وتعتمد تلك التشنجات في قوتها على قوة السحر والساحر.

قال: فأعصاب الخلق بيد الساحر إذن؟

قلت: ليس أعصابهم فقط، بل أعضاؤهم أيضا.. فقد ذكروا ما يسمى بسحر الأمراض العضوية، ويقسمونه أقساما كذلك.

منها سحر الأمراض العضوية بتأثير كلي: وفيه يتعرض المسحور لأمراض وآلام تصيب جميع أنحاء الجسد، ويشعر المسحور من خلال هذا النوع بالتعب والإرهاق والخمول وعدم القدرة على القيام بأية أعمال.

ومنها سحر الأمراض العضوية بتأثير جزئي: وفيه يتعرض المسحور لمرض يتركز في جهة محددة من الجسم، وله أعراض معينة، وعند قيام المريض بالفحص الطبي يتبين سلامة كافة الفحوصات الطبية، وسلامة الجسم من أية أمراض عضوية.

ومنها سحر الأمراض العضوية المتنقلة: وفيه يتعرض المسحور لأمراض وآلام متنقلة في جميع أنحاء الجسم، فتارة يشعر بألم في الرأس وتارة أخرى يشعر بألم في المفاصل وهكذا، وكل ذلك يحصل دون تحديد أية أمراض عضوية محددة.

قال: فالساحر هو الذي لديه خزائن الآلام إذن؟

قلت: لا.. بل لديه خزائن الحواس والمدارك أيضا، فقد ذكروا ما يسمى بسحر تعطل الحواس، ويقسمونه كذلك أقساما:

منها سحر تعطل حواس دائم: يتعرض المسحور من خلال هذا النوع لتعطل الحواس الخاصة بالسمع والإبصار والشم تعطلا دائما، فلا تعود تلك الحواس للمسحور إلا بعد إبطال السحر وشفاء المريض بإذن الله تعالى.

ومنها سحر تعطل حواس مؤقت: يتعرض المسحور من خلال هذا النوع لتعطل الحواس الخاصة بالسمع والإبصار والشم تعطلا

مؤقتا، ويتقلب الحال من وقت إلى وقت ومن زمن إلى زمن.

ومنها سحر الشلل: ويقسمونه أقساما:

منها سحر شلل كلي: يتعرض المسحور من خلال هـذا النـوع لشلل كلي في جميع أنحاء الجسم، فلا يستطيع الحراك مطلقا، ولا تعود له عافيته إلا بعد إبطال السحر بإذن الله تعالى.

ومنها سحر شـلل جـزئي: ويتعـرض المسـحور من خلال هـذا النوع لشلل جزئي يختص بمنطقة معينة كاليد أو القـدم أو الـرأس ونحوه، ويبقى العضو معطلا فـترة من الـزمن ثم يعـود إلى سـابق عهده، وتنتهي المعاناة بإذن الله تعالى عند انتهاء وإبطال السحر.

ومنها سـحر شـلل متنقـل: يتعـرض المسـحور من خلال هـذا النوع لشلل جزئي متنقل، فتارة يصيب الشلل منطقة اليـد، وتـارة أخرى منطقة القدم وهكـذا، وكـل ذلـك دون تحديـد أسـباب طبيـة معينة، ولا ينقطع هذا الأمر إلا بعد إبطال السحر بإذن الله تعالى.

قال: فأراهم لم يتركوا علة إلا نسبوها للسحر؟

قلت: ليس ذلك فقط.. بل حـتى الذريـة، فإنهـا تحت تصـرف السحرة.

قال: ولكن الله تعالى اعتبر ذلك من الهبـة الـتي لا يجـوز التـأثير فيها لغير الله.

قلت: وهم يشركون السحرة في ذلك، فلا يولـد الولـد إلا إذا كـف الساحر شره عن والديه، فقد ذكروا ما يسـمى بسـحر: (العقم وعـدم الإنجـاب) وذكـروا أن هـذا النـوع من السـحر يـؤدي لإحـداث عقم وعدم إنجاب لدى كل من الزوج والزوجة دون اتضـاح أيـة أسـباب طبيـة لمثـل ذلـك، وقـد ذكـروا في هـذا البـاب قـدرات عظيمـة للسحرة.

ومنها قتـل البويضـة: وهـذا النـوع يـؤدي لقتـل البويضـة عنـد المرأة وبالتالي لا تتم عملية التلقيح، أو حصول أي حمل يذكر.

ومنها عدم قابليـة تلقيح البويضـة من قبـل الحيـوان المنـوي: وهـذا النـوع يـؤدي لمنـع وصـول الحيـوان المنـوي إلى البويضـة لتلقيحهـا، وفي بعض الأحيـان قـد تصـل بعض الحيوانـات المنويـة، ولكنها لا تستطيع اخـتراق الغلاف الخـارجي الخـاص بالبويضـة مـع قوتها ونشاطها.

ومنها إجهاض الحامل بعد شهرها الثـالث: وهـذا النـوع يـؤدي لقتل الجنين بعد عدة شـهور من تكونـه بعـد نفخ الـروح فيـه، ممـا يتسبب في إجهاض المرأة، ويتبع السحرة أساليب شـيطانية خبيثـة

للوصول إلى هـذا الهـدف ومنهـا تسـليط الشـياطين على الحامـل وضـربها في نومهـا وإسـقاط الحمـل أو إرعابهـا ومن ثم إسـقاط الحمل ونحو ذلك من طرق خبيثة.

قال: فقد جعلوا السـحرة آلهـة مـع اللـه يتصـرفون في خلـق الله.

قلت: هم يستدلون لهذا بحديث صحيح.

قـال: لا أعلم أن هنـاك حـديثا صـحيحا ينص على مثـل هـذه الخرافات.

قلت: هم يستدلون بما روي عن أسماء أنهـا حملت بعبد اللـه بن الزبير بمكة. قـالت: فخـرجت، وأنا متم - أي مقاربـة للـولادة -، فأتيت المدينة، فنزلت بقباء، فولدته بقباء، ثم أتيت رسول الله ﷺ، فوضعه في حجره، فدعا بتمرة، فمضغها، ثم تفـل في فيـه، فكـان أول شـيء دخـل جوفـه ريـق رسـول اللـه ﷺ، قـالت: ثم حنكـه بالتمرة، ثم دعا له وبرك عليه، وكان أول مولود ولد في الإسـلام – للمهاجرين بالمدينة -، قالت: ففرحوا به فرحـا شـديدا، وذلـك أنهم قيل لهم: (إن اليهود قد سحرتكم، فلا يولد لكم)(1)

قال: فما وجه الاستدلال بالحديث؟

قلت: ما ورد فيه من إخبار اليهود بأنهم قد سحروهم.

قال: فقد أصـبحت أخبـار اليهـود إذن من مصـادر الشـريعة.. لماذا لم يستدلوا عن عجز السحر عن هـذا بـولادة عبـد اللـه.. ألم يقرؤوا ما ورد في وفاة سليمان عليه السلام، فقد قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَـيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَـأَتَهُ فَلَمَّا خَـرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَـا لَبِثُـوا فِي الْعَـذَابِ الْمُهِينِ﴾ (سبأ:14)

قلت: بلى.. فقد بين الله تعالى للجن بما حدث لسـليمان عليه السلام عجزهم عن إدراك علم الغيب.

قال: وكذلك بين لليهود بولادة عبـد اللـه عجـزهم عن التحكم في مخلوقات الله.

قلت: وهم لا يكتفون بهذا.. بل يجعلون للسحرة القـدرة على بث الخمول والكسل في المجتمع بالسحر الخاص بهذه الناحية.

قال: وإلى ما يقسمونه؟

قلت: إلى قسمين:

قسم يسمونه سحر خمول دائم: يتعرض المسـحور من خلال

---

1) البخاري ومسلم.

هذا النوع لخمول دائم ينتاب جميع أنحاء الجسم، فيشعر المريض دائما بالفتور والخمول وعدم القدرة على العمل أو ممارسة أي نشاط يذكر.

ومنها سحر خمول مؤقت: ويتعرض المسحور من خلال هذا النوع لخمول مؤقت ينتابه بعض الفترات ويتراوح ذلك بحسب قوة السحر وتأثيره، فيشعر المريض أحيانا بالفتور والخمول وعدم القدرة على العمل أو ممارسة أي نشاط يذكر، وتارة أخرى يكون نشيطا قويا يعيش كأي إنسان طبيعي آخر.

قال: فقد عرف الرقاة إذن علل تخلف الأمة.. فلماذا يجهد مفكروكم عقولهم في البحث عنها.

قلت: لا.. هم لم يتكلموا عن هذه المسألة، ولم يبحثوا فيها..

قال: لا.. بل بحثوا فيها.. فسحرة قومك استأجرهم بعض اليهود.. أو بعض جن اليهود ليسحروا الأمة جميعا بالخمول.. فلذلك كل ما تراه من خمول هو بسبب هذا السحر.. ولن تستطيعو النهوض إلا بعد البحث عن المكان الذي وضعوا فيه سحرهم لتعود الأمة إلى رشدها.

قلت: فالحل بسيط إذن..

قال: بل الحل معقد جدا.. فمكان العمل الذي عملوه لن تصلوا إليه أبدا إلا إذا وصلتم إلى ما وصل إليه اليهود من تكنولوجيا متطورة.. فقد استعمل اليهود ما وصلوا إليه من تطور لإخفاء العمل الذي عملوه.

قلت: يا معلم.. أراك تنكر كل ما ذكرته.. فإلى ما تستند في إنكارك؟

قال: إلى قوله تعالى: وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (الإسراء: 36)

قلت: فما في هذه الآية من الاستدلال؟

قال: لقد نهانا الله تعالى أن نتكلم فيما ليس لنا به علم.. وهذا مما ليس لنا به علم.

قلت: كيف ذلك؟

قال: متى تكلم العلماء عن أنواع الجراثيم؟

قلت: بعد أن اكتشفوها.

قال: بم اكتشفوها؟

قلت: بالأجهزة المكبرة.

قال: فإذا وصلتم إلى أجهزة تكشف السحر.. ففصلوا

وقسموا كما تشاءون.
قلت: وقبل ذلك.. هل نترك السحرة يعيثون في الأرض فسادا؟
قال: لن يطيقوا أن يفعلوا شيئا إلا إذا أعطيتموهم أنتم جواز السفر إلى ذواتكم.
قلت: فما ترى من الأضرار التي يمكن للسحرة فعلها؟
قال: شيء واحد.. لا علاقة له بأجسادكم(1)، فلا تخافوا عليها.
قلت: وما هو؟
قال: لقد ذكر الله تعالى ضرر السحرة حاصرا له في ضرر واحد.
قلت: وما هو؟
قال: التفريق بين المرء وزوجه، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ (البقرة:102)
قلت: وما وجه الاستدلال في الآية.. ألا يمكن أن يكون ما ذكر هو بعض آثار السحر وتأثيراته؟
قال: لا.. النص لا يحتمل ذلك.. فالله تعالى جعل قوله:﴿ مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ تعريفا للسحر بذكر آثاره.. ولا يمكن للتعريف إلا أن يكون جامعا للمعرف.
قلت: أريد مثالا على ذلك؟
قال: أرأيت لو أن شخصا عرف الطب بأنه العلم الذي يداوي الزكام، أيكون هذا التعرف صحيحا؟
قلت: لا شك في كونه غير صحيح.
قال: لم؟
قلت: لأنه قصر الطب على وظيفة بسيطة من وظائفه.
قال: ولو عرفه بأنه: (ما يداوي العلل المختلفة)
قلت: حينها سيكون تعريفا صحيحا مقبولا؟
قال: فكيف يتهم القرآن الكريم إذن بالقصور في تعريف السحر؟
قلت: فالسحر إذن يقتصر على قدرة واحدة هي التفريق بين الأزواج.
قال: نعم.. وهو ما نص عليه القرآن الكريم.. وهو تفريق يعتمد على التخييل الذي هو وسيلة الساحر الوحيدة.
قلت: كيف يكون التخييل؟

---

1) إلا إذا احتوى السحر على مواد ضارة.

قال: الساحر المتقن لسحره قد ينجح في التأثير في مخيلة الزوج مثلا، فيرى زوجته في صورة بشعة تتقزز منها نفسه، فيبغضها أو يطلقها.

قلت: إذن علاقته مع الأزواج فقط.

قال: لا.. بل مع كل المتحابين.

قلت: هذا معروف ومشتهر، ويسمونه: (العطف والصرف)، فيجعلون الإنسان ينعطف على زوجته أو امرأة أخرى حتى يكون كالبهيمة تقوده كما تشاء، والصرف بالعكس من ذلك(1).

وفي النصوص ما يشير إليه، فقد قال ﷺ: (إن الرقى والتمائم والتولة شرك)، والتولة(2): ما يحبب المرأة إلى زوجها من السحر وغيره، وجعله من الشرك لاعتقادهم أن ذلك يؤثر ويفعل خلاف ما قدره الله تعالى.

وقد يسمون العطف: (سحر المحبة)، وهو عمل وتأثير يسعى الساحر من خلاله للجمع بين المتباغضين والمتنافرين، أو الجمع بين الأشخاص عامة لأسباب معينة بناء على توصية من قام بعمل السحر.

وقد ذكر بعض العلماء من آثار هذا النوع من السحر قصة عجيبة يتداولها العامة لست أدري مدى صدقها.

قال: وما قال؟

قلت: ذكر أن امرأة رأت من زوجها شيئاً من الإعراض وعدم المودة التي تريدها منه، فهو يعطيها حقها ويعاملها كسائر النساء، لكنها تريد منه أكثر من ذلك من المحبة والبقاء عندها والملازمة لها، فدخلت عليها عجوز تعمل السحر، فأخبرتها بخبر زوجها، فأعطتها العجوز دواء في صرة، وأمرتها أن تجعله في طعامه، ولكن المرأة تورعت فجعلت الدواء في رغيف وأطعمته داجناً عندهم، فبعد أن أكله ذلك الداجن علق بها، فصار يتبعها ولا يفارقها ولا يستقر حتى يلصق رأسه ببطنها أو يجعله في حجرها وصار يلاحقها أينما ذهبت، فعجب زوجها من أمرها وأمره، ثم إنها أخبرت زوجها بأنها صرفت هذا الدواء عنه، ولو أعطته الدواء لفعل كما فعل الداجن، فلما أخبرته بادر بطلاقها، وقال: أخشى في المرة الثانية أن تجعليه في طعامي(3).

قال: ما لعلمائكم وهذه الأمور!؟.. وأي فرق بين العامة

---

1) مرجع المعالجين من القرآن الكريم والحديث الشريف - ص 327 – 328.

2) بكسر التاء وفتح الواو، انظر: النهاية في غريب الحديث - 1 / 200.

3) الصواعق المرسلة في التصدي للمشعوذين والسحرة- ص 141،142.

والعلماء إذا خاض العلماء في هذا!؟

قلت: أتنكر هذا؟

قال: يجب أن أنكره.. لقد ذكر الله تعالى أن هؤلاء السحرة يفرقون بين المرء وزوجه، ولم يقل يحببون بين المرء وزوجه.. وما كان لي أن أغادر ما نص عليه القرآن الكريم لأي لغو يرويه عامي أو ينقله عالم.

قلت: والتولة؟

قال: لقد ذكر ﷺ أنها من الشرك، ولم يذكر أنها من السحر.. ولم يذكر لها ﷺ أي أثر.

قلت: لقد ذكروا لهذا النوع من السحر آثارا وأعراضا من خلالها يقوم الرقاة برقاهم؟

قال: ما هي؟

قلت: من الأعراض التي ذكروها 1. تغير الأحوال بشكل فجائي من كراهية وبغض إلى ود وحب.. ومنها عدم حصول أية مشكلات اجتماعية مع توفر كافة الأسباب الصغيرة والكبيرة لمثل تلك المشكلات .. ومنها القدرة الكبيرة على التكيف الاجتماعي والعاطفي مع الآخرين ممن عطفوا على المريض بواسطة السحر.. ومنها 4. المحبة المطلقة للأقوال والأفعال الصادرة عن هؤلاء الأشخاص.. ومنها حسن الظن والثقة المطلقة بهؤلاء الأشخاص.. ومنها رؤية هؤلاء الأشخاص بأشكال حسنة جميلة محببة للنفس.. ومنها المحبة المطلقة لأماكن تواجد هؤلاء الأشخاص.

قال: أرى رقاتكم هؤلاء يحرمون المحبة بين الناس بنشر مثل هذه الخرافات.

علاج السحر:

ذهبنا للقاعة الثانية، وهي القاعة المتخصصة في علاج من أصيب بالسحر، وقد فوجئت بأني لم أجد فيها إلا أفرادا محدودين بخلاف القاعة السابقة، فسألت المعلم عن سر ذلك، فقال: إن أكثر من جاءوا هذا المستشفى لعلاج السحر تبين لهم في قاعة التشخيص أنهم كانوا متوهمين، فلذلك رجعوا من حيث أتوا، مكتفين بذلك.

قلت: ولكني رأيت الخارجين مستبشرين.

قال: وما لهم لا يستبشرون.. لقد كان ما أوهموا به من سحر يقيد أرجلهم عن كل حركة، فلما علموا عجز السحر انطلقوا

ونشطوا.. وكأنما نشطوا من عقال.

قلت: وهؤلاء الحاضرون في هذه القاعة؟

قال: هؤلاء شكوا في إمكانيـة أن يكـون مـا أصـابهم نـوع من السحر.

قلت: شكوا فقط.. ولم يتيقنوا.

قال: ليس في هذا الباب شيء يسمى اليقين.. إلا إذا أخــبرك معصوم بهذا..

قلت: فما العلاج الذي يعطى لهؤلاء هنا؟

قال: لقد أنزل الله برحمته المعوذتين.. وهما رحمـة من اللـه تكفيان الأمة عن كل تعويذة، وعن اللجوء لأي راق.

قلت: كيــف هــذا؟.. أيمكن أن نكتفي بــالمعوذتين من دون الرجوع لأي راق لفك السحر؟

قال: أجل.. ألم يرو في الحديث أن رسول اللّه ﷺ كان يتعـوذ من أعين الجان وأعين الإنسـان فلمـا نـزلت المعوذتـان أخـذ بهمـا وترك ما سواهما (1).

قلت: ولكن العلمــاء يبــالغون كثــيرا في وجــوب البحث عن السحر لفكه، وقد قال ابن باز: (ومن علاج السحر أيضا - وهــو من أنفع علاجـه - بـذل الجهـد في معرفـة موضـع السـحر من أرض أو جبل أو غير ذلك فإذا عرف واستخرج وأتلف بطل السحر)(2)

قال: لا.. هذا ليس صحيحا.. فبدل أن نكلـف العامـة بـالبحث عن موضع السحر، وببذل الجهد في ذلك نكلفهم بالالتجاء إلى الله، وهو يكفيهم كل سوء رأوه أو لم يروه.. ثم من قـال للعامـة بـأنهم مسحورون حتى يبذلوا جهودهم في البحث عن موضع السحر.

قلت: الأعراض التي يراها الرقاة.

قـال: لـو طبقنـا الأعـراض الـتي ذكروهـا على جميـع النـاس لوجدنا الخلق جميعا مسحورون.. ولو راعينا ما ذكروا لأغلقنا جميـع المستشفيات أو لحولناها إلى مراكز رقية، وحولنـا مراكـز البحـوث إلى مراكز بحوث عن مواضع السحر.

قلت: وقـد ذكـروا من أسـاليب العلاج السـدر، فقـد ورد في كتب وهب بن منبه أن يأخذ سبع ورقـات من سـدر أخضـر، فيدقـه بين حجرين، ثم يضربه بالماء، ويقرأ آيـة الكرسـي والقواقل(3)، ثم يحسو منه ثلاث حسيات، ثم يغتسل به، فإنه يذهب عنه كل ما بـه،

---

1) الترمذي والنسائي وابن ماجة، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

2) فتوى الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز – برقم (8016) – الصادرة بتاريخ 22 / 1 / 1405 هـ.

وقد ذكروا أنه جيد للرجل إذا حبس عن أهله)[1]

قال: ومن وهب بن المنبه؟

قلت: رجل من اليهود أسلم، فكان من التابعين.

قال: وهل أسلم لتعلموه، أم ليعلمكم؟

قلت: لا أخفي عليك ـ يا معلم ـ لقد تعلمنا عنه كثيرا.

قال: فارموا بكل ما تعلمتموه منه عرض البحـر.. فقـد أتـاكم بها ﷺ نقية صافية، فأبيتم إلا تدنيسها برجس اليهود والنصارى.

قلت: ولكن قومي تلقوا قوله هذا بالقبول، وهم يفتون الناس بهذا.. ولهذا أصبح السدر عندنا من السلع الغاليـة.. وقـد ذكـر بعض كبار المفتين عندنا وصفة يبيعها الرقاة بوزنها ذهبا[2].

قال: وما للمفتين وهذا!؟.. إن دورهم هـو تبـيين أحكـام اللـه التي نص عليها رسول الله ﷺ لا التي نص عليها وهب بن منبه.

قلت: ولكنها مجربـة، وقـد قـال بعض علمائنـا المعتـبرين عن تلك الوصـفة: (وكـذا رقيت على بعض الأقـارب أو الأحبـاب الـذين حبسوا عن نسائهم، بما ذكره ابن كثير من ورقات السدر، وقــراءة الآيات التي ذكرها، فوقع الشفاء بإذن الله)[3]

قال: عجبا لكم ولعلمائكم.. لا تعد لروايـة مثـل هـذه الأمـور.. فإني أشعر بالأسى عندما أسمع هذا.. إن العـالم في الأمـة خليفـة لرسول الله ﷺ، فلا ينبغي أن يجاوز ما كان ﷺ يفعلـه.. فهـل رأيت ﷺ فعل هذا؟

قلت: لا..

قال: فاكتفوا بما فعله.. ولا تبتدعوا، فكل بدعة ضلالة.

قلت: ولكن الرقية مما يجوز فيه الاجتهاد.

قال: ومن قال ذلك؟.. ومن قال بأن هناك رقية للسحر أصلا، ألم يحصر ﷺ الرقى في العين وذوات السموم؟

قلت: بلى.. ولكن العلماء يقيسون.

قال: ما أورد إبليس في الضلالة إلا قياسه..

قلت:..

قال: سنذهب إلى قاعات الرقى، وسنرى الأحكـام المرتبطـة بها، فلا تعجل.

---

3) القواقـل: هي السـور الـتي تبـدأ بــ (قـل) وهي: الجن، الكـافرون، والإخلاص، الفلق، والناس.

1) فتح الباري: 10 / 233.

2) انظر: مجموع فتاوى الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز: 3 / 279 – 280.

3) الصواعق المرسلة في التصدي للمشعوذين والسحرة: 606.

الاستعاذة من العين

قصدنا القاعـة الثالثـة من قاعـات حصـن الاسـتعاذة، فـرأيت لافتة مكتوبا عليها قوله ﷺ: (اسـتعيذوا باللـه من العين، فـإن العين حق)(1)

قلت للمعلم: أهذه هي القاعة التي تعالج فيها العين؟

قال: أجل.. فقد ذكر هذا الحديث المرض وعلاجـه.. وفيـه مـا يغني عن كل تلك الأسفار التي اشتغلتم بها، وشغلتم الناس.

قلت: هذا صحيح.. فإن قومي يبالغون في أمـر العين كثـيرا.. بـل لـو تتبعت كلامهم لتصـورت أن كـل مـا يحـدث في الكـون من حوادث ليس إلا أثرا من آثار بعض العيون السامة.

قال: فالنبي ﷺ ـ لـذلك ــ أثبت تـأثير العين، ولكنـه لم يكتـف بذلك، بل أعطى العلاج الشرعي الذي يكف شرها.

قلت: تقصد الاستعاذة.

قال: أجل.. فهي وحدها الكافية الشافية، ولهذا كـان ﷺ يعـوّذ الحسن والحسـين بقولـه: (أعيـذكما بكلمـات اللّـه التامـة من كـل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة)، ويقـول: (هكـذا كـان إبـراهيم يعوذ إسحاق وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ)(2)

قلت: ولكن العين خطيرة، إنها تدخل الرجـل القـبر، والجمـل القدر(3)؟

قال: وهل يمكن للعين، أي عين أن تقتحم أسوار قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (الفلق:5).. الحق أقول لك: إن العين أضعفا شأنا، وصاحبها أهون أمرا من أن نلتفت إليه أو يستعبدنا..

ولهذا لم يأت في آيـة واحـدة من القـرآن الكـريم: (إن العين لكم عدو مبين)، بـل عـدونا الوحيـد المـبين هـو الشـيطان الـرجيم بوساوسه، لا بصرعه، قال تعالى:﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَـدُوٌّ فَاتَّخِـذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (فاطر:6)

ثم سكت هنيهة، وصاح، وكأنه يخـاطب اللاشـيء: ارجـع أيهـا الخائف من العين إلى ربك، واسأله مزيد نعمه، ولا تخف أن يسلبها منك أي عائن، بل خف معاصيك وانحرافك وجحودك ولجوءك لغـير حصون الله.. أما إذا أبيت إلا أن تخاف هؤلاء، فاسمع لما يقول الله تعالى فيمن اسـتجار من الرمضـاء بالنـار، قـال تعـالى:﴿ وَأَنَّهُ كَـانَ

1) ابن ماجه كتاب الطب باب العين، رقم (3508).
2) البخاري وأهل السنن.
3) روي في هذا:(العين تدخل الرجل القـبر وتـدخل الجمـل القـدر) ابن عـدي وأبـو نعيم في الحلية.

رِجَالٌ مِنَ الْأِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً (الجن: 6).. فلن يزيدك هؤلاء إلا رهقا وخوفا، ولن تشعر بلذة أي نعمة وعيون الناس ترمقك لتسلبها منك.

قلت: ولكن ورد في السنن ما يدل على الاسترقاء من العين بالاغتسال وغيره، فقد ورد في الحديث قوله ﷺ: (العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقت العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا)(1)

قال: هذا صحيح.. ولكن الرقية ـ كما سنرى رخصة ـ والكمال في الاكتفاء بالاستعاذة التي كان يفعلها ﷺ، ويخبر أن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ــ كانوا يفعلونها، ألم تسمع قوله ﷺ في السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب أنهم (هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون)(2)

قلت: ولكن النبي ﷺ قال: (لا رقية إلا من عين أو حمة أو دم لا يرقأ)(3)

قال: هذا صحيح، ولكنه لا ينافي كونها رخصة، لأن النبي ﷺ وصفهم بكونهم لا يكتوون مع ورود النصوص بإباحة الكي.

قلت: فلم كان الأمر كذلك؟

قال: لقد وصف رسول الله ﷺ السبعين ألفا بكونهم (على ربهم يتوكلون) والمتوكل هو الواثق في الله الراضي بتحصين الله المكتفي به، أما القاصر عن هذه الرتبة، فإنه يحتاج إلى أسلحة أخرى رخص فيها ﷺ كالاغتسال ونحوه..

قلت: ولكن ـ يا معلم ـ ألم يبلغك حديث سهل بن حنيف، فقد روي أن أباه حدّثه: أن رسول اللّه ﷺ خرج وساروا معه نحو مكة، حتى إذا كانوا بشعب الخرار من (الجحفة) اغتسل سهل بن الأحنف، وكان رجلاً أبيض حسن الجسم والجلد، فنظر إليه عامر بن ربيعة أخو بني عدي بن كعب وهو يغتسل، فقال: ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة، فلبط سهل، فأتى رسول اللّه ﷺ، فقيل له: يا رسول اللّه هل لك في سهل؟ واللّه ما يرفع رأسه ولا يفيق، قال: (هل تتهمون فيه من أحد؟)، قالوا: نظر إليه عامر بن ربيعة، فدعا رسول اللّه ﷺ عامرا فتغيظ عليه، وقال: (علام يقتل أحدكم أخاه؟ هلا إذا رأيت ما يعجبك برّكت؟)، ثم قال: (اغتسل له)، فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبته وأطراف رجليه وداخلة إزاره في قدح، ثم صبَّ ذلك الماء عليه، فصبه رجل على رأسه وظهره

1) مسلم.
2) البخاري ومسلم.
3) أبو داود.

من خلفه، ثم يكفأ القدح وراءه ففعل ذلك فراح سهل مع الناس ليس به بأس(1).

قال: هذه حادثة خاصة(2).. ولا يمكن القياس عليها(3)، ولا اعتبارها من الكمال.

قلت: كيف هذا؟

قال: أرأيت لو أن شخصا مثل سهل مر في شارع، فأصابته عيون الشارع جميعا، أو ظهر على هذه الشاشات التي تعتكفون

---

1) أحمد ورواه ابن ماجة بنحوه.

2) نرى أن هذا النوع من العلاج خاص بمن حصل منه ما حصل من عامر بن ربيعة، حيث أنه لم يكتف بإذيته بعينه بل صرح بذلك، حيث قال:(ما رأيتُ كاليوم ولا جِلْدَ مُخَبَّأة) بدون أن يبرك، أما من لم يتلفظ بمثل هذا، واتهم مجرد تهمة، فإنه من الحرج العظيم تكليفه بالاغتسال، ففي ذلك ما قد يؤثر في العلاقات الاجتماعية التي جاء الشرع بطلب تماسكها.

3) بنى المتأخرون على هذا، لتصورهم جواز القياس في مثل هذه المسائل، فأضافوا أمورا كثيرة كلها من البدع المحدثة، وخطرها ليس في كونها بدعة فقط، مع خطورة البدع، بل في تأثيرها الخطير علىالعلاقات الاجتماعية بين المسلمين، والوساوس الكثيرة التي تبثها في صفوفهم.

فمما أضيف في عصرنا من أساليب استخدام آثار المريض الداخلية أو الخارجية ووضعها بالماء ورشه بعد ذلك على المعين، وقد أفتى بجواز ذلك الشيخ محمد بن صالح العثيمين، حيث يقول:(وهناك طريقة أخرى - لعلاج العين - ولا مانع منها أيضا، وهي أن يؤخذ شيء من شعاره أي ما يلي جسمه من الثياب كالثوب، والطاقية والسروال وغيرها، أو التراب إذا مشى عليه وهو رطب، ويصب على ذلك ماء يرش به المصاب، أو يشربه. وهو مجرب) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد: 1 / 94.

والأخطر من ذلك قوله في موضع آخر:(وقد جرت العادة عندنا أنهم يأخذون من العائن ما يباشر جسمه من اللباس مثل الطاقية وما أشبه ذلك ويربصونها بالماء ثم يسقونها المصاب ورأينا ذلك يفيده (حسبما تواتر عندنا من النقول)) [انظر: فتاوى الشيخ محمد بن صالح العثيمين – 1 /ـ 196.]، فأي طبيب يسمح بمثل هذا السلوك، وأي طبع سليم يسمح لنفسه أن يتناول مثل هذا الشراب.

ومن الأساليب المعاصرة التي وجدت من يفتي بجوازها، بل يحث عليها استخدام أثر العائن على أي صفة كانت كالماء والقهوة والنوى.

فقد سئل الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين عن أخذ بعض الأثر المتبقي من بعض الناس الذين يشك بأنهم أصابوا شخص ما بالعين، كأخذ المتبقي في الكأس من ماء أو شراب، أو فضلات الأكل، وهل هذا صحيح معتمد؟

فأجاب:(نعم كل ذلك صحيح ونافع بالتجربة، وكذا غسل ثوبه الذي يلاصق بدنه أو يعرق فيه، أو غسل رجليه أو يديه لعموم (وإذا استغسلتم فاغسلوا) فهو يعم غسل البدن كله، أو غسل بعض البدن، وحيث جرب أن أخذ شيء من أثره يفيد، فإن ذلك جائز كغسل نعله الذي يلبسه، أو جوربه الذي يباشر جلده، لأمره في الحديث بغسل داخله إزاره، أي الذي يلي جسده، وكذا ما مست يداه من عصى أو قفاز، وكذا فضل وضوئه الذي اغترف منه، أو ما لفظه من النوى، أو تعرق من عظم أو نحو ذلك، وهذا بحسب التجربة، وقد يصيب بإذن الله، وقد يستعصي ذلك بحسب قوة نفس العائن وضعفها)

ومن الأساليب المعاصرة التي وجدت من يفتي بجوازها، بل يحث عليها استخدام آثار عتبات الأبواب أو أقفالها ونحوه ووضعها بالماء والاستحمام بها لإزالة أثر العين، فقد سئل الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين عن جواز استخدام آثار عتبات الأبواب والأقفال وذلك عن طريق مسح المكان ووضع ذلك في الماء واغتسال المعين منه؟

عليها، فأصابته عيون الملايين، كيف يتعامل مع عيونهم؟
قلت: في ذلك الحين يكفيه أن يستعيذ.
قال: فكيف تأمره بالاستعاذة إذا صوبت إليه سهام الملايين، ولا تأمره بها إذا أصابه سهم واحد؟
قلت: السهم الواحد يمكن استغساله بخلاف السهام الكثيرة.
قال: وهل الاستعاذة تكفي من غير حاجة إلى الاغتسال؟
قلت: ورد النص بالاغتسال.
قال: وورد النص بغيره، بل ورد ما يدل على أن الكمال في غيره ألم تقرأ رقية جبريل لرسول الله ﷺ؟
قلت: بلى.. فعندما اشتكى رسول الله ﷺ، أتاه جبريل عليه السلام، فقال: (باسم اللّه أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من كل حاسد وعين واللّه يشفيك)(1)
قال: فهذه الاستعاذة كافية شافية، وهي لا تحتاج إلى ما يفعله رقاتكم مما يسمونه رقية التشخص.
قلت: كيف هذا؟
قال: لقد دعا جبريل لرسول الله ﷺ دعاء شاملا، فقال: (من كل شيء يؤذيك)، وهذا يكفي.. فلا يضرك أن تعلم المصدر الذي يؤذيك أو لا تعلمه.
قلت: اضرب لي مثالا يوضح لي هذا.
قال: أرأيت لو اشتريت ما تسمونه بالمبيد، وكان في هذا المبيد قدرات هائلة بحيث تقتل جميع أنواع الحشرات، ثم جهلت أنت بعض هذه الأنواع.. أفترى المبيد فاتكا بها، أم أنه لا يفتك بها حتى تعرف ذلك النوع؟
قلت: لا يحتاج المبيد مني إلى معرفة ذلك.
قال: فهكذا فعل جبريل عليه السلام مع رسول الله ﷺ.
قلت: ولكنه جبريل.. وما أدراك ما جبريل؟
قال: فإن لم تقتدوا بجبريل عليه السلام، فبمن تقتدون؟.. أبإبليس؟
قلت: من الأمور التي نصوا عليها من باب الوقاية من شر

فأجاب:(قد عرف بالتجربة أن غسل كل ما مسه العائن ثم شرب المعين من غسالته أو صبه عليه يكون سببا في الشفاء من تلك العين بإذن الله تعالى، وحيث أن العائن يمس قفل الباب أو مفتح السيارة وقد يطأ حافيا على عتبة الباب أو يمس العصا أو المظلة أو الفنجان للقهوة أو الشاي، أو يأكل من التمر ويلفظ النوى بعد أن يمصه بفمه، فإن غسل هذه كلها مما جرب وحصل معه زوال أثر العين بإذن الله قياسا على أمره بالاغتسال كما في الحديث الصحيح) انظر: المنهل المعين في إثبات حقيقة الحسد والعين – ص 237)

1) أحمد.

العين، ستر محاسن من يخاف عليه من العين.

قال: فبم استدلوا على ذلك؟

قلت: هذا أمر يكاد يكـون متفقـا عليـه، فقـد روي أن عثمـان رأى صبيا مليحا، فقال: (دسموا نونته(1)، لئلا تصيبه العين)(2)

وقد قال الشاعر:

ما كان أحوج ذا الكمال إلى عيب يوقيـه مـن العين

ونتيجة لهذا، نص كل من تكلم في هذا الباب على هـذا النـوع من الوقاية، وقد قال محمد بن مفلح: (وليحترز الحســن من العين والحسد بتوحيش حسنه)(3)

وقد اعتبر بعضهم هـذا ممـا شـرعه اللـه من أسـباب الوقايـة مستدلا عليه بقولـه تعـالى: يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ ءامَنُـوا خُـذُوا حِـذْرَكُمْ (النساء – الآية 71) قائلا: (وهو يعم الحـذر من كـل مـا فيـه ضـرر على النفس أو المال)(4)

قال: إن هذا الكلام يحمل أنفاسا من شـؤم التطـير، وخطـره عظيم، لأن الأدلة الشرعية تأمر بإظهار نعمـة اللـه لا سـترها، وقـد قال ﷺ: (من كان لـه شـعر فليكرمـه)(5)، وقـد قـال ﷺ: (إن اللـه تعالى جميـل يحب الجمـال ويحب أن يـرى أثـر نعمتـه على عبـده ويبغض البؤس والتباؤس)(6)

قلت: ولكن النـبي ﷺ قـال: (اسـتعينوا على إنجـاح الحـوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود)(7)

قال: إن هذا الحـديث لا يـدل على هـذا المعـنى، بـل هـو من جنس قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِـكَ فَيَكِيـدُوا لَـكَ كَيْـداً إِنَّ الشَّـيْطَانَ لِلْإِنْسَـانِ عَـدُوٌّ مُبِينٌ (يوسف:5)

فالخوف الـذي خافـه يعقـوب عليه السلام هنـا ليس خوفـا من العين، وإنما الخوف من كيد إخوته له، ولذلك أمر النـبي ﷺ بالكتمـان عن الحسدة حتى لا يسعوا في خلاف مقصود المحسود.

---

1) أى: سَوِّدُوا نونته، والنونة: النُّقرة التى تكون فى ذقن الصبىِّ الصغير.
2) البغويُّ فى كتاب (شرح السُّـنَّة)
3) الآداب الشرعية – 3 / 60
4) انظر: المنهل المعين في إثبات حقيقة الحسد والعين - 218، 219.
5) أبو داود.
6) البيهقي عن أبي سعيد.
7) العقيلي، وابن عدي، والطبراني في الكبير، وأبـو نعيم في الحليـة، والخـرائطي في إعتلال القلوب وابن عساكر، قال المناوي في فيض القدير (1/493): الحديث ضعيف ومنقطع، ولما ساق الحافظ العراقي الخبر المشروح جزم بضعفه واقتصر عليه.

قلت: وما تقول فيما قال المفسرون من قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (يوسف:67)، فقد أطبق المفسرون على اعتبار نهيه إياهم عن الدخول من باب واحد من باب الخوف من العين.

قال: لا ينافي ذلك ما ذكرنا، لأنه لا يحصل بدخولهم من أبواب متفرقة أي مضرة، فهم لم يكتموا أي نعمة.

زيادة على أن مراد يعقوب عليه السلام هو الاحتياط الأمني لهم، ذلك أن دخول هذه المجموعة إلى مصر والسير في شوارعها، قد يثير الحسد والبغضاء في بعض النفوس الضعيفة فيسعون ضدّهم عند السلطان ويظهرونهم كمجموعة أجنبية تحاول العبث بأمن البلد ونظامه، فحاول يعقوب عليه السلام أن يجنبهم بنصيحته عن هذه المشاكل(1).

قلت: وما الخطر في هذا النوع من الوقاية؟

قال: خطره أنه جر سلوكيات كثيرة منحرفة في المجتمع، تقرب من التطير المنهي عنه، فلذلك كان الأولى منعه، والاكتفاء بما ورد في النصوص الصحيحة من التعويذات.

فالنبي ﷺ لم يدسم نونة الحسن والحسين مع جمالهما وكمالهما وكونهما من آل بيت النبوة، وإنما كان يعوذهما بقوله: (أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة) ويقول: (هكذا كان إبراهيم يعوذ اسحق واسماعيل عليهما السلام)(2)

وكان رسولُ اللهِ ﷺ إذا أوى إلى فراشِهِ نَفَثَ فى كَفَّيْهِ: ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ والمُعَوِّذَتَيْن. ثم يمسحُ بهما وجهه، وما بلغت يدُه من جسده.

قلت له: مما ذكروه من أساليب الوقاية من العين(الإحسان إلى من عرفت أصابته بالعين كإحسان الغني إلى الفقير المستشرف لما في يد الغني)(3) كأسلوب من أساليب الوقاية.

قال لي: بأي نص استدلوا؟

قلت: لا أعلم أنهم ذكروا نصا.

---

1) انظر: الأمثل، وهو قول للجبائي، مع العلم أن الشيرازي لم ينف ما ذكره المفسرون من العين.

2) البخاري.

3) قاله الدكتور عبدالله الطيار والشيخ سامي المبارك بتقريض الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، انظر: فتح الحق المبين في علاج الصرع والسحر والعين – ص 192.

فقـال: فهـذا كلام بلا علم، بـل بمـا ينـاقض العلم، فمن أي الأبـواب يـدخل هـذا الإحسـان؟، هـل هـو من الصـدقات؟ أو من الهبات؟

قلت مازحـا: لعلـه يخرجـه من الزكـاة ليضـعه في نصـيب المؤلفة قلوبهم.

ضحك، وقال: وأخير تحول الحاسد إلى المؤلفة قلوبهم.

قلت له: مـا تقـول فيمـا ذكـره العلمـاء من معاقبـة العـائن، كقول ابن القيم: (وقـد قـال أصـحابنا وغـيرهم من الفقهـاء أن من عرف بذلك حبسه الإمام وأجرى له ما ينفق عليه إلى الموت وهـذا هو الصواب قطعا)(1)

ومثله قول العيـني نـاقلا عن القاضـي عيـاض نـاقلا عن بعض العلمـاء: (ينبغي إذا عـرف واحـد بالإصـابة بـالعين أن يجتنب وأن يحترز منه وينبغي للإمام منعه من مداخلـة النـاس، ويلزمـه بلـزوم بيته، وإن كان فقيرا لزمه مـا يكفيـه فضـرره أكـثر من آكـل الثـوم والبصل الذي منعه النبي ﷺ من دخول المسـجد لئلا يـؤذي النـاس ومن ضرر المجذوم الذي منعه عمر)(2)

قال: كيف يقولون هذا، وهم يعلمون أن العقوبات في الشرع مقـدرة، وأنهـا مـع ذلـك تـدرأ بأبسـط الشـبهات، فكيـف يسـمح لموسوس مغـرور منبهـر بكمالاتـه أن يحبس النـاس مـدى الحيـاة لكونهم أعجبوا بطلعته البهية، أو جماله الرائع؟

ثم ما هذا القياس الذي قاسـوه، وهـل حبس رسـول اللـه ﷺ آكل الثوم والبصل؟

ثم كيف يقـاس الثـوم والبصـل والجـذام، وهمـا من الشـهادة على العين، وهي غيب؟

ثم لماذا لم يحكموا بفقـأ عينـه، فهي المعاقبـة، لا هـو، ولعـل ذلك أرحم له من الحبس مدى الحياة؟

قلت: فقد ذكروا صيغا وأورادا مجربة في دفع شر العين.

قال: فاعرض علي ما ذكروا.

قلت: من الأمثلة القديمـة على ذلـك مـا ذكـره ابن القيم في الكتاب الذي خصصه لهدي النبي ﷺ، حيث قال: (من الـرقى الـتى ترد العين ما ذكـر عن أبى عبـد اللـه السـاجى، أنـه كـان فى بعض أسفاره للحج أو الغزو على ناقـة فارهـة، وكـان فى الرفقـة رجـل

---

1) الطب النبوي، ص 168.

2) عمدة القاري بشرح صحيح البخاري: 17 / 405.

عائن، قلما نظر إلى شـىء إلا أتلفـه، قيـل لأبى عبـد اللـه: احفـظ ناقتك من العائن، فقال: ليس له إلى نـاقتى سـبيل، فـأخبر العـائن بقوله، فتحين غيبة أبى عبد الله، فجاء إلى رحله، فنظر إلى الناقة، فاضطربت وسقطت، فجاء أبو عبد الله، فأخبر أن العائن قد عانها، وهى كما ترى، فقال: دلونى عليه. فدل، فوقف عليه، وقال: بسـم الله، حبس حابس، وحجر يابس، وشهاب قابس، ردت عين العـائن عليه، وعلى أحب الناس إليه، ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَـلْ تَـرَى مِن فُطُـورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾(الملـك: 3-4) فخرجت حدقتا العائن، وقامت الناقة لا بأس بها)(1)

قال: ما هذا؟ لا يصح أن يـذكر هـذا في كتـاب خصـص لهـدي النبي ﷺ.

قلت: فما تنكر منه؟

قال: لا شيء في هـذا النص معـروف، بـل كلـه منكـر، فهـذه صيغ غريبة، تحمل عقائد غريبة وسـلوكا غريبـا لا علاقـة لـه بعقائـد الإسلام ولا سلوكه.

فما كل تلك الثقة بتلك الألفاظ المسجوعة التي لا تختلف عن ألفاظ مسيملة؟

أو ليس في ذكرها بتلك الثقة دعوة للاستعاضة عن اسـتعاذت القرآن والسنة، فقد ذكرها، وكأنها الطلسم الذي ينفي كـل سـحر، ويحل كل تعويذة؟

ثم لماذا ترد العين على أحب الناس إليه، وما ذنب المسـكين حتى يتحمل جريرة العائن؟

ثم لماذا تحور معاني القرآن الكريم لغير ما أنزلت له؟

ثم لماذا كـانت الناقـة أهم عنـده من أخيـه، فقـد أقـام ناقتـه بتعويذته، وأخرج حدقتي عين أخيه؟

ثم ما معنى (حَبْسٌ حابسٌ، وحَجَرٌ يابِسٌ، وشِهابٌ قابِسٌ)؟

وأسئلة غيرها كثير لا نوجهها إلى ابن القيم، وإنما نوجهها لمن ينشر مثل هذه الشـعوذات لينسـخ بهـا المعـوذات الـتي وردت بهـا النصوص.

قلت: والخطـر الأكـبر فيمـا ذكـره ابن القيم لا يقتصـر على إقراره مثل هذا، بل في إتاحة الفرص لمن يضع مثل هذا الدجل.

قال: أهناك غير هذا؟

قلت: كثير جدا.. وسأقتصر على مثال يكفي وحده لبيان مدى

---

1) زاد المعاد: 4/174.

الدجل الذي تحمله الرقيـة المعاصـرة، فقـد ذكـر بعضـهم كيفيـات مختلفة لعلاج الحسد، كوصفات تتعلق بالأمراض المختلفة.

فمنها كيفية علاج الحسد في الصحة والجمال، وهـذه الكيفيـة ننقلها بحروفها فيما يلي: (يستمر علاج الحسد في الصحه والجمال إلى ثلاثة أيام وهي على النحـو التـالي: في اليـوم الأول: الاغتسـال بماء الوضوء غسلا شرعيا بعد صلاة الفجـر وقبـل بـزوغ الشـمس، وبعد الاغتسال، قـراءة مجموعـة المعـوذات، وبعـد صـلاة الضـحى قراءة سورة يس، وبعد صلاة الظهر قراءة الرقى الشـرعية، وبعـد صلاة العصـر قـراءة سـورة يوسـف وبعـد صـلاة المغـرب قـراءة مجموعة التسابيح، وبعد صلاة العشاء قراءة الرقى الشرعية، وبعد صلاة قيام الليل قراءة مجموعة الاستغفار

وفي اليوم الثاني: الاغتسال بماء الوضوء غسـلا شـرعيا بعـد صلاة الفجر وقبل بـزوغ الشـمس، وبعـد الاغتسـال قـراءة الـرقى الشرعية، وبعد صلاة الضحى قراءة الأذكار الصـباحية، وبعـد صـلاة الظهر قراءة مجموعة المعوذات، وبعد صلاة العصر قـراءة سـورة الكهف ، وبعد صلاة المغرب قراءة مجموعة التسابيح، وبعـد صـلاة العشاء قراءة الرقى الشرعية.

وفي اليوم الثالث: الاغتسال بماء الوضـوء بعـد صـلاة الفجـر وقبل بزوغ الشمس غسلا شـرعيا، وبعـد الاغتسـال قـراءة الـرقى الشرعية، وبعد صلاة الضحى قراءة سـورة المزمـل، وبعـد صـلاة الظهر قراءة مجموعة المعوذات، وبعد صلاة العصر قـراءة سـورة المدثر ، وبعد صلاة المغرب قـراءة الـرقى الشـرعية، وبعـد صـلاة العشاء قراءة مجموعة المعوذات، وبعـد صـلاة قيـام الليـل قـراءة مجموعة الاستغفار)

وهذه كيفية أخرى خاصة بعلاج الحسد في المال والبنين..

قاطعني المعلم قائلا: حسبك .. بأي سند نقل هذا المبتدع كل هذه الكيفيات؟

قلت: لا سند لهذا..

قـال: فهي شـريعة جديـدة وضـعوها.. فحـذر قومـك منهـا.. وحـذرهم من هـؤلاء الـذين يريـدون أن ينسـخوا شـريعة العقـل والحكمة بشريعة الشعوذة والخرافة.

قلت: ألا يمكن أن يقي العائن شر عينه عن الناس؟

قال: بلى، فقد ورد في النصـوص مـا يـدل على إمكانيـة دفـع العائن شر عينه عن الناس.

قلت: فماذا ورد من ذلك؟

قال: أن يقول: (اللَّهُمَّ بَارِكْ عليه)، وقد قال ﷺ لعامر بن ربيعة لما عان سهل بن حُنيف: (ألا برَّكْتَ) أى: قلتَ: اللَّهُمَّ بارِكْ عليه.

ومثله كل الصيغ القريبة من هذا، كقول (ما شاء الله لا قُوَّة إلا بالله)

قلت: وما علاقة هذه الألفاظ بالوقاية من العين؟

قال: هذا يقودنا إلى سبب العين.

قلت: فما سببها؟

قال: العين القاصرة الحاسدة التي لا ترى فضل الله عليها، فدلها رسول الله ﷺ على النظر إلى قدرة الله الذي لا يعجزه شيء، فتكسر بقوة الإيمان رماح الحسد.

قلت: لا أقصد هذا.

قال: فما تقصد؟

قلت: لقد خاطبنا المؤمنين.. وبينت وجه الصواب في كيفية التعامل مع العين، فكيف نخاطب من ينكرها، ونبين له صدق اعتباره ﷺ العين حقا.

قال: هذا متكلم يبحث عن الشبهات ليرد عليها.. وسيجيبك.

قلت: إنها صدفة غريبة أن يحضر معنا.

قال: ليس هناك مكان للصدفة.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر:49)؟

تدخل الرجل الذي أشار إليه من غير أن أسأله، فقال: لقد كشفت الدراسات الحديثة(1) أن للإنسان قدرات فوق القدرات التي نراها.. وهي ليست حكراً على أحد أو خاصية يتمتع بها أناس متميزون عن غيرهم، بل هي موجودة في معظم البشر، وأقل البشر، شريطة أن يدرك قدراته ويعرف الطرق لاستخدامها.

قلت: ما تقصد؟

قال: أنا لا أخاطبك أنت.. بل أخاطب الذين ينكرون العين.. والقوى الخارقة.

قلت: أنت تذكر أخبار الدراسات الحديثة.. فعلام استندت هذه الدراسات؟

قال: من الأمثلة الكثيرة التي رأتها القدرة على اختراق المادة

---

1) انظر: كتاب: The Field: The Quest for Secret Force of the Universe نقلا عن: فراس نور الحق محرر موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

بالنفس والتي امتلكها الشاب ماثيومانينغ من قرية لينتون قرب مدينة كامبردج، فقد كان باستطاعته طي الملاعق والسكاكين، وتغيير شكلها بمجرد النظر، وكان ينظر إلى عقارب الساعة فيوقفها عن الحركة، بل يستطيع إيقاف التيار الكهربائي..و ثبتت لديه القدرة على التأثير في سريان الدم في الأوعية والشرايين وكذلك التأثير على مرض السرطان.

ويعرف عن نابليون بونابرت أنه كان ذا نظرة حسد ثاقبة، فقد عرف عنه أنه إذا ثبت نظره على خصمه سبب له متاعب كبيرة، وإذا نظر بنظرته الحاسدة إلى شيء ما حطم ذلك الشيء.

قلت: فكيف تعرفت الدراسات الحديثة على مدى صدق هذا؟

قال: بوسائلها المعروفة.. وسأذكر لك نموذجا عن هذا بأكثر هذه الحالات غرابة، وأكثرها مصداقية، وذات توثيق علمي، وهي التجربة التي أجريت على نيليا ميخايلوفا التي كان باستطاعتها أنها بمجرد النظر من على بعد ستة أقدام أن تفصل بياض البيضة عن صفارها مستخدمة في ذلك مقدرتها الخاصة جداً في تحريك الأجسام المادية عن بعد، ودون أن تقربها.

وقد أجريت هذه التجربة وسط حشد من العلماء بجامعة لينجراد، وباستخدام آلات التصوير لتسجيل الحدث لحظة بلحظة، وباستعمال العديد من الأجهزة التي تقيس الضغط والنبض وأنواع الإشعاعات التي تسود المخ أثناء التجربة، وقد نجحت السيدة نيليا في فصل صفار البيضة عن بياضها خلال نصف ساعة، وقد كشفت الملاحظة وأجهزة القياس على جسد السيدة نيليا عن نشاط غير منتظم في القلب مع زيادة النبض.. وارتفاع شديد في نسبة السكر.. وفقدت رطلين من وزنها.. وخرجت من التجربة تعاني من الضعف بشكل عام.. وأصيبت بما يشبه فقدان البصر المؤقت.. وتعانى من آلام شديدة في الأطراف.. وظلت لعدة أيام بعد التجربة غير قادرة على النوم.. وفقدت قدرتها على التذوق.

وقد كان اكتشاف حالة السيدة نيليا بفضل العالم البيولوجي إدوارد فاموف، الأستاذ بجامعة موسكو، والذي أعد دراسات على قدراتها، وذلك باستخدام عيدان الثقاب التي تستطيع نيليا تحريكها بتمرير يدها عليها، وهي مبعثرة على طاولة، ثم باستخدام لوح زجاجي بين يديها وبين عيدان الثقاب.

قلت: فكيف فسرت هذه الدراسات هذه الأمور الخارقة؟

قال: لقد ذكرت الكاتبة والباحثة الإنجليزية والصحفية التي

جمعت أخطر دراسات في مجال الطاقة (لين ماكتاجارات) في كتابها: (البحث عن سر قوة الكون) ما يبين تصورهم لسر هذا، فقد ذكرت أن الكون مزود بطاقة ومتصل ببعضه البعض، ويؤثر كل جزء فيه بالآخر، ويبنى على ما توصلت إليه دراسات الـ (Quanum Physics) التي خرجت بعد نيوتن، ونظريات ألبرت آينشتاين في الطاقة والزمان.

فإحدى هذه الدراسات، على سبيل المثال، درست الذرة، وما داخلها (نواة والكترون)، ويسمى هذا العلم الفيزياء الذرية، ثم درسوا النواة في الداخل والإلكترون، ويسمى هذا العلم الفيزياء النووية، ثم درسوا جزيئات النواة ويسمى هذا العلم فيزياء الأشياء أو الجزيئات.

ومعلوم أن الإلكترون يلف حول النواة بعكس مدار الساعة ولما نظروا في دوران وحركة الجزيئات الصغيرة في النواة توصلوا إلى حقيقة مذهلة حيث أنها تتحرك يميناً أو شمالاً أو بدوران بحسب فكرة الباحث حيثما توقع تسير.

ولذلك توصلوا إلى أن الفكرة تؤثر في حركة الجزيئيات الداخلية في النواة، وبالتالي فإن الفكرة بقوتها قد تؤثر في النواة، وإذا كانت أقوى أثرت بالذرة، وإذا كانت أقوى أثرت بالبيئة المليئة بالذرات، كما يحصل للنفس الحاسدة أو التخاطر أو الكشف أو السحر أو الإلهام أو غيرها من أمور.

ملاجئ إلهية

قصدنا القاعة الرابعة من قاعات حصن الاستعاذة، فرأيت لافتة مكتوبا عليها قوله تعالى: وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (الانفطار: 10)

قلت للمعلم: ما هذه القاعة؟

قال: هذه القاعة تملأ صدرك بالثقة في الملاجئ التي وضعها الله لحمايتك.

قلت: ولكن الآية تتحدث عن الملائكة ـ عليهم السلام ـ

قال: لقد شرفكم الله ـ معشر بني آدم ـ بأن وكل الملائكة بحفظكم، فقال تعالى: وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ (الأنعام:61)، وقال تعالى: ، وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (الانفطار:10).. وهل يمكن لأي ظلمة أن تمحو نور الملائكة؟

قلت: لقد وردت الآثار التي تبين الوظائف التي وكل بها هؤلاء الملائكة ـ عليهم السلام ـ فعن علي قال: (ليس من عبد إلا ومعه ملائكة يحفظونه من أن يقع عليه حائط، أو يتردى في بئر، أو يأكله سبع، أو غرق أو حرق، فإذا جاء القدر، خلوا بينه وبين القدر)

وقال: (لكل عبد حفظة يحفظونه، لا يخر عليه حائط أو يتردى في بئر أو تصيبه دابة، حتى إذا جاء القدر الذي قدر له، خلت عنه الحفظة فأصابه ما شاء الله أن يصيبه)(1)

ومن مظاهر الحفظ ما عبر عنه ابن مسعود بقوله: (إن العبد ليهم بالأمر من التجارة والإمارة حتى ييسر له فينظر الله إليه، فيقول للملائكة اصرفوه عنه فإنه إن يسرته له أدخلته النار، فيصرفه الله عنه فيظل يتطير بقوله سبني فلان وأهانني فلان، وما هو إلا فضل الله عز جل)

قال: وقد نص القرآن الكريم على تعدد هؤلاء الملائكة الحفظة وتعاقبهم على الإنسان، فقال تعالى: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الرعد:11) أي للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل، وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر.

قلت: فالإنسان بهذا الاعتبار محاط في كل وقت بأربعة ملائكة، اثنان عن اليمين والشمال، يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، وأحد من ورائه وآخر من قدامه.

قال: بل روي أكثر من هذا العدد بكثير، فقد قال رسول الله ﷺ: (وكل بالمؤمن ثلثمائة وستون ملكا، يدفعون عنه ما لم يقدر عليه من ذلك، للبصر سبعة أملاك يذبون عنه كما يذب عن قصعة العسل من الذباب في اليوم الصائف، وما لو بدا لكم لرأيتموه على كل سهل وجبل، كلهم باسط يديه فاغر فاه، وما لو وكل العبد فيه إلى نفسه طرفة عين، لاختطفته الشياطين)(2)

وقد روي من شدة حرص الملائكة ـ عليهم السلام ـ على من يوكلان به إلى درجات أنهم لا ينصرفون عنه إلا بعد الاطمئنان إلى تسليمه لمن يعقبهم من الملائكة ـ عليهم السلام ـ، قال أبو أمامة: (ما من آدمي إلا ومعه ملك يذود عنه، حتى يسلمه للذي قدر له)

---

1) أبو داود في القدر.
2) ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان، والطبراني والصابوني في المائتين.

قلت: فصحبة الإنسان للملائكة ـ عليهم السلام ـ دائمة؟

قال: أجل.. فقد قال ﷺ: (إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع، فاستحيوهم وأكرموهم)(1)

قلت: ولكن كيف تقول هذا ـ يا معلم ــ والإنسان قد تعتريه العوارض، وتنزل به الآفات، أترى الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ تقصر في وظائفها؟

قال: لا.. معاذ الله.. إن هذا الحفظ مرتبط بأمر الله، كما قال تعالى: ﴿، يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ (الرعد:11)، قال ابن عباس في تفسيرها: (ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر اللّه خلوا عنه)

قلت: فهل لسلوك الإنسان وعمله تأثير في هذا؟

قال: أجل.. لقد ورد في النصوص ما يدل على أن لأعمال الإنسان دورا في هذا الحفظ، كما قال ﷺ لابن عباس: (يا غلام احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم يقدروا على ذلك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا على ذلك قضى القضاء وجفت الأقلام وطويت الصحف)(2)

ولهذا ورد بعد قوله تعالى: ﴿، لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الرعد:11) قوله تعالى: ﴿، إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (الرعد:11)

ويروى في هذا أن الله تعالى أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك: (إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة اللّه فيتحولون منها إلى معصية اللّه إلا حوّل اللّه عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون)

***

رأيت أبوابا كثيرة داخل هذه القاعة، فسألت المعلم عنها، فقال: هذه أبواب الملاجئ التي نصبها الله لعباده ليؤووا إليها فيقيهم من كل بلاء.

قلت: فهل سنزورها جميعا؟

قال: لا.. سنكتفي بزيارة ثلاثة منها.

قلت: فما أولها؟

---

1) الترمذي، وقال: غريب.
2) سبق تخريجه.

قال: القرآن الكريم، فهو الكتاب الذي يضعك في محلــك من هذا الوجود، وينفي عنك الوساوس الـتي تنفخهـا الشـياطين.. وهـو أكبر الملاجئ وأعظمها.

قلت: والثاني؟

قال: دعاء الله تعالى والاستعاذة به والاطراح بين يديــه، وهــو لجوء محض، وافتقار خالص.

قلت: والثالث؟

قال: هو الرقى الشرعية التي سـنها لنـا النـبي ﷺ، وهي نـوع من العلاج الخاص الممزوج بالوساطة والأسباب.

القرآن الكريم:

دخلنا القاعة الأولى، وقد كتب على بابها قوله تعـالى: وَنُنَـزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (الاسراء:82)

قلت: هـل يبحث الأطبـاء في هـذا القسـم عن الآيـات الـتي يمكن الاستشفاء بها للحالات المختلفة؟

قال: ما تقصد بذلك؟

قلت: لقد ذكر الله تعـالى أن منـه مـا هـو شـفاء.. ومن تـدل على البعضية.

قال: ولم لم تقل بأنها لبيان الجنس لا للتبعيض؟

قلت: لقد رأيت قومي يسـتعملون بعض الآيـات في التـداوي، ويخبرون بأنهم وجدوا لها تأثيرات معينة.

قال: فكيف تتعاملون مع الآيات التي اكتشفوها؟

قلت: نعتبرهــا من المجربــات الناجحــة، فنســتعملها كمــا استعملوها.

قال: وتقعون في تحريف لكلام الله بسبب ذلك.

قلت: كيف؟

قـال: تنحرفـون بـالقرآن الكـريم عن هدفـه.. فتصـبح آيـات القرآن الكريم طلاسم وتعاويذ.

قلت: وهل القول بكون القرآن الكريم جميعـا شـفاء يقي من هذا؟

قال: أجل.. لأنـك تتعامـل معـه كليـا، لا جزئيـا.. وتتعامـل مـع معانيه وألفاظه، وهو ما يحفظك من مخاطر سوء التعامل معه(1).

---

1) والقرآن الكريم ـ من جهة أخرى ـ علاج خاص سواء كان ذلك للأمراض النفسـية والفكرية أم للأمراض البدنية.

فمن مرض قلبـه بالشـهوات عـولج بمواعـظ القـرآن الكـريم وتخويفاتـه، ومن غليـه الخوف عولج بما ورد في القرآن الكـريم من آيـات الرجـاء والرحمـة.. وهكـذا يعـالج كـل

قلت: ولكن النبي ﷺ قال لأولئك النفر عن الفاتحة: (وما أدراك أنها رقية)، وكان ﷺ إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فالنبي ﷺ خصص سورا معينة للاستعاذة والدعاء.

قال: صدقت.. وقد ذكرت أن النبي ﷺ هو الذي فعل هذا، وقاله.. فإن جاءنا الخبر عنه قبلناه.. أما إن جاءنا عن غيره.. فلا نقبله إلا إذا استدل له بما عرفنا من مصدر الشريعة.

ثم.. ألم تسمع قوله تعالى وهو يقرر كون القرآن الكريم علاجا شاملا لكل الأحوال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:57)، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (فصلت: 44)

قلت: بلى.. وقد وعيت ما قلت.

رأيت رجلين في القاعة التي تعالج بالقرآن الكريم واقفين أمام ملأ من الناس، فسألت المعلم عنهما، فقال: هذان الرجلان يمثلان النوعان الأساسيان للعلاج بالقرآن الكريم، أما أحدهما، فيمثل جانب معانيه، وتأثيراتها التي نعرفها بالحس، وأما الآخر، فيمثل جانب ألفاظه ومعانيه، وتأثيراتها التي تأتينا من الغيب.

قصدنا الرجل الأول، وقد كان على ما يبدو عالما جليلا، قد تشرب معاني القرآن الكريم وانصبغ بها، فسمعناه يقول: إن الأدوية القرآنية التي جعلها الله شفاء لأمراض الصدور.. لا يؤتي أكلها، ولا ينجع التداوي بها إلا لمن تشرب معاني القرآن الكريم وفهمها حق فهمها.

ألم تسمعوا الله تعالى، وهو يقول: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾ (الاسراء:82)، فقد اعتبر القرآن الكريم شفاء للمؤمنين، ولكنه في نفس الوقت لا يزيد الظالمين إلا خسارا.

ألم تسمعوا قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ

شخص بما يتناسب مع دائه.

ومثل ذلك الأمراض الجسدية، فهناك آيات خاصة أخبرت النصوص بتأثيرها، فهي شفاء، مع أن شفاء في القرآن الكريم في أصله شامل لآياته جميعا.

وسيتعمق هذا المفهوم من خلال ما سنطرحه هنا من سر تأثير القرآن الكريم العلاجي.

بَعِيدٍ (فصلت:44)، فقد أخبر تعالى أنـه هـدى وشـفاء للمؤمـنين، وأنه ليس سوى بلاء على غيرهم.

ولهذا.. فإن الذي لا يعير القـرآن الكـريم اهتمامـه، ولا يتـأدب معه فستنقلب وبالا عليه، فهو شـفاء لمن عـرف كيـف يسـتخدمه، ووبال على من استعمله في غير ما أنزل له.

قال أحدهم: إنـه في ذلـك يشـبه كـل دواء اسـتعمل في غـير محله، فإن ضرره أكثر من نفعه.

قال: أجل.. ولهذا، فإن تأمل الآيات الـتي ورد الاستشـفاء بهـا تدل على هذا المعنى..

تركنا الرجـل الأول، وانتقلنـا إلى الثـاني، وهـو المكلـف ببيـان التأثير الغيبي للعلاج بالقرآن الكريم، فسمعته يقول: لقد وضع اللـه تعالى في كلامه من الخواص ما يداوي العلل.

وقـد ورد في النصـوص مـا يـبين قـدرات القـرآن الكـريم العلاجية، لا مع الأمراض النفسية وحدها، بل مع الأمراض الجسـدية أيضا، ففي الحديث أن ناسـاً من أصـحاب النـبي ﷺ أتـوا على حي من أحياء العرب، فلم يقروهم فبينما هم كذلك إذ لدغ سيد أولئـك، فقـالوا: (هـل معكم من دواء أو راقٍ؟ فقـالوا إنكم لم تقرونـا ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلاً فجعلوا لهم قطيعاً من الشاء فجعل يقرأ بأم القرآن ويجمع بزاقه ويتفل، فبرأ، فأتوا بالشاء فقالوا: لا نأخـذه حتى نسأل النبي ﷺ فسألوه فضحك وقال: (ومـا أدراك أنهـا رقيـة خذوها واضربوا لي بسهم)(1)

وفي الحديث أنَّ النبي ﷺ كـان إذا اشـتكى يقـرأ على نفسـه بالمعوذات وينفث (2).

قلت: فهل كان لهذه القراءات تأثيرها العلاجي؟

قال: لا شك في ذلك.. وتأثيرها لا يزال يشهده الكثير.. بل قد وفقني الله تعالى، فأجريت(3) بحثاً قيماً حول تأثير القـرآن الكـريم في هذه الناحية، حيث أخذت ثلاث مجموعات من الناس، وهم من الأميركان الذين لا يتكلمـون اللغـة العربيـة ولا يفهمـوهـا، ووصـلتهم بالمقاييس الطبية الدقيقـة كقيـاس ضـغط الـدم، ونبضـات القلب، وتخطيط الدماغ، وتخطيط العضلات، وقياس درجة التعرق، وقرأت على المجموعـة الأولى آيـات من القـرآن الكـريم، وقـرأت على المجموعة الثانيـة كلامـا عاديـا باللغـة العربيـة، والمجموعـة الثالثـة

1) البخاري.
2) البخاري.
3) هو الدكتور أحمد القاوي في الولايات المتحدة الأميركية.

للسيطرة.

فوجـدت أن المتغـيرات الفسـلجية(1) عنـد المجموعـة الأولى التي قـرأت القـرآن الكـريم عليهـا، وارتفـاع ضـغط الـدم، وتقلص العضلات، وانتصاب الشـعر، والتعـرق، هـذه المؤشـرات –وظـائف الأعضاء الفسلجية- تحسنت كثـيراً للـذين سـمعوا القـرآن الكـريم، سماعا مجردا مع عدم فهم معناه، مقارنة بالمجموعات الأخرى.

وللتأكـــد من صـــحة هـــذا، نقلت المجموعـــات، فحصـــل للمجموعات الأخرى عندما سمعت القرآن الكريم نفس الاسـتجابة والتغيرات الإيجابية.

قال لـه بعض الحاضـرين: ولكن نـرى أن هنـاك من يسـتخدم الآيات القرآنية في هذا المجال، فيسيء الاستخدام.

قال: فماذا يفعلون؟

قال الرجل: أكثرهم لا يقـرأ القـرآن الكـريم لكونـه كلام اللـه يداوي بألفاظه ومعانيه، ولكن لجر من يتوهم أنه سبب العلة، وهـو الجني ـ في أكـثر الأحيـان ــ المسـتولي على ضـحيته الإنسـية إلى مسرحية تطول أو تقصر بحسب وقت الراقي المشعوذ.

قـال: دعـك من أولئـك.. فقـد شـغلهم الجن عن اللـه، وعن أنفسهم، وعن الرسالة التي كلفهم الله بأدائها.

قلت: ولكن ألا يحتمل أن يكون ما ذكروه صحيحا.. فقد يكون الإنسـان مصـابا بنـوع من المس أو السـحر أو العين أو غيرهـا من أعداء الغيب.

قال: ذلك ممكن.

قـال: وهـذا مـا يـدعوهم إلى بـذل الجهـد في التعـرف على الحالات المختلفة لعلاجها.

قال: وهذا ما أخطأوا فيه..

قلت: فما وجه الخطأ؟

قال: المعالجات القرآنية عامة، فلا نحتاج ـ لكف شـر السـحر أو العين أو إذية الشياطين ـ أن نشخص الداء كمـا تشـخص الأدواء الحسية.

قال أحدهم: أليس التشخيص مقدما على العلاج؟

قـال: أجـل.. ولكن هـذه الأدواء من الغيب الـذي لا نعلمـه، وليس لدينا وسائل العلم به، زيادة على أن هـذه الأدويـة الشـرعية شاملة، وتقضي على مثل هذه الأدواء عرفناها أو لم نعرفها.

---

1) أي وظائف الأعضاء.

فسورة الفلق مثلا تجمع أنواع الاستعاذات من العين والسحر وغيرها، وهي في ذلك تشبه دواء يقضي على مجموعة كبيرة من الأمراض، فإذا ما جهل متناوله مرضا من الأمراض، أولم يعلم كونه مصابا به، ثم تناول ذلك الدواء شفي منه بغض النظر عن علمه به أو جهله.

ولهذا من الأخطاء الكبيرة التي وقع فيها هؤلاء الرقاة المشعوذون ــ الذين ابتليت الأمة والدين بهم ــ هو احتكارهم لتشخيص هذه الأنواع من الأدواء، وكأن لديهم أجهزة خاصة تكشف هذه الأنواع من العلل.

قلت: ولكن العامة لا يقبلون منهم غير هذا.. بل إن العامي لا يثق بشفاء القرآن الكريم، إلا إذا أخبرته بأنه معان أو مسحور أو تنهشه أحياء الغيب التي لا يراها.

قال: ولكن هذا العامي لا يجسر عن سؤال الطبيب عن علته ليعرف كيف يتأقلم معها، بل يكتفي بتناول الدواء، ولكنه مع الراقي الذي عوده أن يطلعه على أعداء الغيب لا يسمح له، بل لا تعظم قيمة الراقي في عينه إلا إذا شخص له ذلك.

قلت: ولكن الراقي يتأيد بما يقول العلماء، وقد سمعت أحدهم يقول جوابا لمن سأله عن تشخيص المرض من قبل الراقي: (معلوم أن الراقي الذي تتكرر عليه الأحوال ويراجعه المصابون بالمس والسحر والعين ويعالج كل مرض بما يناسبه أنه مع كثرة الممارسة يعرف أنواع الأمراض النفسية أو أكثرها وذلك بالعلامات التي تتجلى مع التجارب، فيعرف المباشرة بتغير عينيه أو صفرة أو حمرة في جسده أو نحو ذلك، ولا تحصل هذه المعرفة لكل القراء وقد يدعي المعرفة ولا يوافق ذلك ما يقوله، لأنه يبني على الظن الغالب لا على اليقين)(1)

قال: لا ينبغي للعلماء أن يقولوا مثل هذا.. إنهم يفتحون بهذا أبوابا يصعب غلقها.

قال آخر: وقد سمعت بعضهم يحث المريض ــ لا إلى اللجوء إلى الله، ليرفع عنه بلاءه ـ وإنما للبحث عن الوسيط الخبير الذي له الحق وحده أن يقرع باب الله، ويعطي صكوك الشفاء للمبتلين، فقد قال: (قد تكون الأعراض مشتركة نتيجة لمعاناة المريض من جراء إصابته بأمراض الصرع والسحر والعين والحسد، بسبب

---

1) الفتاوى الذهبية في الرقية الشرعية – ص 20، 21، والمفتي هو الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين.

عامل مشترك واحـد نتيجـة اقـتران الأرواح الخبيثـة، وهـذا بالتـالي يحتاج للمعالِج الحاذق المتمرس ليقف على حقيقـة المعانـاة، ومن ثم يحدد الداء، ويصف الدواء النافع بإذن الله تعالى)

قال: فأين يجد هذا الحاذق المتمرس؟

قال الرجل: لعله يقصد نفسه، فقد ذكر بعد هـذا الكلام أنـواع الأعراض وصنفها كما تصـنف أعـراض الأمـراض الحسـية، وبجـرأة دونها جرأة الأطباء الخبراء.

فقـد ذكـر ــ مثلا ــ من أعـراض الاقـتران الكلي حـال إجـراء الرقيـة: (الإغمـاء وتشـنج الأعصـاب، والصـراخ الشـديد والبكـاء، وشخوص البصـر، وطـرف العينـان يمنة أو يسـرة، وانتفـاخ الأوداج والصدر واحمرار العينين بشكل غير طبيعي، والقـوة والقـدرة غـير الطبيعية وحركة غـير طبيعيـة وغالبـا مـا تكـون في منطقـة البطن وانتفاخ غير طبيعي في منطقة البطن، وضيقة شديدة في منطقــة الصدر، والقيء والاستفراغ، والاهتزاز والرجفـة الشـديدتان، وتغـير الصوت كليا في بعض الحالات، وإصدار أصوات غريبة)

ومن الطرق الفعالة ـ التي ذكرها ـ للكشف عن صرع الأرواح الخبيثة (المتابعة الخاصة بحركة العين)

وهــو ورع فلـذلك قـال: (ولا يجـوز النظـر في أعين النسـاء مطلقا، لكافة الأدلة الثابتة من الكتاب والسنة)

ولكنه مع ذلك يعطي البديل الذي يعبر عنـه بقولـه: (ولا بـأس بمتابعـة ذلـك عن طريـق أحـد المحـارم أو المـرافقين للمريضـة، وتدوين الملاحظات التي تعين المعالِج في قيامه بعمله دون الوقوع في الحرج والمخالفة الشرعية)

ثم يذكر الأعـراض الـتي تـدل عليهـا العين من شـؤون الجن، فيذكر الأعراض التالية: (ارتعاش.. عدم القدرة على التركيز.. تغـير في حجم بؤبؤ العين.. الاتجاه المعاكس في حركـة العيـنين.. إغلاق العينين بسرعة وبصورة متكررة.. الصـراخ أو البكـاء.. التنميـل في بعض الأطراف)

قال: فمن أي المصادر يقتبسون هذه المعاني؟

قال أحدهم: هم يسمون هذا النوع من الرقى (رقى شرعية)

قــال: ولكن الشــرعية في المصــطلح الشــرعي تســتدعي الرجوع للمصادر الأصلية، ففي أي مصدر من هـذه المصـادر توجـد هذه الأعراض، وتحدد نوع المس؟

قال آخر: بل إن قراءة بسيطة لما ذكروه من الأعراض، تـدل

على مدى الضياع الذي يعيشه هؤلاء، ويريدون من الأمـة أن تعيش معهم فيه، فمن أعراض المس السابقة (الصـدود عن المـذاكرة أو الدراسة أو العمل أو البيت أو الزوجة).. ولهذا إذا أتـاهم من يشـكو من هذه الأعراض لا يوجهونه إلى الاجتهـاد، ويحضـونه على حسـن الخلق مع أهله، وإنما يجتهدون في حرق الشياطين التي تسـكنه أو دعوتها إلى الإسلام، أما هو فبريء لا حساب عليه، وكيـف يحاسـب على عمل الجني الذي يستوطنه.

قال آخر: والأخطر من ذلك ما ذكروه من عرض (الصدود عن العبادات وعلى الأخص الصلاة وتلاوة القرآن) وهم يتفقون في هذا العرض، وهم بهذا يبرئون أبـا جهـل وغـيره من المشـركين، فلعـل بغضهم للقرآن الكريم والصلاة، لم يكن عمـدا، بـل كـان نوعـا من المس، ولو أن رسول اللـه ﷺ اكتفى بـرقيتهم وأحـرق شـياطينهم لأسـلموا وأحبـوا القـرآن الكـريم، وتهجـدوا مـع رسـول اللـه ﷺ، وهاجروا معه.

الاستعاذات الشرعية:

دخلنا القاعة الثانية، وقد كتب على بابها قوله تعالى: فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (غافر:56)

قلت: أهذه قاعة الاستعاذة من الشياطين؟

قـال: هـذه القاعـة تعلم فيهـا الاسـتعاذة بجميـع أنواعهـا.. والشياطين من أنواع المستعاذ منهم.

قلت: ولكن القرآن الكريم ذكر الاستعاذة من الشـياطين في مواضع منه، فالله تعـالى يقـول: وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَـزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ (لأعـراف:200)، وهـو يقـول: فَـإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (النحل: 98)، وهو يقول: وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُـوَ السَّـمِيعُ الْعَلِيمُ (فصلت:36)

قـال: لقـد ذكـر اللـه تعـالى أن الشـيطان من أخطـر أعـداء الإنسان، فلذلك وردت هذه النصوص في التشديد بالأمر بالاستعاذة منه.. ولكنهـا لا تعـني الحصـر.. فقـد ورد في النصـوص الكثـير من الاستعاذات، ألم تسمع قول موسى عليه السلام: أَعُـوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُـونَ مِنَ الْجَـاهِلِينَ (البقـرة:67)،وقـول نـوح عليه السلام: رَبِّ إِنِّي أَعُـوذُ بِـكَ أَنْ أَسْـأَلَكَ مَـا لَيْسَ لِي بِـهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِـرْ لِي وَتَـرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (هود:47)، وقول مريم ـ عليها السـلام ـ: إِنِّي أَعُـوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (مريم: 18).. ألم تسمع المعوذتين؟

قلت: بلى..

قال: ومثله النصوص الكثيرة.. وهي تملأ الصدر انشراحا، والقلب راحة.

قلت: ألهذه الاستعاذات تأثير نفسي على قائلها؟

قال: أجل.. زيادة على التأثير الغيبي.. فالكثير قد يحزن، ويمتلئ قلبه كآبة لأجل أمور بسيطة، كرؤيا يؤرقه تذكرها، ولهذا كان ﷺ يعلم أمته كيف تتحصن بحصن الله من الرؤى التي تخافها، قال ﷺ: (الرؤيا من الله والحلم من الشيطان فإذا رأى أحدكم شيئا يكرهه فلينفث حين يستيقظ ثلاث مرات ويتعوذ من شرها فإنها لا تضره)(1) قال أبو سلمة أحد رواة الحديث يبين أثر هذا الحديث في نفسه: (وإن كنت لأرى الرؤيا أثقل علي من الجبل فما هو إلا أن سمعت هذا الحديث فما أباليها)

وورد في حديث آخر، قوله ﷺ: (إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنما هي من الله، فليحمد الله عليها، وليحدث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان، فليستعذ من شرها، ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره)(2)

قلت: فلم نهاه عن ذكرها؟

قال: لما يحدثه ذكرها في نفسه من خوف، فيكفي التجاؤه إلى الله في حمايته من شرها، بخلاف التحديث بالرؤيا الصالحة فإن لها من التأثير المعنوي ما يدعو إلى روايتها.

بينما نحن كذلك إذ رأيت أقواما مجتمعين، كل منهم يلقن أخاه شيئا، فسألت المعلم عنهم، فقال: هؤلاء يذكر بعضهم لبعض أنواع الملاجئ التي تعلموها من رسول الله ﷺ، ورأوا تأثيرها في حياتهم.

اقتربت من بعضهم، فسمعته يقول لأخيه: لقد حرصت على كثرة الاستعاذة بـ: (أعوذُ بكلماتِ اللهِ التامَّاتِ مِن شرِّ ما خَلق) فوجدتها ـ مع قلة ألفاظها ـ واقية من كل سوء.

قال صاحبه: أما أنا.. فإني ـ كما تعلم ـ امرؤ لا تمتلئ نفسي بغير التفاصيل.. ليزيل كل ما أذكره وهما من الأوهام وسببا من أسباب الخوف.

قلت: فما تقول؟

قال: أقول إذا امتلأت نفسي بالمخاوف من الشياطين

---

1) ابن ماجة.
2) البخاري ومسلم.

والعيون: (أعوذ بكلمات الله التامة، من كـل شـيطان وهامـة، ومن كل عين لامة)

وأقول إذا امتلأت بغيرها: (أعوذ بكلمات الله التامـات الـتى لا يجاوزهن بر ولا فـاجر، من شـر مـا خلـق وذرأ وبـرأ، ومن شـر مـا ينزل من السماء، ومن شـر مـا يعـرج فيهـا، ومن شـر مـا ذرأ فى الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليـل والنهـار، ومن شر طوارق الليل، إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن ش

وقد أقول (اللهم إنى أعوذ بوجهك الكريم، وكلماتـك التامـات من شر ما أنت آخذ بناصـيته، اللهم أنت تكشـف المـأثم والمغـرم، اللهم إنه لا يهزم جندك، ولا يخلف وعدك، سبحانك وبحمدك)

اقتربت من آخر، فسمعته يلقن صاحبه: (أعـوذ بكلمـات اللـه التامة من غضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن همزات الشـياطين وأن يحضرون)

فـإذا انتهى لقنـه صـاحبه: (أعـوذ بوجـه اللـه العظيم الـذي لا شيء أعظم منه، وبكلماته التامات التي لا يجـاوزهن بـر ولا فـاجر، وأسماء الله الحسنى، ما علمت منها وما لم أعلم، من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر كل ذي شر لا أطيق شـره، ومن شـر كـل ذي شر أنت آخذ بناصيته، إن ربى على صراط مستقيم)

اقـتربت من آخـر، فسـمعته يقـول: (اللهم أنت ربى لا إلـه إلا أنت، عليك توكلت، وأنت رب العرش العظيم، مـا شـاء اللـه كـان، وما لم يشـأ لم يكن، لا حـول ولا قـوة إلا باللـه، أعلم أن اللـه على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علمـا، وأحصـى كـل شيء عددا، اللهم إني أعوذ بـك من شـر نفسـي، وشـر الشـيطان وشركه، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، إن ربى على صـراط مستقيم)

وسمعت صاحبه يقرأ بعدها: (تحصنت بالله الذى لا إله إلا هو، إلهى وإله كل شىء، واعتصـمت بـربى ورب كـل شـىء، وتـوكلت على الحى الـذى لا يمـوت، واسـتدفعت الشـر بلاحـول ولا قـوة إلا بالله، حسبى الله ونعم الوكيـل، حسـبى الـرب من العبـاد، حسـبى الخالق من المخلوق، حسبى الـرازق من المـرزوق، حسـبى الـذى هو حسبى، حسبى الذى بيده ملكوت كل شىء، وهو يجير ولا يجار عليـه، حسـبى اللـه وكفى، سـمع اللـه لمن دعـا، ليس وراء اللـه مرمى، حسبى الله لا إله إلا هـو، عليـه تـوكلت، وهـو رب العـرش العظيم)

تركنـاهم يلقن بعضـهم بعضـا، وانصـرفت إلى محـل آخـر، فوجدت شيخا وقورا قد اجتمع عليه نفر من الناس يسـألونه، فلمـا اقتربنا منه سمعته يقول: كما نهتم بتلقيح أنفسنا خوفا من كـل داء طارق، أو عدو مهاجم، فينبغي تلقيحهـا كـذلك، بـل من بـاب أولى، بهـذه الاسـتعاذات، فأعـداؤها مـتيقنون، وهم أكـثر خطـرا من كـل طاعون أو وباء.

قال أحدهم: إن قومنا قد وضعوا لنا مواقيت نلقح فيها أنفسنا من طوارق الجراثيم والفيروسات والأوبئة.

قال: وقد رتب لنا رسول اللـه ﷺ من المـواقيت مـا نلقح بـه أنفسنا من كل طوارق السوء.. لأن الأعداء يتربصون بالإنسـان في كل وقت، ولذلك وجب أخذ الحذر، وعدم إتاحة الفرصة.

قالوا: فما نحفظ به أنفسنا من طوارق النوم، فلا نرى إلا أنـه فرصة للشياطين والهوام وجميع أنواع الشرور؟

قال: لقد كان ﷺ إذا أراد النـوم يجمـع كفَّيْـهِ، ثم ينفُث فيهمـا، ويقرأ فيهما سـورة الإخلاص والفلـق والنـاس، ثم يمسـح بهمـا مـا استطاع من جسده، يبدأ بهمـا على رأسـه، ووجهـه، ومـا أقبـلَ مِنْ جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات.

وكأنه ﷺ يمسح بترياق هـذه السـور جميـع الآفـات الـتي قـد تخترق حصن الإنسان، أو يجعل منهـا تعويـذة لمنـع الشـياطين من التسرب لأي محل من هذا الجسم.

وكـان ﷺ يقـول إذا أوى إلى فراشـه: (اللهم رب السـماوات والأرض، ورب العرش العظيم، ربنـا ورب كـل شـيء، فـالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل، والفرقان، أعـوذ بـك من شـر كـل ذي شـر أنت آخـذ بناصـيته، أنت الأول فليس قبلـك شـيء، وأنت الآخر، فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن، فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر)

قالوا: فما نقول إذا خرجنا من بيوتنا.. فإنا نخشى على أنفسنا طوارق السوء؟

قال: كان ﷺ إذا خرج من بيته قال: (بسم اللـه، تـوكلت على الله، اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضـل، أو أزل أو أزل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل على)

وروي من تأثير هذه الاستعاذات قوله ﷺ: (من قـال إذا خـرج من بيته: بسم الله، تـوكلت على اللـه، ولا حـول ولا قـوة إلا باللـه، يقال له: هديت، وكفيت، ووقيت، وتنحى عنه الشيطان)

قـالوا: فمـا نقـول إذا دخلنـا الخلاء، فهـو محـل للشـياطين والقاذورات؟

قال: كان ﷺ إذا دخـل الخلاء، قـال: (اللهم إني أعـوذ بـك من الخبث والخبائث).. وكان يقول: (لا يعجـز أحـدكم إذا دخـل مرفقـه أن يقــول: اللهم إنى أعــوذ بــك من الــرجس النجس، الخــبيث المخبث، الشـيطان الـرجيم).. بـل كـان ﷺ يعلمنـا التعويـذة الـتي نستتر بها عن أعين الجن، فيقول: (ستر ما بين الجن وعورات بنى آدم إذا دخل أحدكم الكنيف أن يقول: بسم الله)

قال أحدهم: فكيف نستعيذ من الشر الذي قد يكون مخبأ بين ثنايا الجديد؟

قـال: لقـد كـان ﷺ يعلمنـا الاسـتعاذة من شـر كـل جديـد نستفيده، قال ﷺ: (إذا أفاد أحدكم دابة، فليأخذ بناصيتها، وليدع الله بالبركة، ويسمى الله عز وجـل، وليقـل: اللهم إنى أسـألك خيرهـا، وخير ما جبلت عليه، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلت عليه)

قال آخر: فما نقول إذ فزعنا؟

قـال: كـان ﷺ يعلم أصـحابه عنـد الفـزع أن يقولـوا: (أعـوذ بكلمات الله التامة من غضبه ومن شـر عبـاده، ومن شـر همـزات الشياطين، وأن يحضرون)

قال آخر: فما نقول إذا عزمنا على السـفر، فالسـفر والتنقـل محل للأخطار، حـتى أن المسـافر في العصـر الحـديث يحتـاج إلى أخذ بعض التلقيحات لتجنب آثار الأوبئة؟

قال: لقـد روي عنـه ﷺ الكثـير من الاسـتعاذت الـتي تحصـن المؤمن من مخاطر سفره، والأرض التي يريد أن ينزل فيها.

ومما يـروى في ذلـك أنـه ﷺ كـان يقـول في سـفره: (أنت الصاحب فى السفر، والخليفة في الأهـل، اللهم إني أعـوذ بـك من الضـبنة فى السـفر والكآبـة فى المنقلب، اللهم اقبض لنـا الأرض، وهون علينا السفر)

وكان يقـول: (اللهم إني أعـوذ بـك من وعثـاء السـفر، وكآبـة المنقلب، ومن الحور بعد الكور، ومن دعـوة المظلـوم، ومن سـوء المنظر في الأهل والمال)

وعلمنا أن نقول إذا نزلنـا محلا: (أعـوذ بكلمـات اللـه التامـات من شر ما خلق)

وأخبر عن تأثير ذلـك، فقـال: (من نـزل مـنزلا ثم قـال: أعـوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحـل

من منزله ذلك)

وكان ﷺ إذا أشرف على قرية يريد دخولها يقـول: (اللهم رب السـماوات السـبع ومـا أظللن، ورب الأرضـين السـبع ومـا أقللن، ورب الشياطين وما أضـللن، ورب الريـاح ومـا ذرين، أسـألك خـير هذه القرية وخير أهلها، وأعوذ بك من شرها، وشر أهلهـا وشـر مـا فيها)، وكان يقول: (اللهم إني أسألك من خير هذه القرية وخير مـا جمعت فيهـا، وأعـوذ بـك من شـرها وشـر مـا جمعت فيهـا، اللهم ارزقنا جناها، وأعـذنا من وباهـا، وحببنـا إلى أهلهـا، وحبب صـالحي أهلها إلينا)

وكان ﷺ إذا أدركه الليل في سفره، قال: (يا أرض ربى وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك، وشر ما خلق فيـك، وشـر ما دب عليك، أعوذ بالله من شر كل أسد وأسـود، وحيـة وعقـرب، ومن شر ساكن البلد، ومن شر والد، وما ولد)

قال آخـر: أمـا أنـا فمقيم لا أكـاد أبـرح داري.. وإنمـا مطيـتي الصباح والمساء، فما أقول فيهما؟

قـال: لقـد رويت الاسـتعاذات الكثـيرة في الصـباح والمسـاء، باعتبارهما بدايـة اليـوم ونهايتـه، وكـأن المـؤمن بتلـك الاسـتعاذات يحمي نفسه فترة يومه، كمـا تحمي التلقيحـات المختلفـة الإنسـان فترات مؤقتة.

ويشير إلى هذه الحقيقة قوله ﷺ في هـذه الاسـتعاذة: (اللهم أنت ربى، لا إله إلا أنت، عليك تـوكلت، وأنت رب العـرش العظيم، ما شاء اللـه كـان، ومـا لم يشـأ لم يكن، لا حـول ولا قـوة إلا باللـه العلى العظيم، أعلم أن اللـه على كـل شـيء قـدير، وأن اللـه قـد أحاط بكل شيء علما، اللهم إني أعوذ بك من شـر نفسـي، وشـر كل دابـة أنت آخـذ بناصـيتها، إن ربى على صـراط مسـتقيم): (من قالها في أول النهار لم تصبه مصيبة حتى يمسـي، ومن قالهـا آخـر النهار لم تصيبه مصيبة حتى يصبح)

قالوا: فعلمنا من هذه الاسـتعاذات مـا نسـأل اللـه أن يوفقنـا للمحافظة عليه.

قال: من الاستعاذات التي تقال في الصباح والمساء: (أصبحنا وأصبح الملك لله، والحمد لله، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شىء قـدير، رب أسـألك خـير مـا في هذا اليوم، وخير ما بعده، وأعوذ بك من شر هذا اليوم، وشر ما بعده، رب أعوذ بك من الكسـل، وسـوء الكـبر، رب أعـوذ بـك من

عذاب في النار، وعذاب القبر)[1]

ومنها (اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخـرة، اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى ديني ودنياي وأهلي ومـالي، اللهم اسـتر عوراتي، وآمن روعاتي، اللهم احفظـني من بين يـدي، ومن خلفي، وعن يمينى وعن شمالي، ومن فـوقى، وأعـوذ بعظمتـك أن أغتـال من تحتي)[2]

قال آخر: إني لا أرب لي في دنيـاكم الـتي تتنافسـون عليهـا.. وإنما كل حاجتي منها ركيعات وسجيدات أتقرب بها إلى ربي..

قال: فقد كان ﷺ لا يترك الاستعاذة حتى وهو في مناجاة ربـه وعبادته، فمن صيغ دعاء الاستفتاح: (الله أكبر، الله أكبر، الله أكـبر، الحمد لله كثيرا، الحمد لله كثيرا، الحمـد للـه كثـيرا، وسـبحان اللـه بكرة وأصيلا، سبحان الله بكرة وأصيلا، سبحان اللـه بكـرة وأصـيلا، اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه)

وكان ﷺ يدعو في صلاته قائلا: (اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعـوذ بـك من فتنـة المسـيح الـدجال، وأعـوذ بـك من فتـة المحيا والممات، اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم)

فإذا انصـرف من الصـلاة قـال: (اللهم أصـلح لي ديـني الـذي جعلته عصمة أمري، وأصلح لي دنيـاي الـتي جعلت فيهـا معاشـي، اللهم إني أعوذ برضـاك من سـخطك، وأعـوذ بعفـوك من نقمتـك، وأعوذ بك منك، لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفـع ذا الجد منك الجد)[3]

وفي الحج وفى الموقـف، كـان ﷺ يقـول: (اللهم لـك الحمـد كالذى نقول، وخيرا مما نقول، اللهم لك صلاتى ونسكى، ومحيـاى، ومماتى، وإليـك مـآبى، ولـك ربى تـراثى، اللهم إنى أعـوذ بـك من عذاب القبر، ووسوسة الصدر، وشتات الأمـر، اللهم إنى أعـوذ بـك من شر ما تجئ به الريح)[4]

وكـان ﷺ إذا دخـل المسـجد يقـول: (أعـوذ باللـه العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم)، وأخبر ﷺ عن تأثير هذه الاستعاذة فقال: (فإذا قال ذلك قال الشيطان: حفظ منى سائر اليوم)[5]

---

1) مسلم، وآخر الحديث:(وإذَا أمْسَى قَالَ: أمْسَيْنَا وَأَمْسَى المُلْكُ لِلَّهِ..)
2) صححه الحاكم
3) أبو حاتم في صحيحه.
4) الترمذى.
5) أبو داود

وكان ﷺ يستعيذ بالله من الشيطان الـرجيم فى أول قراءتـه، فيقول: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، وربما كان يقول: (اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه، ونفثه)

وكان يخبر أن سيد الاستغفار أن يقول المستغفر: (اللهم أنت ربى، لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعـدك مـا استطعت، أعوذ بـك من شـر مـا صـنعت، أبـوء لـك بنعمتـك على، وأبوء بذنبي، فاغفر لي إنه لا يغفر الـذنوب إلا أنت، من قالهـا حين يصـبح موقنـا بهـا فمـات من يومـه، دخـل الجنـة، ومن قالهـا حين يمسى موقنا بها، فمات من ليلته، دخل الجنة)

الرقى الشرعية:

انتقلنـا إلى القاعــة الثالثـة، وهي القاعــة المختصــة بـالرقى الشـرعية، وقـد كتب على بابهـا قولـه ﷺ: (لا رقيـة إلا من عين، أو حمة)(1)

فسألت المعلم عن سر وضع هذا النص هنا، فقـال: لقـد رأى أهل هـذا المستشـفى مبالغـة قومـك في شـأن الـرقى وتعميمهـا، وعدم التفريق بينها وبين الاستعاذات الشرعية، فلـذلك جعلـوا هـذا الحديث شعارا لهذا الملجأ من الملاجئ الإلهية.

قلت: لكن هـذا الحـديث يحصـر الـرقى في أشـياء محـدودة جدا.. وقد ورد في النصوص ما يشير إلى أن الرقى غير محصــورة في هذين الجانبين.

أشار إلى رجل في القاعة يقلب دفـاتر بين يديـه، فقلت: من هذا؟

قال: هذا رجل من المتكلمين آتاه الله فهما، وهو يشـرح هـذا النص ويرد على ما يجادل فيـه.. فـإن كـان لـك شـيء من الجـدل فاقترب منه واطرح عليه ما تشاء.

اقتربت منه، فواجهني بقوله: مثل ماذا؟

قلت: ما تقصد؟

قال: إن سيما وجهك تخبرني بأنك ترى عـدم انحصـار الرقيـة فيما أخبر به ﷺ من العين والحمة.

قلت: أجل.

قال: مثل ماذا !؟

قلت: مثل ما روي عن سهل بن حُنَيـفٍ، قـال: مررْنـا بَسـيْلٍ، فدخلتُ، فاغتسلتُ فيه، فخرجتُ محموماً، فنُمِيَ ذلـك إلى رسـولِ

---

1) أبو داود

اللـه ﷺ، فقـال: (مُـرُوا أبـا ثـابتٍ يَتَعَـوَّذُ)، قـال: فقلتُ: يـا سـيدى؛ والرُّقَى صالحة؟ فقال: (لا رُقيةَ إلا فى نَفْسٍ، أو حُمَةٍ، أو لَدْغَةٍ)(1).. فقد ذكر ﷺ شيئا آخر غير ما ذكر الحديث السابق.

قال: ولكنه ذكرها بصيغة الحصر.. ثم إنـه ﷺ أمـر في الأصـل بالاستعاذة، ولم يكن حديثه عن الرقية إلا إجابة عن سـؤال سـألوه عنه ولا علاقة له بما حصل لسهل..

قاطعنـا آخـر، وقـال: أنـا لغـوي من اللـه علي بعلم غـريب النصوص، وسأشرح لكم من ألفاظه ما يبين توافـق الحـديثين، أمـا العين فمعروفـة، ويقابلهـا في الحـديث الثـاني النَّفْس: وهي العَيْن، يقال: أصابت فلاناً نفسٌ، أى: عَيْن. والنافِس: العائن.

أما الحُمَةُ، فهي ذوات السُّموم كلهـا، كمـا قـال ثعلب وغـيره: هي سم العقرب وقال القزاز: قيل هي شوكة العقـرب وكـذا قـال بن سـيده أنهـا الابـرة الـتي تضـرب بهـا العقـرب والزنبـور، وقـال الخطابي: الحمة كل هامة ذات سم من حية أو عقرب.

ولهـذا فلا تعـارض بين هـذا الحـديث والحـديث السـابق، لأن الحمة أعم من اللدغة، فبالتالي دخلت اللدغة فيها، والمقصود منها الأمراض التي يرجع سببها للسموم.

وإلى هذا أشار ابن حجر، فقد قال بعد إيراد الحديثين: (فغـاير بينهما فيحتمل أن يخرج على أن الحمة خاصة بالعقرب فيكون ذكر اللدغة بعدها من العام بعد الخاص)

قلت: ولكن ابن القيم وغيره أجابوا على هذا التعارض بأنه ﷺ لم يُرِدْ به نفىَ جواز الرُّقية فى غيرها، بل المرادُ به: (لا رُقيــة أولى وأنفعُ منها فى العَيْن والحُمَة)

قال: هذا تأويل للحـديث، والأصـل الأخـذ بمـا جـاء في ظـاهر النص، خاصة مع يسر الجمع بينهما.

قلت: ولكن ورد في حـديث ثـالث، قولـه ﷺ: (لا رُقْيَـةَ إلا مِن عَيْنٍ، أو حُمَةٍ، أو دَمٍ لا يَرْقأ)(2)، فقد أضاف في هـذا الحـديث الـدم الذي لا يرقأ، وهو الدم الذي لا ينقطع.

قال: هذا يستدعي البحث عن سر عدم انقطـاع الـدم، ولعـل له علاقة بالسموم، فيجمع بذلك بين هـذا الحـديث ومـا سـبقه من الأحاديث.

قلت: وقد ورد في حديث رابع عن أنس قال: (رخَّص رسـولُ

---

1) أبو داود.
2) أبو داود.

اللهِ ﷺ فى الرُّقية من العَيْن والحُمَةِ والنَّمْلَـةِ)[1].. فقـد أضـاف في هذا الحديث النملة، وقرنها بالعين.

قـال اللغـوي: النَّمْلَـة: قُـروح تخـرج فى الجنـبين، وهـو داء معروف، ولعل له علاقة بذوات السموم، فيجتمع مع ما سبق.

قلت: وقد ورد في حديث خامس: (رخَّص رسولُ اللـهِ ﷺ فى الرُّقْيَة من الحيَّةِ والعقرب)[2]

قال: الحية والعقرب تدخل في ذوات السموم.

قلت:.. !؟

قال: أليس لديك غيرها؟

قلت: هذا ما أحفظه منها.

قـال: فهـذه الأحـاديث جميعـا تـدل على انحصـار الرقيـة في محال معينة لا تتجاوزها.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد وردت هذه النصوص بصيغ الحصر، ومـع أنهـا وردت بصيغ مختلفـة إلا أن التقـارب بينهـا يسـير، فهي عمومـا تـدل على العين، وهي محل اتفاق بين النصـوص جميعـا، والأمـراض الناشـئة بسبب السموم.

قلت: لقد وضحت لي هذا.

قال: زيادة على هذا، فقد عبر الصحابة عن وقوع الرقيــة في عهد النبي ﷺ بصيغة الترخيص، والرخصة ـ كما تدل عليهـا نصـوص الشريعة مقدرة بقدرها ـ فقد قال تعالى: فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَـاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ (البقرة:173)

زيـادة على ذلـك، فـإن هـذا يـدل على أن الأصـل في الرقيـة النهي، وهو مـا ثبت في أحـاديث كثـيرة، منهـا قولـه ﷺ: (اعرضـوا علي رقاكم)، أي لأنظر مدى شرعيتها.

قلت: فما السر الذي تراه لهذا الترخيص؟

قال: السر في هذا هو أن الرسول ﷺ وجـد الرقيـة منتشـرة في المجتمعـات الجاهليـة، ووجـدها مختلطـة بين اسـتعمال أدويـة طبيعية، وأخرى مما يمكن تسميته روحانية.

ولم يكن ﷺ ليحرمها باعتبارها من التجـارب الـتي ربمـا أثبتت بعض فاعليتها، فلـذلك رغب في تركهـا أولا سـدا لذريعـة الشـرك، فلما انتفت قيدها بالقيود الشرعية، وهي حصرها في أحوال معينــة

---

1) مسلم.
2) ابن ماجه.

وبأساليب خاصة لا تتجاوزها.

قلت: أهي بذلك تشبه ما يجرب من الأدوية مما يسمى بالطب البديل حيث أن هناك طرقا كثيرة قد يتوهم تلبسها بالشعوذة مع تأكد صلاحيتها في شفاء العلل؟

قال: أجل.. هذا صحيح.. وهو مثال جيد.

قلت: ورقية المس؟

قال: بدعة.. فلم يرد نص واحد بجواز الرقية فيها، فلم يرد في جميع الأحاديث أن النبي ﷺ أتي بمصروع فرقاه، وأخرج الجن منه كما يفعل الرقاة الآن.

قلت: فما تقول في النصوص الكثيرة التي وردت فيها الاستعاذات والأدعية المختلفة، وهي في النصوص الصحيحة الصريحة؟

قال: إن اصطلاح الرقية في الشرع خاص بنواح محددة، وهي ما نصت عليه النصوص من مجالات وكيفيات، أما ما عداها فهو من الاستعاذات والأدعية، وليس من الرقية، ويدل لذلك ما ورد في حديث أبي سعيد قال: (كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذات فأخذ بها وترك ما سواها)(1)

قلت: فما فائدة التفريق بين الرقية والاستعاذات والأدعية؟

قال: الرقية رخصة، والأدعية مسنونة مستحبة، والقول بهذا ينفي التعارض الذي يبدو في حال ما لو سوينا بينهما.

ذلك أن الكثير من النصوص تذكر أنواع الاستعاذات والأدعية التي يدعو بها المريض ربه، وهي ترغب في ذلك، وتستحبه بدليل ما فيها من المعاني.

بينما لا نجد في الرقية أي نص يدل على الاستحباب، بل قد ورد استحباب ترك الرقية في محال معينة، وقد قال ﷺ في السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب: ((هم الذين لا يرقون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون)

فلم يذكر ﷺ تركهم الاستعاذة، وإنما ذكر تركهم للرقى، ولهذا فمن اكتفى بالاستعاذة من العين، واكتفى من ذوات السموم باستعمال العلاج واللجوء إلى الله كان ذلك كافيا له.

قلت: ولكن العلماء أجابوا على ما يبدو من تعارض بين النهي عن الرقية أو بيان كون الكمال في تركها، وبين ثبوت النصوص الكثيرة الدالة على طرق الدعاء للمريض بإجابات كثيرة كما قال

---

1) الترمذي وحسنه والنسائي

النووي: (فقد يظن مخالفاً لهـذه الأحـاديث ولا مخالفـة بـل المـدح في ترك الرقى المراد بها الرقى التي هي من كلام الكفار والـرقى المجهولة والتي بغير العربية ومـا لا يعـرف معناهـا فهـذه مذمومـة لاحتمال أن معناها كفر أو قريب منه أو مكروه، وأما الـرقي بآيـات القرآن وبالأذكار المعروفة فلا نهي فيه بل هو سنة، ومنهم من قال في الجمع بين الحديثين أن المدح في ترك الرقى للأفضـلية وبيـان التوكل والذي فعـل الـرقى وأذن فيهـا لبيـان الجـواز مـع أن تركهـا أفضل)

قـال: وأفضـل من ذلـك لـو حصـروا الرقيـة فيمـا حصـر من النصوص، وفرقوا بين الاستعاذة والرقية.

قلت: فما كيفية الرقية، وما مدى حرية الاجتهاد فيها؟

قال: من خلال استقراء النصوص نرى طرقا معينة في الرقى المرتبطـة بـالعين أو المرتبطـة بعلاج ذوات السـموم، وهي طـرق منها ما هو منبن على الأعـراف الجاهليـة، وأقـره رسـول اللـه ﷺ، ومنها مـا شـرع أساسـا.. وبـذلك فـإن كيفيـات الـرقى توقيفيـة، لا تختلف عن سائر التوقيفـات بـدليل الحـديث المعـروف: (اعرضـوا علي رقاكم)

قلت له: ولكن الرقاة يستدلون عـادة بهـذا الحـديث على مـا يفعلونه ويخترعونه.

قال: فما وجه استدلالهم؟

قلت: وجهه أن النبي ﷺ أقر بعض الرقى.

قال: وهل نسوا أن النبي ﷺ أمر بعرضها عليه ليقرهـا، فلمن يعرضوها حتى تعتبر رقية؟

قلت: يعرضوها على قواعد الدين وأصـوله، أو يقيسـوها على ما ورد في النصوص من الرقى.

قـال: لـو كـان الأمـر خاضـعا للقيـاس لـبين العلـة، وتـركهم يقيسون دون أن يطلب منهم عرض آحاد القضايا عليه.

ولكن الرقية شيء مختلـف.. إنهـا دواء، هي مثـل أي اخـتراع لـدواء، فإنـه يحتـاج إلى عرضـه على هيئـات مختصـة لـترى مـدى فاعليته، وبما أن تأثير الرقية غيـبي، فيحتـاج فيهـا إلى معصـوم لـه علاقة بهذا العالم، وليس ذلك إلا رسول الله ﷺ.

قلت: فأورد لي كيفية الرقية من خلال النصوص.

قال: بما أن مجالات الرقية محددة بما سـبق بيانـه، فسـأورد لك النصوص الدالة على تلك الكيفيات التي لا يحل تجاوزهـا، وأورد

معها ـ من باب النصيحة للأمة ــ بعض الأخطاء في هذا المجال، ولولا أن المصيبة بها عامة، لما اشتغلت بذكرها والتنبيه عليها.

قلت: فلنبدأ بالعين.

قال: لقد رأينا أنواع الرقى والاستعاذات المرتبطة بها.

قلت: فلم تبق إلا الأمراض السمية.. فما هي؟.. وما كيفية الرقية فيها؟

قال: الأمراض السمية هي الأمراض التي وردت النصوص بجواز الرقية فيها، ولعله يدخل فيها كل الأمراض التي تسببها الجراثيم وغيرها، باعتبارها من أنواع التسممات.

قلت: فما كيفية الرقية فيها؟

قال: لقد ورد في النصوص بعض أنواع الرقى في هذا الجانب، منها الاسشفاء بالقرآن الكريم ممزوجا بالنفث على موضع الداء، وهو الرقية الأولى، وقد ورد فيها هذا النص، فعن أبى سعيد الخدرى، قال: انطلق نفر من أصحاب النبى ﷺ فى سفرة سافروها حتى نزلوا على حى من أحياء العرب، فاستضافوهم، فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحى، فسعوا له بكل شىء لا ينفعه شىء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعلهم أن يكون عند بعضهم شىء. فأتوهم، فقالوا: يا أيها الرهط؛ إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شىء لا ينفعه، فهل عند أحد منكم من شىء؟ فقال بعضهم: نعم والله إنى لأرقى، ولكن استضفناكم، فلم تضيفونا، فما أنا براق حتى تجعلوا لنا جعلا، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه، ويقرأ: الحمد لله رب العالمين ، فكأنما أنشط من عقال، فانطلق يمشى وما به قلبة، قال: فأوفوهم جعلهم الذى صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقتسموا، فقال الذى رقى: لا تفعلوا حتى نأتى رسول الله ﷺ، فنذكر له الذى كان، فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله ﷺ، فذكروا له ذلك، فقال: (وما يدريك أنها رقية؟)، ثم قال: (قد أصبتم، اقسموا واضربوا لى معكم سهما)

قلت: لقد قرأ عليه القرآن الكريم، فكيف اعتبر هذا رقية؟

قال: السر في اعتبارها رقية هو جمع الراقي بين القراءة والنفث عليه.

قلت: لقد ذكر ابن القيم السر في تأثير هذا النوع من الرقية، فقال: (وقد جعل الله سبحانه لكل داء دواء، ولكل شيء ضدا، ونفس الراقي تفعل في نفس المرقى، فيقع بين نفسيهما فعل

وانفعال، كما يقع بين الداء والدواء، فتقوى نفس الراقي وقوته بالرقية على ذلك الداء، فيدفعه بإذن الله، ومدار تأثير الأدوية والأدواء على الفعل والانفعال، وهو كما يقع بين الداء والدواء الطبيعيين، يقع بين الداء والدواء الروحانيين، والروحاني، والطبيعي، وفى النفث والتفل استعانة بتلك الرطوبة والهواء، والنفس المباشر للرقية، والذكر والدعاء، فإن الرقية تخرج من قلب الراقي وفمه، فإذا صاحبها شيء من أجزاء باطنه من الريق والهواء والنفس، كانت أتم تأثيرا، وأقوى فعلا ونفوذا، ويحصل بالازدواج بينهما كيفية مؤثرة شبيهة بالكيفية الحادثة عند تركيب الأدوية.

وبالجملة.. فنفس الراقي تقابل تلك النفوس الخبيثة، وتزيد بكيفية نفسه، وتستعين بالرقية وبالنفث على إزالة ذلك الأثر، وكلما كانت كيفية نفس الراقي أقوى، كانت الرقية أتم، واستعانته بنفثه كاستعانة تلك النفوس الرديئة بلسعها)

وذكر حكمة أخرى، فقال: (وفى النفث سر آخر، فإنه مما تستعين به الأرواح الطيبة والخبيثة، ولهذا تفعله السحرة كما يفعله أهل الإيمان. قال تعالى: ومن شر النفاثات فى العقد، وذلك لأن النفس تتكيف بكيفية الغضب والمحاربة، وترسل أنفاسها سهاما لها، وتمدها بالنفث والتفل الذى معه شيء من الريق مصاحب لكيفية مؤثرة، والسواحر تستعين بالنفث استعانة بينة، وإن لم تتصل بجسم المسحور، بل تنفث على العقدة وتعقدها، وتتكلم بالسحر، فيعمل ذلك في المسحور بتوسط الأرواح السفلية الخبيثة، فتقابلها الروح الزكية الطيبة بكيفية الدفع والتكلم بالرقية، وتستعين بالنفث، فأيهما قوى كان الحكم له، ومقابلة الأرواح بعضها لبعض، ومحاربتها وآلتها من جنس مقابلة الأجسام، ومحاربتها وآلتها سواء، بل الأصل فى المحاربة والتقابل للأرواح والأجسام آلتها وجندها، ولكن من غلب عليه الحس لا يشعر بتأثيرات الأرواح وأفعالها وانفعالاتها لاستيلاء سلطان الحس عليه، وبعده من عالم الأرواح، وأحكامها، وأفعالها.

والمقصود.. أن الروح إذا كانت قوية وتكيفت بمعاني الفاتحة، واستعانت بالنفث والتفل، قابلت ذلك الأثر الذي حصل من النفوس الخبيثة، فأزالته)

قال: هذا كلام جميل.. ولكنه خطير.

قلت: لم؟.. وما هذا التناقض !؟

قال: هذا التحليـل قـد يقبـل، ويعجب بعبقريـة صـاحبه، ولكن الخطر ليس فيـه، وإنمـا في اعتبـار مـا ذكـره علـة يمكن القيـاس عليها، وهو مـا حصـل بين الرقـاة، حيث أدرجـوا في رقـاهم أمـورا كثيرة، فلم يبق للنفث عندهم قيمة، أو أن النفث صنعة قديمة.

قلت: صـدقت.. فقـد رأيت مهندسـا غـرق في بحـار الرقيـة، فاخترع كرسيا عجيبا لهـا، وكتب في فضـائله كتبـا، وسـر اختراعـه يكمن في إيصال موجات القرآن الكريم إلى الدم مباشرة من غـير وسيط.

قال: فمن أين تلقى هذا الكرسي العجيب؟

قلت: لقد وهب له من الغيب.

قال: أنبي هو أم ولي؟

قلت: هو لا يزعم كليهما.

قال: فهو دعي إذن.. ارموا به مع كرسيه عرض الحائط.

الخاتمة

لست أدري كيف خرجت من مستشفى السلام، ولا كيف التقيت بمعلمي معلم السلام.. فقد رأيت نفسي فجأة في بيتي وعلى فراشي الذي كنت أتكئ عليه، والذي لم يتحرك طرف منه طيلة فترة غيابي.

قال لي معلم السلام، وهو يبتسم: أتدري ما أصل هذا المستشفى الذي رحلنا إليه في هذا الدرس من دروس السلام؟

قلت: لا.. وكم أود أن أعرف؟.. ولكني أخشى أن يكون سؤالي فضولا.

قال: أصل هذا المستشفى مؤسس على نفحة من نفحات الإيمان.. خرجت مع قول الخليل ﷺ ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (الشعراء:80).. فسارعت بذرة لزهرة جميلة، فتعلقت بها، فعبق من عطر نفحة الإيمان، وبذرة الزهرة هذا المستشفى.

قلت: أزهرة هذا المستشفى الذي كنا فيه لم تبن كما يبنى البنيان؟

قال: لا.. عوالم السلام لا تعرف الخراسانات المسلحة التي تعرفونها.

قلت: ولكنها آية في الحسن والجمال.

قال: إن أقل زهرة في الكون، بل أقل شيء في الكون يفوق كل ما تعبدونه من عمران.

قلت: من سقى تلك الزهرة حتى نمت هذا النمو العجيب؟

قال: تلك الابتسامات العذبة التي ترسلها أفواه أنات الصالحين.

قلت: فمن عمرها بالأطباء والعلماء والخبراء؟

قال: أريجها العطر هو بطاقة الدعوة التي يرسلها لهم.

قلت: وجواز السفر؟

قال: إرادة السلام وحب السلام هو جوازهم.

قلت: فأين توجد؟.. لعلي أدعو قومي لزيارتها..

قال: هي في..

قلت: بالله عليك ـ يا معلم ـ لا تنطق بمكان وجودها، فإني أخاف أن يقتلعها قومي ليزينوا بها قصور ملوكهم.. أو أخاف أن تمتد إليها أيديهم الآثمة، فيحولوها أشواكا كشوك السعدان.. أو أخاف على أهل تلك الأرض التي توجد فيها أن يغزوا في عقر

دارهم ليجلوا عن أرضهم.. فتصير زهرتهم سبب شقائهم.. كما صار الذهب الأسود سبب تعاستنا.

***

في تلك الليلة أصابتني حمى شديدة.. ارتعدت لها فرائصي.. وتقطعت أوصالي.. فبت أسبح في مياه آلامي.. كانت الأنة تريد أن تفلت من لساني.. فتتداركها ابتسامتي لتملأ صدري انشراحا.

عجب أهلي من حالي.. وظنوا الابتسامة التي امتلأ بها ثغري نوعا من المس الذي يصيب المحمومين، فسارعوا بالرقاة ليقتلعوا آثار جنوني.. ضحكت منهم.. فازداد شكهم.

جاءني تلك الليلة أربعة رقاة ليقتلعوا الابتسامة التي امتلأ بها ثغري، أما الأول فكان قارئا متقنا، وأما الثاني، فكان وسيطا ملهما، وأما الثالث، فقد كان يحمل ورقة وقلما ليكتب كل ما يقال، وأما الرابع فكان مدير أعمالهم الذي يقبض الأموال ويعدها، ولا يسمح لهم بمزاولة عملهم إلا بعد امتلاء جيوبه منها.

بدأ القارئ يقرأ، فغمرني الخشوع لقراءته، فأصابني ما يصيب الخاشعين من انكسار، فصاح الوسيط في القارئ:(أعد.. أعد.. أعد ما كنت تقرأ) فعاود القراءة، فأصابني ما أصابني أولا.. فقال: هذا انكسار خطير حصل له.. أعرفه، إنه من جن..!؟)

ثم سألني كما يسأل المحققون، والعصا في يده، وهو يهم بضربي: من أي الجن أنت؟

قلت: لست من الجن.. أنا إنسي، أبي إنسي، وأمي إنسية، ولا أعلم أن أحدهما تزوج من قبائل الجن.

قال: لا تتهرب.. أعرفكم معشر الجن.. تخادعون وتحتالون.. ألم تخلقوا من نار؟

قلت: لا.. أنا خلقت من طين.. أنا من طينة أبيكم آدم.. جدي هو آدم.. لا إبليس.

قال: ما أكذبكم معشر الجن.. لا تكفون عن الاحتيال والكذب.. ولكني أعرف الطريقة التي أتعامل بها معكم.

نادى في أهلي: ائتوني بكأس من الملح الخالص الذي يحرق الكبد.. فإن هذا الجن لا يخيفه شيء كما يخيفه الملح.

صحت: أتوسل إليك.. أنا إنسي.. فلا تسقني ملحا.

قال: أرأيتم.. هو جني.. وإلا فأنبئوني كيف يخاف من الملح؟

قلت: أنا لا أخافه.. ولكني أحبه في الطعام لا في الماء.

قال: ستشرب منه إلى أن تحترق كبدك.

دعا أصحابه، وأخذ الكأس يغرغر لي منها بشدة ملحا خالصا مبللا ببعض الماء، وأهلي ينظرون متأسفين لحالي، ولهذه العفاريت التي تسيمني العذاب.

بعد أن شربت من ملحهم ما لو وزعته على أيام حياتي لفاقها صاح في الراقي، وقد رأى مبلغ الجهد الذي صرت إليه: هل تقر من أنت، أم نتخذ وسيلة أخرى؟

قلت: ما هي؟

قال: هذه العصا، ستنكسر على عنقك.

قلت: ارحموني.. أنا إنسي..

ضحك الجميع، وقالوا: أنت تتحدانا.. لقد رأينا كثيرا من أمثالك.. بل كل من رأيناهم لا يختلفون عنك.. ولكنا سنؤدبك كما أدبنا الكل.. فلا ينبغي لذرية إبليس أن تغلب ذرية آدم.

صحت: ارحموني.. والله.. لست إلا أنا..

ابتسموا، وقالوا: هاهو أخيرا بدأ يعترف.

صحت: بم أعترف؟.. لقد قلت لكم: أنا هو أنا.

قالوا: فإذن أنت لن تسمع إلا للعصا..

لم أكن أتصور أنهم سينفذون تهديدهم.. ولكني فوجئت بالعصا تنهال علي.. ولا تترك موضعا إلا وتصيبه بآلامها إلى أن فقدت وعيي..

عندما استفقت في الصباح على آثار تلك الآلام التي خلفتها ابتسامتي فوجئت بنفسي بجنب أولئك الرقاة الأربعة، والناس يدخلون يسلمون علي، ويباركون لي الشفاء والتخلص من الجن الذي كان يستعمرني، وينحنون مقبلين أيدي الرقاة الذين كانوا جنود المعركة.

قال الأول، وهو يخاطب الجماهير المجتمعة: لم يكن جنيا واحدا.. بل كانوا على الأقل سبعة أو ثمانية.

وقال الثاني: ليتههم كانوا من الجن.. بل كانوا من العفاريت الطيارة.. لا يستسلمون أبدا.

وقال الثالث: لولا العصا ما استسلموا.. بورك في عصاك يا موسى.

كنت محتارا فيما حصل، إلا أن رابع الرقاة وكاتبهم جاءني بجريدة، وقد صورت عليها صورتي، وفيها أخبار ما حصل لي، فعجبت، وقلت له: أعرف الناس مستشفى السلام؟

قال: عن أي مستشفى تتحدث؟.. أنا صحفي أعمل بهذه

الجريـدة، وقـد نلت اليـوم مكافـأة بسـببك، وبسـبب هـذا السـبق الصـحفي.. فقـد اسـتطعت أن أسـجل كـل مـا دار بين من كـان يستعمرك من الجن، وهـؤلاء الرقـاة.. أبشـر يـا رجـل.. فـأنت الآن أشهر من نار على علم.

قلت: فـادفع لي بعض مـا صـرف لـك من مكافـأة بسـببي أستعين به على بعض ما أصابني.

قال: لا.. أنا لم آتك لأعطيك.. بل أتيتك لتعطيني.

قلت: ما أعطيك؟

قال: لقد قبض أصحابي أموالهم من أهلك، ولم يقسموا لي.

قلت: أقبضوا أموالهم من أهلي!؟.. إذن تركوني فقيرا.

قال: للأسف لم يكن لأهلـك من المـال مـا يكفي، فاقترضـوا من الجيران ما سدد بعض تكاليف الرقية.

قلت، وقد امتلأت انقباضا: وما فعلوا حتى يسـتحقوا كـل هـذا الأجر؟

قال: ألا تعلم يا رجل أنهم خلصوك من سـبع مسـتعمرين من الجن!؟

قلت: فما تطلب أنت؟

قال: حقي من المال.. فإنه لم يقسم لي.

قلت: وما فعلت أنت؟ لقد ذكرت أنك لم تخـرج الجن معهم.. وذكرت أنك نلت مكافأتك.

قال: ولكني نشرت صورتك واسـمك.. ألا يكفي هـذا لتنيلـني أجري؟

قلت: أقـرنت اسـمي مـع اسـم الجن، ثم تريـد أن أعطيـك أجرا!؟

لاحـظ بعضـهم مـا جـري بيننـا من نقـاش، فقـال: مـا الـذي يحصل؟

قعـد بي المـرض عن شـرح مـا حصـل.. فسـبقني يخـبر بمـا حصل لي.. فقال الحكيم الذي أراد أن يصلح بيننـا: أعطـه حقـه يـا رجل.. ولا تكن بخيلا.. فلولاهم لكنت الآن في عوالم..!؟

كاد عقلي يفلت مني.. ولـولا رحمـة اللـه لي بمـا تعلمتـه من دروس السـلام لواجهتـه بمـا يقضـي على عمـري وعمـره، لكـني سكنت، وقلت: صدقت.. لقد خدمتني خدمة لن أنساها لك، ولكني لن أعطيك مالا، فالمال عرض زائل، وهو أقل من أن يفي بحقـك.. ولهذا سأجعل اسمك، واسم أصحابك من الرقاة، بل اسم كـل من

امتهن هذه المهنـة الشـريفة أشـهر من نـار على علم.. أليس هـذا عدلا؟

نطقت الجماعة مكبرين: أجل.. هذا هو العدل.. هذا هو العدل بعينه.. انظروا حكمة الرجل بعد أن فارقته عفاريته!!

***

في ذلك المساء، وبعد أن سكنت نفسي من هول ما أصابني جاءني معلم السلام، وقال: ما فعلت مع أنينك أمس؟

قلت: وكيف عرفت ذلك؟

قال: ما أكثر نسيانك، أنا معك لا أفارقك، فخـبرني، مـا فعلت أمس مع أنينك؟

قلت: ابتسمت، أول مرة أبتسم فيها من كل قلبي، وأول مرة تتحول آهاتي بسمات وفرحة.. ولكن أنت أدرى بما أصابني بسببها.

قـال: لا عليـك.. لقـد تعلمت أول درس من دروس السـلام، فانشر هذه الرسالة بين الناس لينتفعوا بها.

قلت: إذن يرجموني.

قال: لم؟

قلت: يقولون: مدع للنبوة، أو يزعم أنه ملهم، فمن أنت حـتى أتقي أذاهم؟

قال: قل لهم:(واعظ)

قلت: أي واعظ، إمام أي مسجد أنت؟

قال: إمام مساجد القلوب.

قلت: وهل للقلوب مساجد؟

قال: ليست المساجد إلا في القلوب.

قلت: أريد خبر معصوم ينـبئ عنـك لأتقي مـا قـد يرمينـي بـه قومي من الحجارة.

قال: اقـرأ عليهم قولـه ﷺ:(إذا أراد اللـه تعـالى بعبـد خـيرا جعل له واعظا من نفسه يأمره وينهاه)(1) فأنا ذلك الواعظ.

قلت: فإن قالوا: الحديث ضعيف، فما عساي أقول لهم؟

قال: قل لهم: هو السلام، فإنه لا يعلم السلام إلا السلام.

قلت: يقولون: السلام معنى، والمعنى لا يتجسم.

قال: قل لهم: فقد قال ﷺ:(لـو كـان الحيـاء رجلا لكـان رجلا صالحا، وإن الفحش من الفجور، وإن الفجـور في النـار، ولـو كـان

1) الديلمي في مسند الفردوس.

الفحش رجلا لكان رجلا سوءا)[1]

قلت: سيقولون:(لو) هنا تعني الافتراض، ولا تعني الوجود.

قال: قل لهم: فقد قال ﷺ:(يأتي القرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران، يأتيان كأنهما غيايتان وبينهما شرق، أو كأنهما غمامتان سوداوان، أو كأنهما ظلتان من طير صواف يجادلان عن صاحبهما)[2]

قلت: سيقولون ذلك في الآخرة.. أنا أعلم أنهم لن يقبلوا هذا، ولن يسلموا به، ولو أتيتهم بجميع أحاديث الدنيا، فاذكر لهم شيئا آخر تهضمه عقولهم.

قال: قل لهم هو:(اللمة)

قلت: أي لمة؟

قال: ألم تسمع قول رسول الله ﷺ:(إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان)[3]

قلت: فإن لم يفهموا ذلك؟

قال: قل لهم: هو القرين.

قلت: سيفهمون، ولكني لن ألقاك بعدها أبدا.

فقال: كيف؟.. ولماذا؟

قلت: لأنهم سيحملونني إلى الرقاة، ولعلهم يقومون بحرقك.. وسأنال من الهراوات ما نلته ليلة أمس.

قال: لا.. لم أقصد قرين الجن، بل قصدت قول رسول الله ﷺ:(ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا: وإياك قال: وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير)[4]

قلت: هم لا يؤمنون إلا بقرين الجن.

قال: فإن أعجبهم ذلك، فقل لهم: هو قرين صالح من الجن.

قلت: فسيقبلون هذا.. ويستبشرون.. لقد أمرتني بنشرها، فبم أسميها؟

قال: هل ابتسمت أمس لأنينك؟

---

1) البيهقي في الشعب.
2) أحمد ومسلم والترمذي.
3) الترمذي والنسائي ابن حبان.
4) أحمد ومسلم.

قلت: أجل، ولله الحمد والمنة، ولك الشكر والفضل.
قال: فسمها (ابتسامة الأنين)

هذا الكتاب

تحاول هذه الرسالة أن تعالج جراح الروح التي أحدثها ألم الجسد.. لتحول من أنين الجسد ابتسامة للروح ثقة بربها، وسلاما معه، ومع نظامه الذي أبدعه، ومقاديره التي قدرها.

وقد قاد الرحلة في هذه الرسالة (معلم السلام) الذي أخذ تلميذه المتألم المصارع إلى (مستشفى السلام) ليرى كيف يحول أهل السلام من الألم أملا، ومن الأنين ابتسامة، ومن الحزن صلة مع الله، ومن المصائب جسورا للوصول إلى فضل الله ورحمته التي وسعت كل شيء.

وهذه الرسالة تحاول كذلك أن تصحح المفاهيم حول الرؤية الشرعية للطب الروحاني، فهو طب معقول المعنى، لا ينكره علماء النفس، ولا غيرهم من العلماء، لأنه يعتمد على زرع الثقة في نفس المريض بربه، وتجعله يستهين بالآلام التي تنزل به لرؤيته ما هو أعظم منها وأفضل، وهي بذلك ترد على التشويهات الخطيرة التي أحدثها الدجالون والمشعوذون والخرافيون الذين يسمون أنفسهم رقاة، فشوهوا الدين في هذا المجال كما شوهوه في غيره من المجالات.